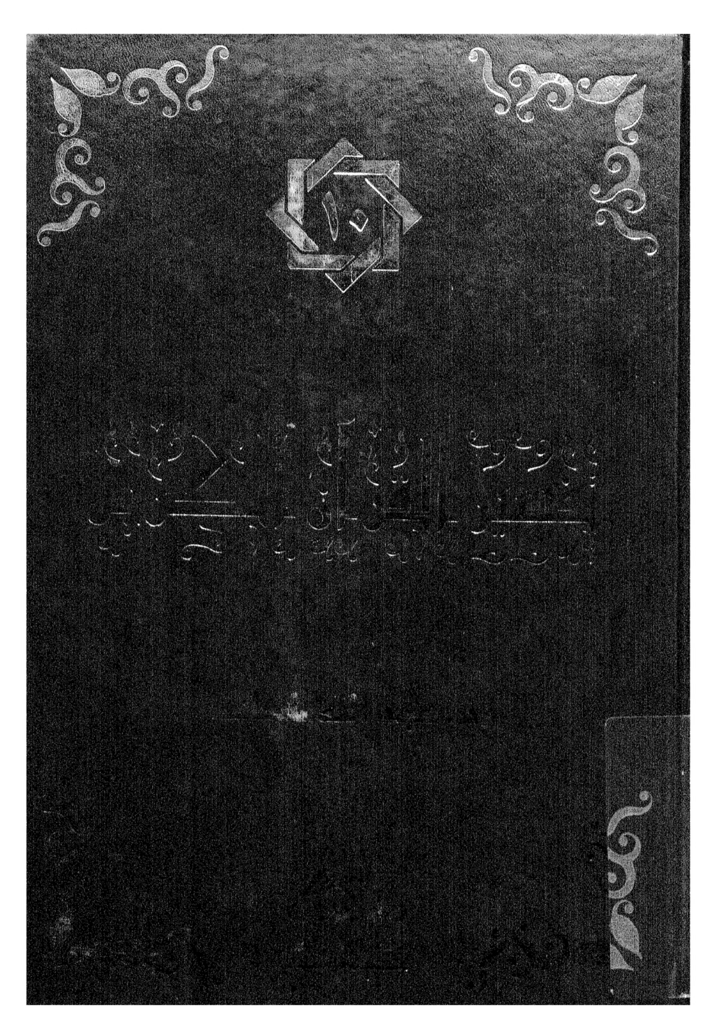


تفسير القرآن الكريم

الجزء التاسع عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩) ﴾

المفردات :

لا يرجون : لا يخافون ، أو لا يتوقعون .

لقاءنا : الرجوع إلينا للحساب ، أو لقاء جزائنا .

لولا أنزل : هلا أنزل علينا الملائكة لكى يخبرونا بصدق محمد ﷺ .

أو نرى ربنا : أو هلَّا نرى ربنا جهرة ومعاينة ، ليقول لنا إن محمدًا رسول من عندى .

استكبروا فى أنفسهم : أوقعوا الاستكبار فى شأن أنفسهم ، بعدّها كبيرة الشأن .

العتو : تجاوز الحدّ فى الظلم والعدوان .

عتوا كبيرا : وصلوا إلى الغاية القصوى منه ، حين كذبوا الرسول الذى جاء بالوحى ، ولم يكترثوا بالمعجزات التى أتاهم بها .

حجرا محجورا : كلمة تقولها العرب حين لقاء عَدُو موتور، أو هجوم نازلة هائلة، يقصدون بها الاستعاذة من وقوع ذلك الخطب الذى يلحقهم ، والمكروه الذى يلمّ بدارهم ، أى : نسأل الله أن يمنع ذلك منعًا ، ويحجره حجرًا .

وقدمنا : وعمدنا وقصدنا .

الهباء : دقاق التراب إذا انبث فى الهواء ، ولا يبدو إلا فى أثناء ضوء الشمس .

المنثور : المتفرق فى الجوّ ، بحيث لا يتأتى جمعه أو حصره .

المقيل : المكان الذى يؤوى إليه للاستمتاع بالأزواج ، والتمتع بحديثهن ، سمى بذلك لأن التمتع به يكون وقت القائلة غالبا .

تشقق : تتفتح السماء عن الغمام .

الحق : الثابت الذى لا يزول .

عسيرا : شديدًا .

يعض الظالم على يديه : كناية عن الندم .

خليلا : صديقا وصاحبا .

الذكر : القرآن .

خذولا : الخذل : الترك من الإعانة .

التفسير :

٢١ - وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ...

قال الكفار الذين لا أمل لهم فى البعث والجزاء والحساب ، لأنهم ينكرون البعث ولا يتوقعونه ، قالوا على سبيل التعنت والعناد : هلا أنزل علينا الملائكة ، لكى يخبرونا بصدق محمد ، أو هلا نرى ربنا فينبئنا بذلك .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلاً . (الإسراء : ٩٢) . أى : ليشهدوا بصدقك .

لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا .

لقد أضمروا فى أنفسهم الكبر والغرور ، والبعد عن الحق ، والظلم والطغيان ، ووصلوا فى عتوّهم إلى الغاية القصوى منه .

٢٢ - يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا .

إن الكفار طلبوا نزول الملائكة ، تعنتًا وكبرًا فيما سبق ، وهنا يقول : إن الكفار سيرون الملائكة فى يوم الممات ، ولكن لا تحمل لهم البشرى بالجنة ، بل تحمل الوعيد والتهديد للمجرمين ، الذين أسرفوا على أنفسهم فى الدنيا ، وعندئذ يقول الكافرون : عوذًا معاذًا ، أى : نرجو ونأمل أن نستعيذ من عذابكم .

واختار ابن جرير الطبرى أن تكون جملة : حِجْرًا مَّحْجُورًا . من كلام الملائكة ، أى : تقول الملائكة للكافرين : حرام محرم عليكم الفلاح اليوم[1] .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : **وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ** ... (الأنفال : ٥٠) .

وقال تعالى : **وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ** . (الأنعام : ٩٣) .

وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم ، فإن الملائكة تحضر وفاتهم ، وتبشرهم بالجنة وأنواع النعيم .

قال تعالى : **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** . (فصلت : ٣٠ - ٣٢) .

قال ابن كثير :

جاء فى الحديث الصحيح ، عن البراء بن عازب : «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجى أيتها النفس الطيبة ، من الجسد الطيب كنت تعمرينه ، اخرجى إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان» .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : **يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ** . (إبراهيم : ٢٧) .

وقال آخرون : بل المراد بقوله تعالى : **يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ** ... يعنى يوم القيامة ، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ، ولا منافاة بين هذا ، وما تقدم . فإن الملائكة فى هذين اليومين ، يوم الممات ، ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين والكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين[2] .

٢٣ - وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا .

كان المشركون يعملون أعمالا حسنة المظهر ، مثل صلة الرحم وإطعام الفقراء ، لكن لا أساس لها من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فهى أشبه بخضراء الدِّمن ، وهى المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، وفى يوم القيامة يجدون جزاء هذه الأعمال ضائعا ، ضياع ذرَّات التراب ، المنتشرة بسبب شعاع الشمس ، أو ضياع الوقش الجاف فى شدَّة الرياح .

قال تعالى : مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ... (ابراهيم : ١٨) .

قال قتادة : هَبَآءً مَّنثُورًا . يبس الشجر إذا ذرته الريح ، فهو ذلك الورق .

وقال عبيد بن يعلى : الهباء : الرماد إذا ذرته الريح .

قال ابن كثير :

وحاصل هذه الأقوال : التنبيه على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شىء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذى لا يجور ولا يظلم أحدًا ، إذا بها لا شىء بالكلية ، وشبهت فى ذلك بالشىء التافه الحقير المتفرق ، الذى لا يقدر صاحبه منه على شىء بالكلية .

كما قال تعالى : مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ... (ابراهيم : ١٨).

٢٤ - أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً .

المستقر : مكان الاستقرار ، والمقيل : المكان الذى يأوون إليه ، للاسترواح إلى أزواجهم ، والاستمتاع بمغازلتهن ، وملامستهن كحال المترفين فى الدنيا .

والمعنى :

أصحاب الجنة فى يوم القيامة فى مكان حسن ، وزمان حسن ، حيث إنهم من جهة المكان فى أحسن مكان ، ومن جهة الزمان فى أحسن زمان ، فهم فى الغرف من الجنة ، وفى منزل عظيم من المتعة والسرور ، والحبور والمؤانسة .

قال تعالى : فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا . (الانشقاق : ٧ - ٩) .

وتفيد الآيات أن حساب المؤمن يكون يسيرا ، وأن موقف الحساب يكون هينًا من طلوع الشمس إلى ارتفاعها وقت الضحى ، ثم يقضى وقت القيلولة مع الحور العين ، فى جنات النعيم .

وروى ابن جرير الطبرى بإسناده : أن يوم القيامة يقصر على المؤمن ، حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وإنهم ليقيلون فى رياض الجنة ، حتى يفرغ من الناس [٣] . وذلك قوله تعالى :

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً .

٢٥ - وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً .

تصف الآية مظهرًا من مظاهر القيامة، حيث تنشق السماء على غلظها ، ويخرج الغمام من السماء، وتتعلق الملائكة بأطراف السماء ، ثم تنزل إلى الأرض فتحيط بأهل الأرض ، والغمام : غيم أبيض رقيق مثل الضبابة ، كما كان لبنى إسرائيل فى التيه ، حيث كان يقيهم وهج الشمس ، قال تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. (البقرة : ٥٧) .

وقد ورد فى القرآن الكريم وصف مشاهد القيامة ، ومن هذه المشاهد : انشقاق السماء ، وتعلّق الملائكة بأرجاء السماء ، واشتداد الهول ، وتميّز المؤمنين بالسعادة والسرور ، واختصاص الكفار بالعذاب والويل والثبور .

قال تعالى : وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ . (الحاقة : ١٦ – ١٨) .

وقال تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ . (البقرة : ٢١٠) .

وقال تعالى : وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . (الفجر : ٢٢) .

وتشير الآية إلى أن الملائكة تنزل إلى الأرض نزولاً مؤكدًا ، لا لبس فيه ولا شك ، وفى هذا ردٌّ على المشركين الذين قالوا : لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ...

قال النيسابورى :

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ...

أى : واذكر يوم تتفتح السماء ، بسبب غمام يخرج منها ، وفى الغمام الملائكة ، فينزلون وفى أيديهم صحائف أعمال العباد .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا . (الانشقاق . ١ - ٩) .

٢٦ - ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ[4] وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا .

فى هذا اليوم تبطل أملاك المالكين من الناس ، وتنقطع دعاواهم ، ويخلص الملك للرحمان وحده، ويكون اليوم شديدا عصيبا على الكافرين ، كما يكون يسيرا ومبشرا للمؤمنين ، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

قال ابن كثير :

وفى الصحيح : «أن الله تعالى يطوى السماوات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون؟»[5] .

٢٧ - وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً .

وفى يوم القيامة يعضُّ الظالم على يديه ، كناية عن الندم والأسف والحسرة .

قال تعالى : وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... (سبأ : ٣٣) .

ويقول الظالم فى ذلك اليوم : يا ليتنى اتبعت الرسول ، وسلكت معه طريق الحق والجنة ، وتجنبت طريق النار والمكابرة والعناد .

سبب النزول :

نزلت هذه الآية وما بعدها ، فى عقبة بن أبى معيط ، دعا النبى ﷺ لحضور طعام عنده ، فقال له النبىُّ ﷺ : «لا آكل من طعامك حتى تنطق بالشهادتين» ، فنطق بهما ، فبلغ ذلك صديقه أبىَ بن خلف ، فقال له : يا عقبة ، بلغنى أنك أسلمت ، فقال له : لا ، ولكن قلت ما قلت تطييبا لقلب محمد ، حتى يأكل من طعامى، فقال أبىّ بن خلف لعقبة بن أبى معيط : كلامك علىّ حرام ، حتى تفعل كذا وكذا ، من الإيذاء بمحمد ، ففعل الشقى ما أمره به صديقه ، أمّا عقبة بن أبى معيط ، فقد أمر النبى ﷺ بقتله فى غزوة بدر ، وأما أبىّ بن خلف فقد طعنه النبى ﷺ فى غزوة أحد طعنة لم يبق بعدها سوى أيام ، ثم هلك . والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فإن الآية عامة فى كل ظالم يسلك طريق الهوى ، ويبتعد عن طريق الحق ، فيندم حين لا ينفع الندم .

قال جار الله الزمخشرى : تمنَّى أن لو صحب الرسول ، وسلك معه طريقا واحدًا ، وهو طريق الحق ، ولم تتشعب به طرق الضلالة والهوى .

٢٨ - يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً .

يا حسرتاه ، ويا هلاكاه ، ليتنى لم أتخذ الفاجر الظالم صديقا وخليلا وأنيسا وصاحبا ، وكلمة: يَٰوَيْلَتَىٰ . تستعمل عند وقوع داهية دهياء لا نجاة منها ، وكأن المتحسر ينادى ويلته ، ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من يفهم نداءه ، أى : يا هلاكى أقبل ، فهذا أوان إقبالك .

قال النيسابورى :

فإن أريد بالظالم عقبة بن أبى معيط ، فالمعنى : ليتنى لم أتخذ أبىَّ بن خلف خليلا ، فكنَّى عن اسمه. وإن أريد به الجنس ، فكل من اتخذ من المضلين خليلا ، كان لخليله اسم علم فجعله كناية عنه .

وقال ابن كثير :

والمراد بـ فُلَانًا : كل من صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلال ، من دعاة الضلالة ، وسواء فى ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبىّ بن خلف أو غيرهما . ا هـ .

٢٩ - لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً .

أى : والله لقد أضلنى هذا الصديق المشئوم ، عن الهداية والإيمان ، أو عن تعاليم النبى ﷺ ، بعد إذ وصلتنى ، أو عن القرآن بعد أن بلغنى ، وكان هذا الصديق وأمثاله أشبه بالشياطين ، التى تصرف الإنسان عن الحق والهداية ، أو أراد به الجنس فيدخل فيه كل من تشيطن من الجن والإنس .

قال ابن كثير :

وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً .

أى : يخذله عن الحق ويصرفه عنه ، ويستعمله فى الباطل ، ويدعوه إليه . ا هـ .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ . (فاطر : ٦) . ومن خذلان الشيطان ، تحريض الإنسان على الشر ، وصرفه عن الحق ، ثم إن الشيطان لا ينفع الإنسان ، ولا ينجيه مما يحل به من البلاء بل يتبرأ منه .

قال تعالى : وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (إبراهيم : ٢٢) .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) ﴾

المفردات :

مهجورا : تركوه وصدُّوا عنه وعن الإيمان به ، أو أهملوه ولم يتعهدوه بالقراءة والحفظ والعمل به .

جملة واحدة : دفعة واحدة .

لنثبت : لنقوى ونطمئن .

رتلناه : أتينا ببعضه إثر بعض ، على تؤدة ومهل ، من قولهم : ثغر مرتل ، أى : متفلج الأسنان .

بمثل : بنوع من الكلام جارٍ مجرى المثل ، فى تنميقه وتحسينه، ورشاقة لفظه، وصدق معناه .

الحق : القول الثابت الذى يزهق باطلهم .

تفسيرا : إيضاحًا .

يحشرون على وجوههم : يسحبون على وجوههم ، ويجرُّون إلى جهنم .

التفسير :

٣٠ - وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا .

اشتكى الرسول محمد ﷺ إلى ربّه ، من تعنُّت المشركين ، وصدودهم عن الإيمان ، وإعراضهم عن سماع القرآن ، بل كانوا يتشاغلون عن القرآن ، ولا ينصتون إليه خشية أن تلين له قلوبهم ، أو أن تتأثر به نفوسهم ، كما قال تعالى : **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** . (فصلت : ٢٦) .

قال ابن كثير :

كانوا إذا تلى عليهم القرآن ، أكثروا اللغط والكلام فى غيره ، حتى لا يسمعوه ، فهذا من هجرانه ، وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام ، أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه ، فنسأل الله الكريم المنان ، القادر على ما يشاء ، أن يخلصنا مما يسخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار ، على الوجه الذى يحبه ويرضاه ، إنه كريم وهاب .

٣١ - وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا .

استخلف الله الإنسان فى الأرض ، وأرسل إليه الرسل ، وأنزل له الكتب لهدايته ، ودعوته إلى الحق والإيمان ، وقد وقف أهل الباطل فى وجه دعوة الحق ، لحكمة إلهية عليا ، فلو نجحت دعوة الحق بدون معارضة ، لكثر الأدعياء وكثرت دعاوى الباطل ، لكن مشيئة الله الغالبة ، أرادت أن تكون هناك مقاومة للحق من المجرمين المضلين ، حيث إن هؤلاء أشبه بالحشرات والديدان ، تكره الماء الصالح النقىّ ، وترغب الحياة فى الماء الآسن ، والتربة الآسنة ، ومن حكمة الله أن يبدأ الصراع بين دعاة الحق ، ودعاة الباطل ، وأن تقف الكثرة من الناس منتظرة متفرجة ، فإذا طال العذاب والتضحيات ، قالت الكثرة المتفرجة : ماذا يحمل هؤلاء على الصمود والتضحيات ؟ لابد أن هناك شيئا مّا ، يهوِّن عليهم الصبر والمصابرة ، فيدخلون فى دعوة الحق لمشاهدة هذا الشىء ، ويكون ذلك سببا فى هدايتهم إلى الحق ، وانتصار الحق على الباطل ، كما قال تعالى : **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ** . (الأنعام : ١١٢ ، ١١٣) .

والآية تسلية للرسول ﷺ ، ليصبر على إيذاء قومه ، وليعلم أن هذه ضريبة الدعوة ، قد دفعها الرسل السابقون ، كما سيدفعها اللاحقون ، قال تعالى : **فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ** ... (الأحقاف : ٣٥) .

جاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم :

كما جعلنا قومك – يا محمد – يعادونك ويكذبونك ، جعلنا لكل نبى عدوًا من المجرمين ،يعادونه ويقاومون دعوته ، وسينصرك الله ويهديك إلى قهرهم وكفى به هاديًا ونصيرًا . اهـ .

٣٢ – وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً .

تفنن الكافرون فى اعتراضاتهم على القرآن والرسالة ، وفيما سبق طلبوا نزول الملائكة ، ورؤية الله تعالى ، وهنا ، يعترضون على نزول القرآن مفرقا ، فى ثلاث وعشرين سنة ، ويقولون : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ، كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور ؟ ويجيب القرآن بالحكمة من نزوله مفرقا منجما ، وهى:

١ – تثبيت قلب النبى ﷺ ، برؤية جبريل سفيرًا عن الله فى أحيان كثيرة .

٢ – ليتم التحدى والإعجاز ببعض سور القرآن ، فإذا عجزوا عن بعض القرآن ، كانوا عن الكلّ أعجز .

٣ – استمرار مناقشة الكافرين ، ومناقضة حججهم .

٤ – تربية المسلمين ورعايتهم والتشريع لهم ، والتدرج فى ذلك التشريع بما يناسب أحوالهم .

٥ – علم الله أن هذا الكتاب ، آخر الكتب السماوية نزولا إلى الأرض ، فشاء الله أن ينزله منجما متفرقا ، يواكب حياة المسلمين فى مكة ، ويحثهم على الصبر ، ويحكى لهم خبر الأمم السابقة ، ثم يواكب حياة المسلمين فى المدينة ، ويرصد جهادهم ، ويشرِّع لهم ، ويراقب المنافقين ويحذر المسلمين من فتنتهم ، وبذلك يكون القرآن الكريم كتاب الحياة ، والتربية والجهاد ، شأن الأوامر اليومية ، التى توزّع على الجنود فى كتيبتهم ، فيطيعونها وينفِّذونها ، ويتخلقون بأخلاق القرآن ، على تؤدة وتمهل ، وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها ، عن أخلاق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن(١) .

قال تعالى : وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلاً . (الإسراء : ١٠٦) .

أى : فرقنا القرآن ليثبت قلوب المؤمنين ، ويتعهدهم بين الفينة والفينة ، ولو نزل جملة واحدة ، لكان كتاب علم أو معرفة أو متعة ، وقد أراد الله أن يكون كتاب حياة ، ومنهج عمل ، وتشريعًا وتربية وسلوكًا وبعثًا ، وتدريبًا على الامتثال والتحمل ، والطاعة والخيرية والوسطية .

قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ... (الشورى : ٥٢) .

وقال سبحانه : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... (البقرة : ١٤٣)

٣٣ - وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا .

المثل يطلق على الأمر العجيب ، والقصة العجيبة ، وكان الكفار يتعنتون فى أسئلتهم ، ويقترحون تفجير العيون بمكة ، وانتشار البساتين حولها ، مثل بساتين الشام ، أو زحزحة الجبال من حول مكة ، أو نزول الملائكة ، أو رؤية الله ، وكان القرآن ينزل منجما ليردّ عليهم ، ويتحدّاهم ، ويوضح لهم مهمة الرسول والرسالة .

وقد جمع الله للقرآن من صفات العظمة ما جمع ، فأنزله جملة واحدة إلى اللوح المحفوظ ، فى السماء السابعة ، ثم أنزله منجمًا مفرقًا حسب الوقائع والحوادث .

قال فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

ولا يأتونك بحال من الاعتراضات الواهية ، إلا جئناك بالحق نبينه ونفسّره أحسن تفسيرا .

٣٤ - ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً .

كان كفار مكة يستهينون بالنبى الأمين ، ويقولون : أما وجد الله رسولا غير هذا اليتيم الفقير ، ويمنعهم الكبر والتعالى عن الإيمان ، والآية هنا تخبرهم : بأنكم ستكونون أحط منزلة ، وأسوأ حالا ، حين تُسحبون إلى النار على وجوهكم ، عقابا على تكبركم ، وعدم استخدام عقولكم .

قال ابن كثير :

وفى الصحيح ، عن أنس : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : «إن الذى أمشاه على رجليه ، قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» [٧] .

وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة ، وغير واحد من المفسرين . ا هـ .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

وزيــــرا : الوزير : المعين والمساعد ، قال الزجاج : الوزير من يرجع إليه للاستعانة برأيه .

تـدميـرا : التدمير : كسر الشيء على وجهٍ لا يمكن معه إصلاحه .

أعـتـدنـا : هيأنا وأعددنا .

الـــرس : البئر غير المبنية ، والجمع رساس ، قال أبو عبيدة : والمراد بهم كما قال قتادة : أهل قرية من اليمامة ، يقال لها : الرس والقلج ، قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح .

التتبيـر : التفتيت والتكسير .

الـقـريـة : هي سدوم أعظم قرى قوم لوط .

لا يرجون : لا يتوقعون .

النشـور : البعث للحساب والجزاء .

التفسير :

٣٥ – وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا .

يستعرض القرآن الكريم هنا قصص الأمم السابقة تسلية للرسول ﷺ ، وتحذيرًا للمشركين حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء المكذبين .

والمعنى :

والله لقد آتينا موسى التوراة ، وجعلنا معه هارون رسولاً أيضًا ، ووزيرًا مساعدًا ومعاونًا لموسى عليه السلام ، وكان موسى قد طلب من الله ، أن يرسل معه هارون مساعدًا ومعاونًا ، فاستجاب الله لرجائه .

قال تعالى : وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَـٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى . (طه : ٢٩ - ٣٢) .

وقال سبحانه وتعالى : وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ... (القصص : ٣٤ ، ٣٥) .

٣٦ - فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا .

تستعرض الآية فى إجمال قصة رسالة موسى، وتكذيب فرعون، واستحقاقه للعذاب والإغراق فى ماء النيل.

والمعنى :

قلنا لموسى وهارون : اذهبا إلى فرعون وملئه ، فكذَّبوا بالتوراة ورسالة موسى ، والمعجزات التى أعطاها الله لموسى مثل : اليد ، والعصا ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وغيرها من الآيات ، وقد كذَّب فرعون وقومه ، وسخروا من موسى ، واشتد عذابهم لبنى إسرائيل ، فاستدرج الله فرعون حتى خرج وراء موسى ، وضرب موسى البحر بعصاه فانفلق نصفين ، فسار فيه موسى وقومه ، ثم أتبعهم فرعون بجنوده ، فأغرقهم الله أجمعين ، ودمرهم تدميرا ، وأهلكهم إهلاكًا مبينًا .

قال تعالى : وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ . (يونس : ٩٠ - ٩٢) .

وقال سبحانه وتعالى : فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ . (الدخان : ٢٢ - ٢٨) .

٣٧ - وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا .

تشير الآية إلى قصة نوح مع قومه ، فقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وتفنن فى دعوتهم إلى توحيد الله ، وأرشدهم إلى عظمة الخالق وعظيم نعمائه ، وفى سورة نوح نجد طرفا من ذلك ، ثم سخر قوم نوح منه وكذبوا برسالته ، وبذلك صاروا مكذبين لرسالات الرسل أجمعين ؛ لأن الرسل جميعا أرسلوا بدعوة التوحيد ، وعبادة الله تعالى ونبذ الشرك وعبادة الأوثان ، فمن كذب بدعوة رسول من رسل الله فكأنما كذَّب برسل الله أجمعين .

وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ...

أى : جعلناهم عظة وعبرة ، حيث أغرقهم الله أجمعين بالطوفان ، ونجّى الله نوحا ومن آمن معه .

وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ . (هود : ٤٠) .

وفى هذا تهديد ووعيد لكل ظالم ، فالله يمهله ولا يهمله ، وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» [٨] .

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا .

هيأنا وأعددنا للظالمين عذابًا أليمًا موجعًا .

٣٨ - وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَ ٰلِكَ كَثِيرًا .

ودمرنا وأهلكنا قوم عاد ، بسبب تكذيبهم لنبيهم هود ، كما أهلكنا قوم ثمود بسبب تكذيبهم لنبيهم صالح.

قال تعالى : ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ . (الحاقة : ١ - ٨) .

كانت عاد تسكن فى جنوب الجزيرة فى مكان يسمى الأحقاف ، أى : الكثيب من الرمال .

قال تعالى : وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ... (الأحقاف : ٢١) .

وهذا المكان الآن بين اليمن وسلطنة عمان . فى منطقة صلالة ، وتوجد فى صلالة سينما تسمّى سينما الأحقاف ، وقد اكتُشفت قرب صلالة ، آثار مطمورة ، طمرتها الرياح ، عبارة عن مدن بائدة يرجَّح أنها من آثار عاد قوم هود .

قال تعالى : أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ . (هود : ٦٠) .

وكانت ثمود تسكن فى شمال الجزيرة العربية ، بين الحجاز والشام . وقد مر النبى ﷺ على قراهم ، وهو فى طريقه إلى غزوة تبوك ، ولما مرّ ﷺ على قرى ثمود قوم صالح ، حنى ظهره ، واستحث راحلته ، وقال لأصحابه : «لا تمرّوا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون أن يصيبكم ما أصابهم» [٩].

قال تعالى : وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ . (هود : ٦١) .

أصحاب الرسّ

الرس : البئر التى لم تبن بالحجارة ، وقيل : البئر مطلقا ، وقد اختار ابن جرير الطبرى : أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكرهم الله فى سورة البروج .

وقال بعض المفسرين : إنهم من بقايا قبيلة ثمود ، بعث الله إليهم نبيا فكذبوه ، ورسُّوه فى تلك البئر ، أى : ألقوا به فيها ، فأهلكهم الله تعالى .

وفى ذيل المنتخب فى تفسير القرآن ، طبعة ١٣ لوزارة الأوقاف المصرية ما يأتى :

وأصحاب الرسّ ، قوم كانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله شعيبا إليهم ، وقد ذكرهم شعيب بأنعم الله عليهم وما هم فيه من أشجار وآبار ، وخيرات كثيرة ، ولكنهم كفروا بنعمة الله ، وكذبوا رسولهم ، وعبدوا الأوثان ، وبينما هم حول الرس (أى : البئر) إذ انهارت بهم ، وخسف الله تعالى بهم الأرض .

قال تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ * وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ . (ق : ١٢ - ١٤) .

وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا .

أى : لقد أهلكنا عادًا وثمود ، وأصحاب الرس لما كذبوا رسلهم ، وأهلكنا أمما كثيرة كانوا بين أمة نوح وبين عاد ، فأصابهم جزاء الظالمين ، والقرون جمع قرن، والمراد به : الجيل من الناس ، الذين اقترنوا فى زمان واحد من الأزمنة .

وفى الحديث الشريف : «خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ...»[١٠] رواه البخارى .

ومن شأن الله أن يهلك الظالمين ، والأمم الظالمة ، وأن ينشئ بعدها أمما أخرى ، قال تعالى : أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ . (الأنعام : ٦) .

٣٩ - وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا .

أي : جميع هؤلاء المكذبين ، من قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس ، والأمم الكثيرة التى كذبت رسلها ، كل هؤلاء أرسلنا إليهم الرسل ، وأنزلنا لهم الكتب ، وقدمنا لهم المواعظ ، والنصائح والعظات ، والأمثال الصحيحة النافعة ، ولكنهم لم يتعظوا ، وآثروا الضلالة على الهدى ؛ فاستحقوا الهلاك والنكال .

وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا .

أي : وكل قرن وأمة من هؤلاء ، أهلكناه إهلاكًا لا قيام له منه .

وأصل التتبير : التفتيت ، ومنه : التبر ، لفتات الذهب والفضة ، والمراد : التمزيق والإهلاك الشديد الذى يستأصل من نزل به .

٤٠ - وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا .

إن أهل مكة يمرون فى طريقهم إلى الشام ، بقرى سدوم ، وهى أكبر قرية لقوم لوط ، وكان أهلها يأتون الذكران من العالمين ، ويتركون جماع النساء ، بحثا عن المثلية الجنسية ، واستغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وقد أهلك الله قرية سدوم ، بمطر بركانى ، من الأبخرة والحجارة فدمَّرها تدميرًا ، وصارت عظة وعبرة لكل مكذب فاجر .

أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا .

أفلم يشاهدوها ويشاهدوا ما حلّ بأهلها ؟ لقد شاهدوها ، ولكنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا ، لأنهم كذبوا بالبعث والنشور والحساب ؛ لذلك لم تتأثر قلوبهم بهذه الآية ، قال تعالى: وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ . (يوسف : ١٠٥ ، ١٠٦) .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

التفسير :

٤١ – وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا .

كان أهل مكة أعرف الناس بصدق الرسول ﷺ وأمانته ، فقد مكث بينهم أربعين عاما قبل الرسالة ، شاهدوا سلوكه ، وقبلوا حكومته بينهم فى وضع الحجر الأسود عند بناء الكعبة ، وقد كان أحسنهم صورة من ناحية الشكل والمظهر ، وأحسنهم أخلاقا من ناحية المعانى والمخبر ، وقد تحدّاهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين جمعهم عند الصفا ، وقال لهم : «لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ» ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، فقال لهم : «والله الذى لا إله إلا هو ، إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة» ، فقال أبو لهب : تبًا لك ، ألهذا جمعتنا ؟[١١] ، فأنزل الله تعالى : تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ... إلى آخر السورة . (المسد : ١ – ٥) .

ومعنى الآية :

إذا شاهدك كفّار مكة ، سخروا منك ، وأنقصوا من قدرك ، واستهزءوا بك ، عنادًا وسفها ومكابرة ، وقالوا ساخرين على سبيل التنقص والازدراء :

أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا .

أى : أما وجد الله غير هذا اليتيم الفقير حتى يرسله رسولا .

ونحو هذه الآية قوله تعالى : وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ * خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ . (الأنبياء : ٣٦ ، ٣٧) .

وفى هذا المعنى قال تعالى : وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ... (الزخرف : ٣١ ، ٣٢) .

٤٢ – إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً .

أى : كاد أن يصرفنا عن عبادة الأصنام ، لولا أن قاومنا دعوته ، وانصرفنا عنها ، وتمسكنا بعبادة الأصنام والأوثان .

وفى هذا المعنى يقول تعالى : وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ * أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ . (ص : ٦ – ٨) .

ونجد فى هذه الآية اعترافًا من الكفار بقوة القرآن ، وأثره فى النفوس ، وإخلاص الرسول وقوة حجته ، حتى إنه أوشك أن ينقلهم من الكفر والشرك ، إلى الإيمان والتوحيد ، لولا صمودهم وتعاليهم، وإصرارهم على الكفر ، كما قال تعالى: وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . (فصلت : ٢٦)

ثم يعاجلهم القرآن ، بمشهد العذاب يوم القيامة ، حين يرون جهنم تتلمظ غيظا على من عصى الله ، عندئذ سيعلمون علم اليقين ، من هو الضال ، ومن هو المهتدى ، أهم أم المؤمنون . وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً .

قال النيسابورى : وإنما يرون العذاب عند كشف الغطاء عن بصر البصيرة .

وقال فى المنتخب فى تفسير القرآن :

معنى الآية : لقد أوتى هذا الرجل من حسن البيان وقوة الحجة ، ما يجذب السامعين ، ولقد نال من عقائدنا حتى كاد يزحزحنا عن آلهتنا ، ويميلنا إلى إلهه ، ولكننا ثبتنا على آلهتنا وديننا . وسنبيّن لهم جلية الأمر حين يرون العذاب يوم القيامة ، ويعلمون من هو أثبت فى الضلال والغواية .

٤٣ – أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً .

وهنا يتعجب القرآن من هؤلاء الكفار ، الذين عبدوا الأحجار ، ولم يفتحوا عقولهم للنظر فى الحق والهدى ، أى : إنهم – يا محمد – أهل لأن تعجب منهم ، ولكن لا تحزن على كفرهم ، فما عليك إلا البلاغ ، ولست مسئولاً عن هدايتهم .

قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا ، ثم إذا رأى غيره أحسن منه ؛ عبد الثانى وترك الأوّل .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى : أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ... (فاطر : ٨).

٤٤ – أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا .

وهل تظن أن أكثرهم يسمعون سماع الفهم ، أو يهتدون بعقولهم ؟ لقد نبذوا ما تأمرهم به أحلامهم ، وصاروا كالبهائم ، لا هم لهم إلا الأكل والشرب ومتاع الحياة الدنيا ، ولا تفكير لهم فيما وراء ذلك ، بل هم شر مكانا من البهائم ، فالبهائم تنقاد لأصحابها إلى ما فيه خيرها ، وتنأى عما يضرها ، وهؤلاء يلقون بأنفسهم فيما يهلكهم .

ومن كمال القرآن قوله : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ ... لأن هناك قلة منهم كانت تعرف الحق معرفة حقيقية ، لكن المكابرة والعناد والحسد وأشباه ذلك ، منعهم من الإيمان ، قال تعالى : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر ؟ قلت : كان فيهم من لا يصدّه عن الإسلام إلا داء واحد ، وهو حب الرياسة ، وكفى به داء عضالا .

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات :

ألم تر : ألم تنظر .

إلى ربك : إلى صنعه .

مد : بسط .

الظل : ما يحدث من مقابلة جسم كثيف ، كجبل أو بناء أو شجر للشمس ، من حين ابتداء طلوعها إلى غروبها .

ساكنا : ثابتا على حاله فى الطول والامتداد ، بحيث لا يزول ولا تذهبه الشمس .

دليلا : علامة .

قبضناه : محوناه .

يسيرا : على مهل قليلا قليلا ، بحسب سير الشمس فى فلكها .

سباتا : من السبت ، وهو القطع ، لانقطاع التعب فيه ، أو لانقطاع الحياة الكاملة .

النشور : البعث .

بشرا : (تخفيف بُشُر بضمتين) واحدها : بشور ، كرُسل ورسُول ، أى : مبشرات .

بين يديه : قدّامه .

الرحمة : المطر .

طهورا : يتطهر به .

البلدة : الأرض .

الميت : التى لا نبات فيها .

الأنعام : الإبل والبقر والغنم ، وخصها بالذكر لأنها ذخيرة ، ومعاش أكثر أهل المدر منها .

أناسى : واحدهم : إنسان (أصله : أناسين ، أبدلت النون ياء ، وأدغمت فى الياء) .

صرفناه : حولناه فى أوقات مختلفة إلى بلدان متعددة .

ليذكروا : ليعتبروا .

كفورا : كفرانا للنعمة ، وإنكارًا لها .

نذيرا : نبيًا ينذر أهلها .

مرج : خلط ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ . (ق : ٥) . أى : مختلط ، ومنه قيل للمرعى: مرج؛ لاختلاط الدواب فيه بعضها ببعض ، ويطلق المرْج بمعنى الإرسال والتخلية .

فرات : مفرط العذوبة .

أجاج : شديد الملوحة .

برزخا : حاجزا .

حجرا محجورا : تنافرًا شديدًا ، فلا يبغى أحدهما على الآخر ، ولا يفسد الملح العذب .

نسبا وصهرا : ذكورًا ينسب إليهم ، وإناثًا يصاهر بهن .

التفسير :

٤٥ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ .

فى هذه الآيات يلفت القرآن الأنظار إلى ما فى الكون من دلائل القدرة والعظمة ، والعناية والرعاية، فهذا الكون أثر قدرة الله ، خلقه الله وأمدّه بمقومات الحياة ، وجعل فيه التكامل والتعاون بين أجزائه ، ليستفيد بذلك الإنسان والحيوان والنبات ، ومن هذه النعم : نعمة الظل والشمس ، والنوم واليقظة ، والرياح والسحاب والمطر ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتيسير الأمطار ، وتكوين البحار والأنهار ، وخلق الإنسان والحيوان والنبات ، وسائر الموجودات .

إن حركة الكون عند انقضاء الليل ، ومجيء الفجر ، ونور النهار ، تجد ظلاً كاملاً بين عتمة الليل المخيف ، وضوء الشمس وحرارتها اللافحة ، وعند طلوع الشمس يبدأ الظل يظهر ، ثم يتقلص قليلاً قليلاً .

قال في ظلال القرآن :

والظل هو ما تلقيه الأجرام من الظلمة الخفيفة ، حين تحجب أشعة الشمس في النهار ، وهو يتحرك مع حركة الأرض في مواجهة الشمس ، فتتغير أوضاعه وامتداداته وأشكاله ، والشمس تدل عليها وعليه بضوئها وحرارتها ، وتميز ساحته وامتداده وارتداده ، ومتابعة خطوات الظل في مدّه وانقباضه ، يشيع في النفس نداوة وراحة ، كما يثير فيها يقظة لطيفة شفيفة ، وهي تتبع صنع البارى اللطيف الخبير . ا هـ .

وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما يأتي :

لقد نصبنا من الدلائل على التوحيد ما يهدى ذوى الألباب ، انظر إلى الظل فقد بسطه الله وجعله ساكنا أول النهار ، ثم سلّطنا الشمس تزيل منه بما يحل محله من أشعتها ، فكانت الشمس دالة عليه ، ولولاها ما عرف الظل ، ولو شاء الله لجعل الظل ساكنا مطبقا على الناس ، فتفوت مصالحهم ومرافقهم .

وفي هامش المنتخب ما يأتي :

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً .

هذه الآية تظهر عناية الخالق وقدرته ، فمدّ الظل يدل على دوران الأرض ، وعلى ميل محور دورانها، ولو أن الأرض سكنت ، بحيث إنها ظلت غير متحركة حول الشمس ، وكذلك انعدام دورانها حول محورها ، لسكن الظل ، ولظلت أشعة الشمس مسلطة على نصف الأرض ، بينما يظل النصف الآخر ليلاً ، مما يحدث اختلاف التوازن الحرارى ، ويؤدى إلى انعدام الحياة على الأرض ، وكذلك إذا كان هذا هو حال الأرض ، فإن الظل يظل ساكنا ، وهذا أيضًا يحدث إذا كانت فترة دوران الأرض حول محورها هي نفسها فترة دورانها حول الشمس ، أي أن اليوم يصبح سنة كاملة ، ولكن لا يمكن أن يفعل ذلك غير الله ، هذا فضلا عن أن الظل ذاته نعمة من نعم الله ، ولو أن الله خلق الأشياء كلها شفافة لما وجد الظل ، ولانعدمت فرص الحياة أمام الكائنات التي تحتاج إليه .[١٢] .

٤٦ - ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا .

عندما ترتفع الشمس تزيل آثار الظل شيئا فشيئا بالتدريج ، وينقبض الظل سهلاً هينًا لا يكسر شيئًا ، ولا يعطل حركة .

وقيل : المعنى : ثم قبضنا الشمس قبضًا يسيرا .

قال فى الظلال :

وإن مشهد الظلال والشمس مائلة للمغيب ، وهى تطول وتطول ، وتمتد وتمتد ، ثم فى لحظة ، لحظة واحدة ، ينظر الإنسان فلا يجدها جميعا ، لقد اختفى قرص الشمس ، وتوارت معه الظلال ، أين تراها ذهبت ؟ لقد قبضتها اليد الخفية التى مدّتها ، لقد انطوت كلها فى الظل الغامر الطامى ، ظل الليل والظلام[١٣] .

إنها يد القدرة القوية اللطيفة التى يغفل عنها البشر ، وهى تعمل دائبة لا يدركها الكلال .

٤٧ - وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا .

يمتن الله تعالى على عباده بثلاث نعم :

١ - الليل يأتى بظلامه البهيم فيهدأ الناس ، ويغطى الظلام كل شىء كأنه لباس تلبسه الأشياء .

٢ - النوم يقطع الأعمال ، وتستريح الأبدان ، وتنسحب الروح من الجسم ، وتكون الأحلام فى النوم ، والراحة التى تكسب الإنسان قدرة وصفاء وتألقا .

٣ - ثم يأتى النهار فتنبعث الحياة ، وتشرق الشمس ، ويعم الضياء ، ويهبُّ الناس بحثًا عن أرزاقهم ، واستئنافا لأعمالهم .

فالنوم موتة صغرى ، واليقظة بعث ونشور ، قال ﷺ : «والذى نفس محمد بيده ، لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءًا ، وإنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا» .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ... أى : يلبس الوجود ويغشاه ، كما قال تعالى : **وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ** . (الليل : ١) .

وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ...

أى : قاطعًا للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة ، فى الانتشار بالنهار فى المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن ، سكنت الحركات فاستراحت ، فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معًا .

وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا .

أى : ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم ، كما قال تعالى : **وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** . (القصص : ٧٣) .

وللنوم أثر فى تجديد الخلايا ، وراحة البدن ، وسياحة الروح فى الملأ الأعلى ، وإمكان حدوث الرؤيا الصالحة فى النوم ، وفى الحديث الصحيح : «ذهبت النبوات وبقيت المبشرات ، والمبشرات هى الرؤيا ، يراها الرجل الصالح أو تُرى له»[١٤] .

وفى تفسير هذه الآية تكلم الشيخ عبد الحميد كشك كلاما جيدًا عن النوم ، فقد كان هناك كلام كثير عن النوم وأسبابه ، ثم رحب العلماء بما وصل إليه العلم ، من اعتبار أن النوم طرح روحى مؤقت ، ونقل أن الرحالة أحمد حسنين باشا كان يستكشف واحة فى الصحراء ، ثم نفد الماء وعلف الدواب ، فاستراح الجميع فى انتظار الموت ، ثم رأى أحمد حسنين فى منامه امرأة تلبس ثيابا بيضاء ، وترشده إلى كثيب ، ثم يتابع المسير فيصل إلى مكان مأهول ، ثم نجا هو والقافلة بالعثور على ذلك المكان[١٥] .

وقد تحدث القرآن عن النوم واعتبره آية من آيات الله وجميل قدرته .

قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . (الزمر : ٤٢) .

والنوم بالنهار لفترة قصيرة ، تستريح فيها الأجسام والأرواح ، يؤدى إلى تجدد النشاط وتألق الذهن .

قال تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ . (الروم : ٢٣) .

وقد نصح الأطباء ، بأن يغفو الإنسان غفوة كل يوم ، وهذه الغفوات التى تتخلل النهار تدفع الكلال، وتخفض ضغط الدم حوالى ١٥ –٣٠ مليمترا ، وترفع عن القلب بعض الحمل المتعب ، وينصح (ديل كارنيجى) فى كتابه : «دع القلق وابدأ الحياة» ، بأن تغفو نصف ساعة بعد ظهر كل يوم فى غرفة مكتبك أو عملك ، ويقول : إن ساعة تنامها فى خلال النهار ، مضافة إلى ست ساعات تنامها ليلاً ، تجعل المجموع سبع ساعات ، أجدى لك من ثمانى ساعات من النوم المتواصل ليلاً[١٦] .

٤٨ – ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ .

الله تعالى يرسل الرياح فتكون بشيرا أمام فضله . بإنزال المطر ، وهذا المطر ينزل من السماء وهو فى أعلى درجات الطهارة ، ورغم ما يحمله من شوائب فى الجو ، إلا أنه يظل طاهر مطهرًا ، ويظل الماء سببًا فى حياة النبات والإنسان والحيوان ، والعيون والآبار والبحار والأنهار ، بيد أنّ الزراعات التى تزرع على المطر مباشرة ، أصحابها يتعلقون بالمطر ، ويشاهدون نزوله ، ويستبشرون بالسحب ، لأنها تبشر بالمطر ، وتلقح السحب بعضها بعضا ، فينزل المطر بسببها ، وقد عرف العرب أنواعًا من الرياح .

قال ابن كثير :

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا .

وهذا أيضًا من قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أى : بمجىء السحاب بعدها . والرياح أنواع ، فى صفات كثيرة من التسخير : فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدى السحاب مبشرا ، ومنها ما يكون قبل ذلك تقمّ الأرض ، ومنها ما يلقّح السحاب ليمطر ، ولهذا قال الله تعالى : وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا . أى : آلة يتطهر بها ، كالسُّحور لما يتسحر به . اهـ .

وقد امتن الله على عباده بالماء وبالمطر وبالبحار والأنهار ، قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ... (الأنبياء : ٣٠) .

وقال سبحانه : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ . (النور : ٤٣) .

وقال تعالى : فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ . (عبس : ٢٤ – ٣٢) .

وقال فى المنتخب :

وهو الذى سخر الرياح فتسوق السحب وتبشِّر الناس بالمطر ، الذى هو رحمة منه لهم ، ولقد أنزلنا من السماء ماءً طاهر مطهرًا ، مزيلاً للأنجاس والأوساخ .

٤٩ – لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا .

سخر الله المطر لإحياء الأرض المجدبة ، وهذه آية من آيات الله ، أن ترى الأرض هامدة لا حياة فيها ولا نبات ، فإذا نزل عليها الماء ، اخضرت وأثمرت وأينعت ، وتسبب ذلك فى إثراء الحياة .

وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا .

كما أن المطر فيه حياة للأرض الميتة ، كذلك فإن هذا المطر يكون سببا لشرب الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم ، وسائر الحيوانات ، كما يشرب أناس كثيرون من هذه الأمطار ، وقد قدم الله حياة الأرض ، وسقيا الأنعام على شرب الإنسان ، لأن الأرض والأنعام مسخرة للإنسان ، وإذا شربت الأرض والحيوانات ، فلن يعدم الإنسان وسيلة للشرب . بل الإنسان هو المستفيد بعد ذلك .

٥٠ - وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا .

لقد وزَّعنا هذا المطر بين عباد الله فى أرضه ، ليعتبروا ويتعظوا ، ويتذكروا أنَّ تسخير السحاب ، وإنزال المطر وإنبات النبات ، بقدرة الله ، فيقوموا بالشكر والتذكر لفضل الله ، لكن كثيرا من الناس ينسبون المطر إلى النجوم ، والظواهر الطبيعية ، وينسون أن الله هو الذى طبع الطبيعة ، وسخرها ويسرها لخدمة الإنسان ، ومع هذا فقليل من الناس من يشكر ، وكثير منهم من يكفر .

روى مسلم فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يومًا ، على إثر سماء أصابتهم من الليل : «أتدرون ماذا قال ربكم ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «أصبح من عبادى مؤمن وكافر ، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته ؛ فذاك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ؛ فذاك كافر بى مؤمن بالكواكب » [١٧] .

وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير فى الآية يعود إلى القرآن ، فقالوا : معنى هذه الآية : وهذا القرآن قد بينا آياته ، وصرفناها ولونًا فيها فنون القول وأنواعه ؛ ليتذكر الناس ربهم ، وليتعظوا ويعملوا بموجبه ، ولكن أكثر الناس أبوا إلا الكفر والعناد .

٥١ - وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا .

لو أراد الله لأرسل نبيا إلى كل قرية من قرى الجزيرة العربية وغيرها ، ولكنه - سبحانه وتعالى - أراد أن تكون الرسالة الخاتمة رسالة واحدة ، ونبيها نبيًا واحدًا ؛ تفضيلا له وتكريما ، وفى صحيح البخارى، يقول النبى ﷺ : « أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورا ، وأُحلّت لى الغنائم ، وأُعطيت الشفاعة ، وأرسل كل نبى إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »[١٨] .

وفى الصحيحين : « بعثت إلى الأحمر والأسود » [١٩] .

وهذه الرسالة تحمل فى مقوماتها عوامل صلاحها وخلودها وبقائها إلى يوم الدين .

قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... (سبأ : ٢٨) .

وقال سبحانه : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ . (الحجر : ٩) .

ومن حفظ الله لرسالته ، حفظ القرآن ، وحفظ الحديث النبوى الشريف ، وإرسال الهداة والمصلحين ، وحث المسلمين على الاجتهاد والاستنباط ، وتسخير العقول والأفكار لتستنبط ما يوائم مصالح الناس ، وما يبعث فيهم الحيوية والآمال والتقدم .

٥٢ - فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا .

فلا تطع الكافرين فيما يريدونه منك من أمور باطلة فاسدة ، وجاهدهم بالقرآن الكريم ، جهادًا كبيرًا شاقًا ، لإبطال شبهاتهم وأراجيفهم ، وقد كان القرآن الكريم أقوى من تسخير الجيوش ، فقد ناقش باطلهم ، وعاب عليهم تقليد الآباء والأجداد ، وعبادة الحجارة والأوثان ، وزلزل كبرياءهم ، ودخل عليم من كل باب ، ولفت أنظارهم إلى الكون وخالقه ، وقصَّ عليهم أخبار السابقين ، وتحدث عن القيامة والحساب والجزاء ، والجنة والنار والميزان والصراط ، كأنما وضع أمامهم أهوال القيامة ؛ حتى نفذ إلى افئدتهم ، فقاوموا سلطانه وحاولوا مقاوته بالتصفيق والصراخ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . (فصلت : ٢٦) .

وفى معنى الآية قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . (التوبة : ٧٣) .

٥٣ - وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا .

تعرض الآية مظهرًا من مظاهر القدرة الإلهية ، فالله القدير خلط البحرين ومزجهما ، مع ما بينهما من التنافر والتضاد ، أحدهما حلو سائغ شرابه ، والثانى مالح شديد الملوحة ، وجعل بينهما حاجزًا من قدرة الله، لا يختلطان ولا يمتزجان ؛ حتى لا يفسد أحدهما خصائص الآخر ، قال تعالى : مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . (الرحمن : ١٩ - ٢١) .

وقال تعالى : أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (النمل : ٦١) .

«ومن الفطرة التى فطرها الله تعالى أن مجارى الأنهار غالبًا أعلى من سطح البحر ، ومن ثم فالنهر العذب هو الذى يصبّ فى البحر المالح ، ولا يقع العكس إلا شذوذا ، وبهذا التقدير الدقيق ، لا يطغى البحر - وهو أضخم وأغزر - على النهر الذى منه الحياة للناس والأنعام والنبات ، ولا يكون هذا التقدير مصادفة عابرة ، وهو يطرد هذا الاطراد ، إنما يتم بإرادة الخالق الذى أنشأ هذا الكون لغاية تحققها نواميسه فى دقة

وإحكام ، وقد روعى فى نواميس هذا الكون ألا تطغى مياه المحيطات الملحة ، لا على الأنهار ولا على اليابسة ، حتى فى حالات المدّ والجزر التى تحدث من جاذبية القمر للماء الذى على سطح الأرض ويرتفع بها الماء ارتفاعًا عظيمًا»[٢٠].

ويقول صاحب كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) : يبعد القمر عنا مسافة مائتين وأربعين ألفًا من الأميال ، ويذكرنا المدّ الذى يحدث مرتين تذكيرًا لطيفًا بوجود القمر ، والمدّ الذى يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدما فى بعض الأماكن ، بل إن قشرة الأرض تنحنى مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات ، بسبب جاذبية القمر ، ويبدو لنا كل شىء منتظمًا لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التى ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام ، وتنحنى قشرة الأرض التى تبدو لنا صلبة للغاية ...

ولو اقترب القمر منا أكثر مما هو عليه لغرقت القشرة الأرضية ، وتعذرت الحياة على وجه الأرض .

ولكن اليد التى تدبِّر هذا الكون ، مرجت البحرين ، وجعلت بينهما برزخًا وحاجزًا من طبيعتهما ، ومن طبيعة هذا الكون المتناسق ، الذى تجرى مقاديره بيد الصانع المدبر الحكيم ، هذا الجرى المقدَّر المنسق المرسوم .

ومن ماء السماء ، وماء البحر والنهر ، إلى ماء النطفة التى تنشأ منها الحياة البشرية المباشرة .

٥٤ – وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا .

وهذا أيضًا لون من ألوان القدرة ، حيث خلق الله من النطفة المهينة حين يختلط ماء الرجل بماء المرأة ويتم الإخصاب ، حيث يتحول الماء المهين إلى نطفة مخصّبة تعلق فى جدار الرَّحم وتتشبث به ، وتسبح فى دماء من دماء الأمّ ، وتتحول العلقة إلى قطعة لحم قدر ما يمضغ تسمى المضغة ، ثم تتحول المضغة إلى عظام ، أو هيكل عظمى هو أساس تكوين الإنسان ، ثم يكسى هذا الهيكل العظمى باللحم ، ثم يتحول خلقا آخر متكامل الخلقة والتقاسيم ، مستكمل أسباب الوجود والحياة ، فيه العينان والأذنان واليدان والرجلان وسائر الأجهزة : كالجهاز العصبى ، والجهاز اللمفاوى ، والجهاز التناسلى ، والجهاز الهضمى ، فضلا عن مشروع متكامل ، لإنسان مستكمل الجمال والأطراف والخلقة ، كالشعر والأنف والأسنان والفم واللهاة ، والبلعوم والمرىء والبطن والفخذ والساق ، والقدم وسائر الأجزاء ، التى تتمم إنسانية الإنسان ، وتجعل منه مخلوقًا كامل الأعصاب والإرادة والاختيار والعقل والتصرف ، وهو سيد المخلوقات ، قال تعالى : إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٢ ، ٣) .

وقال سبحانه : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً . (الإسراء : ٧٠) .

وقال عز شأنه : وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ... (النحل : ٧٨) .

وقال تعالى : أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ . (البلد : ٨ – ١٠) .

وقال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ . (الانفطار : ٦ – ٨) .

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا .

أى: خلق الله الإنسان من الماء، قال تعالى: وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ... (الأنبياء : ٣٠). فالماء يروى الزرع ، والإنسان يتغذَّى به ، ثم تكون النطفة التى هى أصل الإنسان ، أو أن الإنسان مخلوق من ماء المنىّ، حيث خلقه الله بشرًا سويًا ، وجعل منه الذكر والأنثى ، فالذكر ينسب إليه الإنسان ، فيقال : فلان ابن فلان، نسبة إلى أبيه ، والأنثى تكون سببًا فى المصاهرة والزواج ، وأصهار الزوج هم أقارب زوجته .

قال الشاعر:

بنـــونا بنـــو أبنـــائنا وبنـــاتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وقال تعالى : أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ . (القيامة : ٣٦ – ٣٩) .

قال النيسابورى : ومن دلائل القدرة ، أحوال خلقة الإنسان ، والماء إما ماء العنصر ، كقوله: وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ... (الأنبياء : ٣٠) . أو النطفة .

ومعنى : فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا . أنه قسم البشر قسمين : ذوى نسب ، وذوات صهر ، والأوّل : الذكور الذين ينسب إليهم الإنسان ، والثانى : الإناث اللاتى يصاهر بهن ، ونحوه قوله تعالى : فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ . (القيامة : ٣٩) . والأصهار : أهل بيت المرأة ، كما قال الخليل بن أحمد[٢١] .

ملحق بتفسير الآية

١ – قال رسول الله ﷺ : «إنَّ أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم أربعين يومًا علقة ، ثم أربعين يومًا مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، ويكتب أجله ورزقه ، وشقى أو سعيد»[٢٢] .

٢ – إذا لم يكن النسب ثابتًا شرعًا لم تثبت حرمة المصاهرة ، وعليه قال الجمهور : إذا لم يكن نسب شرعًا ، فلا صهر شرعًا ، فلا يُحرِّم الزنا بنت أمٍّ ولا أمّ بنت ، ولا بنتا من الزنا ، وما يحرم من الحلال ، لا يحرم من الحرام ، لأن الله امتن بالنسب والصهر على عباده ، ورفع قدرهما ، وعلق الأحكام فى الحل والحرمة عليها ، فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما ، وقال الحنفية : تحرم البنت من الزنا ، أو الأخت أو بنت الابن من الزنا ، بسبب التولد من ماء الرجل .

★ ★ ★

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات :

الظهير والمظاهر : المعاون ، فهو يعاون الشيطان على ربّه ، أى : على رسوله بالعداوة .

وسبح بحمده : نزهه وصفه بصفات الكمال .

كفى : يقال : كفى بالعلم جمالا ، أى : حسبك ، فلا تحتاج معه إلى غيره .

خبيرا : الخبير بالشىء : العليم بظاهره وباطنه ، وبكل ما يتصل به .

البروج : منازل السيارات الاثنى عشر المعروفة ، وهى : الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدى، والدلو، والحوت .

وهى منازل الكواكب السيارة السبعة ، وهى المريخ : وله الحمل والعقرب ، والزهرة : ولها الثور والميزان ، وعُطارد : وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر : وله السرطان ، والشمس : ولها

الأسد ، والمشترى : وله القوس والحوت ، وزحل : وله الجدى والدلو ، قال الشاعر :

زحل شرّى مرّيخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

والبروج فى الأصل : القصور العالية ، وأطلقت عليها على سبيل التشبيه ، فهى للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها .

السراج : الشمس .

خلفة : يخلف أحدهما الآخر ، ويقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه .

تمهيد :

تحدثت الآيات السابقة عن عظيم نعم الله تعالى فى خلق الظل والليل والنهار والنوم واليقظة ، وفي خلق الرياح والأمطار والبحار والأنهار ، وإنزال القرآن وإرسال الرسل ، ومن قدرته خلط البحار بالأنهار ، مع حاجز بينهما من قدرته سبحانه ، وخلق الإنسان من النطفة ، ومع هذه القدرة العالية ، والنعم العديدة ، ينصرف الكافرون إلى عبادة الأصنام ، التى لا تنفع من عبدها ولا تضرّ من لم يعبدها ، ومن ثم تطلب من الرسول الأمين أن يتوكل على الله ، فهو سبحانه العليم الخبير القدير ، وهو الذى خلق الكون فى ستة أيام ، ورفع السماء وجعل فيها الأفلاك والبروج والشمس والقمر ، وهو سبحانه خالق الليل والنهار .

التفسير :

٥٥ - وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا .

مع هذه الأدلة المتظاهرة على قدرة الله تعالى ، فإن الكفار يعبدون من دون الله الأصنام والأوثان ، والأبقار والأحجار ، التى لا تنفعهم إذا عبدوها ، ولا تضرهم إذا لم يعبدوها .

لقد كفروا نعمة الله عليهم ، واتجهوا بعبادتهم إلى أصنام لا تملك لهم نفعا ، ولا تملك لهم ضرًا ، ولا تملك لنفسها شيئا .

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ . (الحج : ٧٣) .

والكافر بعبادته للأحجار يعاون الشيطان ، ويساعده على معصية الرحمن .

قال مجاهد : يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه .

وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا .

أى : إن الكافرين يعاونون المشركين ، ويكونون أولياء لهم على معاداة رسول الله والمؤمنين ، قال تعالى : وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ... (الأعراف : ٢٠٢) . وقد يكون المعنى : وكان الكافر على ربه هينًا ذليلاً ، لا قدر له ولا وزن له عنده ، من قول العرب : ظهرت به ، أى : جعلته ظهرك ولم تلتفت إليه ، ومنه قوله تعالى: وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ... (هود : ٩٢) . أى : هينًا .

قال ابن عباس : نزلت الآية فى أبى الحكم بن هشام ، الذى سماه رسول الله ﷺ : أبا جهل بن هشام.

٥٦ - وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا .

أى : لقد أرسلناك بشيرًا للمؤمنين بالجنة والثواب والنعيم المقيم ، ونذيرًا للكافرين بالعذاب الشديد وسوء المصير .

٥٧ - قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً .

أى : لا أسألكم أجرًا ولا مالا على تبليغ الرسالة ، وقصارى أن أرشد حائرا ، أو أهدى ضالا ، أو آخذ بيد مسترشد ، يريد أن يعرف طريقه وسبب هدايته ، كأنّه يقول : لا أسألكم مالاً ولا أجرًا ، وإنما أسألكم الإيمان بالله وطاعته ، وأجرى على الله .

٥٨ - وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا .

أى : اعتمد على الله الحى الدائم الحياة ، الباقى الذى لا يدركه فناء ولا موت ، استوثق بحبله واعتمد عليه ، والتوكل هو الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب ، وهذا التوكل نعم العون للعبد على بلوغ هدفه .

قال تعالى : وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ . (إبراهيم : ١٢) .

قال ابن كثير :

كن متوكلاً على الله الحى الذى لا يموت أبدًا ، الدائم الباقى السرمدى ، الأبدى الحى القيوم ، رب كل شىء ومليكه ، اجعله ذخرك وملجأك ، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ، كما قال تعالى : وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ... (المائدة : ٦٧) .

وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ...

أى : اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» [٢٢]
أى : أخلص له العبادة والتوكل . ا هـ .

وفى معنى الآية قوله تعالى : إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا . (النصر : ١ - ٣) .

وقوله سبحانه : فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ... (هود : ١٢٣) .

وقوله تعالى : قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ... (الملك : ٢٩) .

ومعنى وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ : نزّه الله تعالى ، عما يصفه به هؤلاء الكفار ، من الشركاء والأولاد ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد .

وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا .

أى : حسبك أن الله مطلع على أعمال العباد ، وهو عليهم رقيب وشهيد ، وسوف يجازيهم على أعمالهم، فهو خبير بأحوالهم ، لا يحتاج إلى غيره ، وهو قادر على مجازاة المذنبين ، وفى هذا وعيد شديد وتهديد لكل مذنب بأن الله يراه ، ويعلم أعماله ، وسيجازيه عليها .

٥٩ - ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا .

هذه الآية كالتعليل لما قبلها ، فقد أمر الله تعالى بالتوكل عليه سبحانه وتسبيحه وتحميده ، وذكر إحاطة علمه بكل شىء ، ثم ذكر فى هذه الآية جانبا من قدرته التى لا حدود لها ، فقال : ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ...

فهو سبحانه الذى أبدع الكون على غير مثال سابق ، وإذا أراد أمرًا قال له كن فيكون ، لكنّه أراد أن يعلمنا الصبر ، ومراعاة سنن الفطرة وسنن الكون ، فخلق الكون فى ستة أيام ، وهذه الأيام ليست كأيام الدنيا ، حيث لم يكن فى ذلك الوقت شمس أو قمر أو ليل أو نهار ، بل المراد : فى ست مراحل ، واليوم أحيانًا يطلق على مدة طويلة مثل : يوم ذى قار ، ويوم بعاث ، ويوم وقعة عمورية ، ويوم البسوس .

وفى القرآن الكريم : وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . (الحج : ٤٧) .

وقال عز شأنه : فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج : ٤) .

لقد كان الكون كرة ملتهبة ، كما تشير نظرية السديم ، ثم قذفت الكرة ، وانفصلت السماء وارتفعت ، وانفصلت الأرض وصارت كالبساط المفروش ، وكان بينهما الهواء والفضاء ، وتم ذلك فى مراحل طويلة متباعدة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن السماء والأرض كانتا ملتصقتين ، ففتقهما الله ، حيث رفع السماء وبسط الأرض ، وسخر السحاب والهواء ، وبعد بلايين السنين ، أمكن أن تكون الأرض صالحة للحياة عليها، حيث أمطرت السماء ، وأنبتت الأرض ، وجرى بينهما الهواء والفضاء . واستعد الكون لوجود خليفة فى الأرض ، لاستعمارها وزراعتها واستثمار خيراتها .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠) .

قال المفسرون : الرتق ضد الفتق ، أى : كانت السماء صماء لا تمطر ، والأرض رتقاء لا تنبت ، ففتق الله السماء بالمطر ، وفتق الأرض بالنبات ، وأجرى بينهما الفضاء والهواء ، والخلق والوجود . ويفيد العلم الحديث أن عمر الكون يقرب من ستة بلايين سنة ، قبل أن يخلق فيه الإنسان ، وأن عمر الكون ١٣ بليون سنة إلى الآن .

فلعل المراد بخلق الكون فى ستة أيام ، أن الله خلق الكون فى مدد ومراحل متتابعة تقارب ستة بلايين سنة ، حيث كان الكون ملتهبًا ، ثم هدأت السماوات والأرض ، فى فترات ومراحل ، هى ست مراحل أو ستة أيام ، وقد تكرر ذلك فى آيات القرآن الكريم ، ومرّ تفسير ذلك فى شرح الآية «٣٠» من سورة الأنبياء وما بعدها .

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ...

أى : استولى على ملك الكون مع الاستعلاء والسيطرة ، استواء يليق بعظمته كما يقول السلف ، أو استولى وملك وسيطر كما يقول الخلف .

وهو سبحانه يدبر الأمر ، ويقضى بالحق وهو خير الفاصلين ، ولفظ : ثُمَّ . لا يدل على الترتيب الزمنى، إنما يدل على بعد الرتبة .. رتبة الاستواء والاستعلاء .

ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا .

أى : مع الخلق والقدرة سعة الرحمة والعطف ، والخبرة المطلقة ، التى لا يخفى عليها شىء ، فإذا سألت الله فإنما تسأل خبيرا لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وقيل : المعنى : اسأل عن الله وصفاته وكماله خبيرًا ، من رسول أو عالم ، ثم اتبعه واقتد به ، فلا أحد أعلم بالله من الله ، ولا أحد أعلم بالله وكماله من رسوله محمد ﷺ .

وقيل : المعنى : فاسأل عنه علماء أهل الكتاب ، فلديهم الخبرة عن صفاته وكمالاته .

٦٠ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا .

إذا طلب من هؤلاء المشركين طاعة الله وحده ، والسجود له دون سواه ، والخضوع لفضله ورحمته ، فهو سبحانه الله الرحمان الرحيم ؛ أنكروا ذلك وتطاولوا ، وقالوا : ما نعرف الرحمان إلا رحمان اليمامة ، يعنون : مسيلمة الكذاب .

أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا .

أنطيعك ونسجد لما تأمرنا بالسجود له دون سواه ، وزادهم ذلك نفورًا من طاعة الرحمان ، والامتثال لأمره ، والاهتداء بهداه ، بدل أن تزيدهم هذه الدعوة هداية وإيمانًا ، وهكذا ازدادوا بالتكذيب رجسًا وكفرًا ، أما المؤمنون فقد ازدادوا بآيات القرآن هداية وإيمانًا ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ . (التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥) .

وقد اتفق العلماء على أن هذه السجدة التى فى الفرقان ، يشرع السجود عندها لقارئها ومستمعها ، وهذا شأن المؤمنين ، روى الضحاك : أن رسول الله ﷺ وأصحابه سجدوا ، فلما رآهم المشركون يسجدون ؛ تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين ، فهذا هو المراد من قوله تعالى : وَزَادَهُمْ نُفُورًا . أى : فزادهم سجود المؤمنين نفورًا .

وجاء في تفسير القرطبي : أن سفيان الثورى كان يقول فى هذه الآية : إلهى زادنى لك خضوعًا ، ما زاد أعداءك نفورًا .

والاستفهام فى هذه الآية استفهام إنكار وتطاول وتجاهل ، وهو قريب مما ورد فى سورة الشعراء : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ . (الشعراء : ٢٣ ، ٢٤) .

٦١ - تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا .

يمجد الله تعالى نفسه ويذكر أنه أهل للحمد والشكر ، فقد كثرت بركاته وخيراته وآلاؤه ، ومن ذلك أنه

جعل فى السماء نجومًا كبارًا عدها المتقدمون نحو ألف ، ورصدتها الآلات الحديثة أكثر من مائتى ألف ألف ، كما جعل سبحانه فى السماء سراجًا هى الشمس التى تضىء الكون ، وجعل القمر نورًا ينير الأرض إذا طلع .

والبروج جمع برج ، وهو فى اللغة : القصور العالية الشامخة ، ويدل لذلك قوله تعالى : **أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ... (النساء : ٧٨) . والمراد بها هنا : المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة وعددها اثنا عشر منزلا ، هى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . وسميت بالبروج لأنها بالنسبة لهذه الكواكب كالمنازل لساكنيها .

جاء فى ظلال القرآن :

والبروج – على الأرجح – منازل الكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة ، والضخامة هنا تقابل فى الحس ذلك الاستخفاف فى قول المشركين : **وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ** ؟

فهذا شىء من خلقه ضخم هائل ، عظيم فى الحس وفى الحقيقة ، وفى هذه البروج تنزل الشمس ، ويسميها «سراجًا» ، لما تبعث به من ضوء إلى أرضنا وغيرها ، وفيها القمر المنير الذى يبعث بنوره الهادئ اللطيف .

٦٢ – وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا .

من دلائل قدرة الله تعالى أنه كوّن الكون ، وسخر الشمس والقمر بحساب ونظام محكم ، يؤدى إلى تتابع الليل والنهار ، ومجىء أحدهما بعد الآخر ، خلفا له وتابعًا ، حتى يتأمل الإنسان فى هذه القدرة العالية ، التى جعلت الليل لباسًا ، والنوم سباتا ، والنهار نشورًا ، ومن فضل الله وسعة رحمته أن من فاته عمل بالليل ، ثم أراد أن يتداركه بالنهار قُبل منه ، ومن فاته خير بالنهار ثم أراد أن يتداركه بالليل قُبل منه .

روى مسلم فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل»[٢٤] .

وعن **الحسن** : من فاته عمل من التذكر والشكر بالنهار ، كان له فى الليل مُسْتَعتَب ، ومن فاته بالليل كان له فى النهار مُسْتَعتَب .

وروى أن عمر – رضى الله عنه – أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه، فقال : إنه بقى علىّ من وردى شىء ، فأحببت أن أقضيه ، وتلا هذه الآية : **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** .

★ ★ ★

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾

المفردات :

الـهـون : الرفق واللين ، والمراد : أنهم يمشون فى سكينة ووقار ، ولا يضربون بأقدامهم أشرًا وبطرًا .

الجاهلون : السفهاء .

سلامًا : سلام توديع ومتاركة ، لا سلام تحية ، كقول إبراهيم لأبيه : سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ... (مريم : ٤٧).

يبيتون : يدركهم الليل ناموا أو لم يناموا ، كما يقال : بات فلان قلقا .

غـــرامـــا : هلاكا لازما ، قال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جـــزيلا فـــإنه لا يبـــالى

الإســـراف : مجاوزة الحدّ فى النفقة بالنظر لنظرائه فى المال .

الـتـقـتـيـر : التضييق والشح .

قـــوامـــا : وسطا وعدلا .

لا يـــدعـــون : لا يشركون .

الأثـــام : الإثم ، والمراد : جزاؤه .

مـهـانـا : ذليلا مستحقرا .

لا يشهدون الزور : لا يقيمون الشهادة الكاذبة ، والمراد : أنهم لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم .

الـلـغـو : ما ينبغى أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه .

كـــرامـــا : مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه .

الـخـرور : السقوط على غير نظام وترتيب .

قـرة الـعـيـن : الفرح والسرور .

الإمـــام : يستعمل للمفرد والجمع ، والمراد : الثانى ، أى : أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين .

الـغـرفـة : كل بناء عال مرتفع ، ويراد بها : الدرجات الرفيعة .

مـا يـعـبـأ بـكـم : لا يعتد بكم .

دعـــاؤكـــم : عبادتكم .

لـــزامـــا : لازما يحيق بكم حتى يكبكم فى النار .

تمهيد :

مكارم الأخلاق هدف رئيسى من أهداف الرسالة المحمدية ، حتى قال رسول الله ﷺ : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٢٥] .

وهذه الأخلاق الكريمة عنى بها القرآن الكريم ، وتحدث عنها خصوصًا فى أماكن ثلاثة : أولا فى الربع الثانى من سورة الإسراء ، حيث ذكر ستة وعشرين أدبا من آداب الإسلام ، هى جماع ما ورد فى التوراة، وتبدأ بقوله تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ... (الإسراء : ٢٣) .

وهنا فى آخر سورة الفرقان ، ذكر عباد الرحمان فوصفهم بتسع صفات ، وذكر أنهم يجزون الدرجات العلى فى الجنة ، جزاء صبرهم وتمسكهم بأخلاق الإسلام ، وفى سورة لقمان نجد وصايا لقمان لابنه ، تكمل صورة طيبة للتربية الإسلامية ، وعنايتها بالنشء حتى يكونوا صورة للمسلم الصغير ، ولفتيان الإسلام وفتياته .

إن عناية الإسلام بالمخبر والقلب ، والضمير والفؤاد ، جعلته يتفوق فى صياغة الإنسان الفاضل ، وفى هذه الصفحة الأخيرة من سورة الفرقان ، نجد النموذج الفاضل فى صفات عباد الرحمان .

التفسير :

٦٣ - وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا .

تتصدر هذه الآية صفات عباد الرحمان ، وقد ذكر فخر الدين الرازى أنها تسع صفات فى هذه الآيات.

وقال القرطبى :

وصف تعالى عباد الرحمان بإحدى عشرة صفة حميدة ، من التحلّى والتخلّى ، وهى : التواضع والحلم، والتهجد والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والنزاهة عن الشرك ، والبعد عن القتل والزنا ، والتوبة وتجنب الكذب ، والعفو عن المسىء ، وقبول المواعظ ، والابتهال إلى الله ، ثم بيّن جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة التى هى الدرجة الرفيعة ، وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها ، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا .

ومعنى الآية الكريمة :

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ...

أى : هم يسيرون فوق الأرض سيرًا هينًا فى رفق وتؤدة ، وفى غير تجبر أو تكبر ، كما قال تعالى : **وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ...** (لقمان : ١٩) .

وقال تعالى : **وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا** . (الإسراء : ٣٧) .

إن الإيمان إذا استقر فى القلب ، نتج عنه سلوك حسن ، وهيئة صالحة تذكر الناس بالله تعالى فى وقارهم وسكينتهم ، وليس المراد هنا أن يمشى المؤمن ذليلا متمسكنا ضعيفا متمارضا ، فالقرآن حث على العزة والكرامة ، قال تعالى : **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ...** (الإسراء : ٧٠) .

وقال تعالى : **وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...** (المنافقون : ٨) .

ورُوى عن عمر أنه رأى شابًا يمشى رويدًا ، فقال : مالك ، أأنت مريض ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، فعلاه بالدرّة ، وأمره أن يمشى بقوة .

إن مشية المسلم فيها السكينة والوقار ، وهى بعيدة عن الذلة والمسكنة ، وبعيدة أيضًا عن التكبر والتبختر .

وفى الصحيح ، عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم منها فصلّوا ، وما فاتكم فأتموا» .[٢٦] .

فالسير إلى الصلاة ينبغى أن يكون سيرًا عاديًا ، يلتزم صاحبه الوقار والهدوء ، ولا يركض ولا يُسرع إسراعًا قريبًا من الجرى .

ولا يجوز أن يتطاول الإنسان متبخترًا متكبرًا . فقد روى أن عمر – رضى الله عنه – رأى غلامًا يتبختر فى مشيته فقال : إن البخْترة مشية تُكره إلا فى سبيل الله ، وقد مدح الله أقواما فقال : وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ... فاقصد فى مشيتك ، وعمومًا المراد هنا : السير الوسط المعتدل ، مع تجنب التبختر والتكبر ، وتجنب المسكنة والضعف .

وقد كان ﷺ إذا مشى أسرع فى مشيته ، كأنما يتحدر من مكان مرتفع ، وكأنما الأرض تطوى له ، وكان عمر إذا مشى أسرع فى مشيته ، فتلك سمة المؤمن ، فالمؤمن القوى خير وأحبَ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف .

وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا .

إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيىء ، لم يقابلوهم بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيرًا ، وقد كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا .

كما قال تعالى : وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ... (القصص : ٥٥) .

ومعنى : قَالُواْ سَلَٰمًا . قالوا : سدادًا أو ردّوا معروفًا ، وهو سلام للمتاركة والمفارقة ، كما قال إبراهيم لأبيه : سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا . (مريم : ٤٧) .

٦٤ – وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا .

أى : هم فى نهارهم مستقيمون لا يردّون على السفهاء ، وفى ليلهم خاشعون مشغولون بقيام الليل ، والسجود لله والامتثال لأمره ، وقد حث القرآن على صلاة الليل ، والتهجد بالأسحار ، قال تعالى : كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الذاريات : ١٧ ، ١٨) .

وقال عز شأنه : تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ... (السجدة : ١٦) .

وقال تعالى : أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ... (الزمر ٩) .

وقال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء ؛ فقد بات لله ساجدًا وقائمًا .

٦٥ – وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا .

تصف الآية وجل المتقين ، فهم يتمثلون جهنم أمامهم ، تتلمظ غيظا على من عصى الله تعالى ، فيسألون الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا ، أى : لزامًا مستمرًا بلا موت ، «وهذا دعاء ورجاء ، فكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، والغرام هو الشيء الملازم الدائم .

قال الحسن : كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم ما دامت السماوات والأرض»[٢٧] .

٦٦ – إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

أى : إن جهنم بئست مستقرا لمن استقر بها ، وبئست مقاما لمن أقام بها .

قال صاحب الظلال :

وهل أسوأ من جهنم مكانًا يستقر فيه الإنسان ويقيم ، وأين الاستقرار ، وهى النار ؟ وأين المقام ، وهو التقلب على اللظى ليل نهار ؟.

٦٧ – وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا .

من صفات عباد الرحمان ، الاعتدال فى النفقة والتوسط فيها ، فالإسلام قد جاء بنظمه فى العبادات والمعاملات ، ومن هذه النظم : إخلاص الوجه لله ، والتوسط فى العبادة وفى النفقة ، لقد حظى الإسلام بنظام اقتصادى متوازن ، فيه محاسن الرأسمالية والاشتراكية ، وليس فيه المساوئ التى فيهما ، فالمال مال الله ، والعبد مستخلف عن الله فى إدارته ، والإنسان موظف فى ماله ، عليه إخراج الزكاة والصدقة والتكافل الاجتماعى وصلة الرحم ، ومساعدة المحتاجين ، قال تعالى : وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ . (المعارج : ٢٤ ، ٢٥) .

كما حرم الإسلام الشح والبخل ، قال تعالى : وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . (الحشر : ٩) .

وتوعد الكانزين ومانعى الزكاة بالسعير والعذاب . قال تعالى : وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (التوبة : ٣٤) .

والخلاصة :

أن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وأن من صفة عباد الرحمان التوسط فى النفقة ، والبعد عن البخل وعن الإسراف ، فالإسراف والبخل كلاهما مفسدة للحياة والمال ، والجماعات والأمم .

قال تعالى : وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا . (الإسراء : ٢٦ ، ٢٧) .

والبخل فيه إمساك للمال عن الإنفاق فى الوجوه المشروعة .

قال تعالى : وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ... (محمد : ٣٨) .

أما التوسط والاعتدال فى النفقة فهو سمة العقلاء ، الذين فقهوا رسالة المال ، وجعلوه وسيلة لإصلاح أنفسهم وأقاربهم ومجتمعهم ، وأسعدوا بتصرفهم الأفراد والجماعات .

قال تعالى : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا . (الإسراء : ٢٩).

جاء فى تفسير النيسابورى :

وصف القرآن عباد الرحمان بالتوسط فى الإنفاق ، والقتر والإقتار ، والتضييق نقيض الإسراف ، وكان أصحاب محمد ﷺ لا يأكلون طعاما للتنعم واللَّذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال والزينة ، ولكن ما يسد جوعتهم ، ويستر عورتهم ويكنّهم من الحرّ والقرّ .

عن عمر : كفى شرها ألا يشتهى رجل شيئا إلا اشتراه فأكله . اهـ .

وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا .

قَوَامًا . أى : وسطا بين الإسراف والبخل ، وقوام الرجل : قامته ، وحسن طوله وهيئته .

وجاء فى تفسير ابن كثير طائفة من الأحاديث تمدح التوسط فى النفقة والاعتدال والقصد ، مثل :

قال الحافظ أبو بكر البزار : عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أحسن القصد فى الغنى ، وما أحسن القصد فى الفقر ، وما أحسن القصد فى العبادة» . ثم قال : لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضى الله عنه.

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف ، وقال غيره : السرف : النفقة فى معصية الله عز وجل .

٦٨ - وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَ ٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا .

من صفة عباد الرحمان أنهم أخلصوا عقيدتهم لله تعالى ، فعبدوه حق العبادة ، ولم يشركوا معه إلها آخر فى عبادتهم ، أى : لم يعبدوا صنمًا ولا وثنًا ولا مالاً ولا مُلكًا ، ولا مظهرًا ولا هوى ، بل أخلصوا العبادة لله وحده ، وهم لا يقتلون إلا بالحق ، أى : قصاصًا أو معاقبة ، وفى الحديث : «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : زنًا بعد إحصان ، والنفس بالنفس ، ومن بدل دينه فاقتلوه»[٢٨] .

إن الإسلام شجع على الأمن والأمان ، وحارب العدوان وقتل الآخرين بدون وجه حق ، فالإنسان بنيان الله ، ملعون من هدم بنيان الله .

وَلَا يَزْنُونَ .

فقد شجع الإسلام الزواج وأمر بالعفة والاستقامة ، وحرم الله الزنا ، وحرم النظر إلى المرأة الأجنبية بشهوة وحارب السُّعار بين الذكران والإناث ، ونمّى العفة والاستقامة والبعد عن الزنا واللواط والسحاق .

وَمَن يَفْعَلْ ذَ ٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا :

من يقترف الشرك أو القتل أو الزنا ، يجد عقوبة عادلة فى جهنم .

قال عبد الله بن عمر : أَثَامًا . واد فى جهنم .

وقال عكرمة : يَلْقَ أَثَامًا . نكالا ، كنا نُحدَّث أنه واد فى جهنم ، وقد ذُكر لنا أن لقمان كان يقول لابنه: يا بنى ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة .

٦٩ - يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا .

يكرر عليه العذاب فى جهنم غدوًّا وعشيًّا ، مع المهانة والمذلة والهوان النفسى ، والخلود الأبدى .

قال تعالى : ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ . (غافر: ٤٦) .

٧٠ - إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

أى . من يرتكب هذه الموبقات من الشرك والقتل والزنا ، فإنه يدخل جهنم ، ويضاعف له العذاب والمهانة والمذلة ، لكن من تاب إلى الله توبة نصوحًا ، وآمن بالله ورسوله ، وعمل الأعمال الصالحة ، فإن الله تعالى يقبل توبتهم ، ويبدل سجلات سيئاتهم حسنات بعد توبتهم، لأن الله واسع المغفرة، رحيم بعباده، يصفح عنهم ويغفر ذنوبهم .

وقيل : إن المراد بتبديل السيئات إلى حسنات : أن العبد بعد التوبة تتبدل أعماله من القبيح إلى الحسن، فتسجل له الحسنات بدلاً من السيئات .

قال سعيد بن جبير : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمان ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات .

وقال الحسن البصرى : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا ، وبالكفر إسلاما .

وباب التوبة دائمًا مفتوح يدخل منه كل من استيقظ ضميره ، وأراد العودة والمآب ، لا يصدّ عنه قاصد، ولا يغلق فى وجه لاجئ أيًا كان ، وأيا مًا ارتكب من الآثام .

وقد ورد فى القرآن الكريم حث على التوبة النصوح ، وبيان فضل الله فى قبول التوبة ، وتكفير السيئات ، فالله تعالى من أسمائه الحسنى : غافر وغفّار وغفور ، وغافر : اسم فاعل ، يدل على المغفرة ، وغفّار وغفور : صيغة مبالغة ، تدل على كثرة المغفرة .

قال تعالى : غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ . (غافر : ٣) .

وقال عز شأنه : وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ . (طه : ٨٢) .

وقال تعالى : تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ . (الملك ١ ، ٢) .

التوبة فى الإسلام بابها مفتوح ، وهى وسيلة عملية للاستقامة ، حين تصدق النفس ، وتتغير الأعمال ، ويتحول الإنسان من الهوى والمعصية إلى الإيمان الصادق والاستقامة والطاعة ، فتفتح له أبواب السماء ، ويفرح به الحق تعالى ، إن الله يحب التوابين ، والتائب حبيب الرحمان ، حيث تاب إلى الله ، وهو أعظم مأمول ، فأنعم به من تائب ، وأنعم بالله من رب كريم .

٧١ - وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا .

أى : من رجع عن عمل الذنوب ، واستقام على عمل الأعمال الصالحة ، فقد حظى بالقبول والتوبة ، والرجوع إلى الله رجوعًا صحيحًا مقبولاً ، ويا له من عمل عظيم ، حتى رأينا الخبر هو نفس المبتدأ ، تفخيمًا للموضوع وتعظيمًا ، أى : من تاب وعمل صالحًا ، فقد تاب إلى إله كريم ، توبة نصوحًا حَرِيّة بالقبول ، وفى هذا التفخيم ورد الحديث الشريف : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٢٩] .

روى مسلم فى صحيحه : كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . ١ / ١٧٧ .

عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول : نَحُّوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها ، قال: فيقال له : عملت يوم كذا ، كذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا وكذا ، فيقول : نعم . لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا ، فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة ، فيقول : يارب ، عملت أشياء لا أراها هنا» قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[٣٠] .

٧٢ - وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا .

من صفات عباد الرحمان أنهم لا يشهدون شهادة الزور والكذب ، ففيها تضليل العدالة ، وتضييع الحقوق .

وفى الصحيحين عن أبى بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثا . قلنا : بلى يا رسول الله . قال : «الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، فقال : «ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت[٣١] .

وقيل : معنى : لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ... لا يحضرون مجالس الخمر ، أو اللغو والغناء ، أو مجالس السوء والخنا .

وأرى أنه يمكن الجمع بين الرأيين ، بأن من صفات عباد الرحمان : عدم شهادة الزور ، وعدم الجلوس فى أماكن الريبة ، أو شرب الخمر ، أو ارتكاب المعصية .

وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا .

إذا مرُّوا عرضا على مجالس اللغو واللهو ، أعرضوا عنها حفاظا على أنفسهم وأسماعهم وأبصارهم ، وانصرفوا كراما على أنفسهم وعلى ربهم .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ . (القصص: ٥٥).

إن المؤمن له من أمر دينه وربّه ، ما يشغله ويصرفه عن حضور مجالس اللغو واللهو ، التى تذبح فيها الفضيلة ، ويضيع الحياء ، والمؤمن يصون لسانه وسمعه وفؤاده من التلوث بالباطل واللغو ، قال تعالى : إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . (الإسراء : ٣٦).

٧٣ - وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا .

إذا ذكرهم مذكر بكتاب الله وآياته ، استجابوا وتفتحت قلوبهم لسماع الحق ، وعيونهم للنظر والتأمل والهدى .

وفى الآية تعريض بالمشركين والضالين ، لأنهم أصروا على الباطل ، وقاوموا الحق والقرآن ، فإذا سمعوا الحق أعرضوا عنه ، وإذا ذكرهم مذكر بآيات الله صموا آذانهم ، وأغلقوا عيونهم ، وأوقفوا تفكيرهم ، وقاوموا كل سبيل للهداية والاستجابة للحق ، وقريب من ذلك قول نوح عليه السلام : وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . (نوح : ٧).

قال ابن عباس : إذا وعظوا بالقرآن لم يكونوا صمًا وعميانًا ، بل كانوا خائفين خاشعين . اهـ .

أى : أهل للتذكر والتدبر والتفهم ، فالله أنار بصيرتهم وشرح صدورهم للحق والإسلام ، وهم بعيدون عن التعالى والإعراض ، بل هم يفتحون عقولهم وقلوبهم وسمعهم وبصرهم لآيات الله .

٧٤ - وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .

أى : هم مع إيمانهم وصلاحهم وحسن أخلاقهم ، يرغبون فى نقل الهداية إلى الآخرين ، وإلى أقرب الناس إليهم من الأزواج والذرية ، فهم يدعون الله ، أن يكون أبناؤهم وبناتهم وأحفادهم ، على طاعة لله ومرضاته ، حتى يفرحوا بهم ، وتقرّ عيونهم باستقامتهم ، وحسن عبادتهم .

قال عبدالرحمن بن أسلم : يعنى : يسألون الله تعالى ، لأزواجهم وذرياتهم ، أن يهديهم للإسلام ، فقد كانوا يشاهدون المنافقين والكافرين والمشركين ، يفرُّون من الإسلام والإيمان ، حيث كانوا فى جاهلية جهلاء ، لا يرون دينًا أفضل من عبادة الأوثان ، ثم أرسل الله رسوله وأنزل عليه وحيه وهدايته ، فأخلص المسلمون فى دعائهم لربهم أن يتم سعادتهم ، بإسلام أقاربهم واستقامتهم .

وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .

أى : اجعلنا قدوة يقتدى بهم فى الخير ، واجعلنا قدوة حسنة لأزواجنا وأبنائنا وأحفادنا ، وذلك أسعد للنفس ، وأدوم للأجر ، حيث يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع .

جاء فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له»[٣٢] .

عن محمد بن كعب : ليس شيء أقرّ لعين المؤمن ، من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله .

وعن ابن عباس : هو الولد إذا رآه يكتب الفقه . وقيل : سألوا أن يلحق الله عز وجل بهم أولادهم ، وأزواجهم فى الجنة ، ليتم لهم سرورهم[٣٣] .

٧٥ – أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا .

هؤلاء المتصفون بهذه الصفات ، يستحقون جزاءهم في الجنة ، أو فى الغرفات فى أعلى الجنة ، جزاء صبرهم على الطاعات ، وعن الشهوات ، أو على أذى الكفار ، وشدة الفقر وغير ذلك ، وهؤلاء يلقون فى الجنة التحية والتكريم والسلام والأمان ، قال تعالى : لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ . (الزمر : ٢٠) .

وقال سبحانه : وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ . (سبأ : ٣٧) .

وقال سبحانه : وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ . (الرعد : ٢٣ ، ٢٤) .

٧٦ – خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

هم خالدون فى الجنة خلودًا أبديًا سرمديًا ، لا يزولون ولا يتحولون عنها ، فما أحسن الجنة ، وما أطيب هواءها ، وأعذب ماءها ، وأنعم أهلها ، وأجمل القرار بها ، وأطيب المقام فيها .

ونلحظ هنا المقارنة بين النار والجنة ، ففى الحديث عن النار ، يقول المتقون : رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

وفى الحديث عن الجنة ، يقول القرآن :

خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

فالنار أسوأ مقام وقرار ، والجنة أحسن مقام وقرار .

٧٧ - قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا .

تشير الآية إلى هوان البشرية كلها على الله ، لولا طاعتها وعبادتها ، فهناك أكوان وعوالم من السماء والأرض ، والبحار والأفلاك ، والأبراج والشموس والأقمار ، وصدق الله العظيم : لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ... (غافر : ٥٧) . فالبشرية كلها صفحة فى كتاب الكون البديع ، والله غنى عنها وعن عبادتها ، فإذا عرف المؤمنون ربهم وعبدوه ، فقد أدركوا طريقهم ، وأرضوا ربهم ، وساروا فى المسار الصحيح للمخلوقات : وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . (الذاريات : ٥٦) . وإذا كذب الكافرون وأعرضوا ، فما أهونهم وما أجدرهم باستحقاق العذاب .

وفى مثل هذه المعانى يقول القرآن الكريم : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥).

ويقول سبحانه : وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم . (محمد : ٣٨) .

★ ★ ★

خاتمة السورة

سورة الفرقان فى جانب منها إيناس للرسول ﷺ ، وفى جانب آخر مناقشة للمشركين ، واستعراض حججهم ومناقشتها ، وفى ختام السورة : بيان لعظمة الخالق ، وإبداع الخلق ، وأن الإنسان حين يتكبر ويتجبر ، أو يكفر ويكذّب ، أو يتطاول على خالقه : فقد لبس حلة أكبر من قدره ، وتعاظم فوق مقدرته ، فناسب ذلك أن يكون ختام السورة حاملاً لهذه المعانى : لا يبالى بكم ربى ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق لعبادته وتوحيده ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ . أيها الكافرون بكتابى ورسولى ، فسوف يكون تكذيبكم مقتضيًا لعذابكم فى الدنيا والآخرة ، مستلزمًا هزيمتكم يوم بدر ، وعذابكم فى جهنم يوم القيامة .

★ ★ ★

تم تفسير سورة الفرقان ، والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الشعراء

أهداف سورة الشعراء

سورة الشعراء مكية ، وآياتها ٢٢٧ ، نزلت بعد سورة الواقعة ، وسميت بهذا الاسم لذكر الشعراء فيها ، في قوله تعالى : وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ . (الشعراء : ٢٢٤) .

موضوع السورة

موضوع سورة الشعراء هو موضوع السور المكية جميعا ، وهو تثبيت العقيدة وتلخيص عناصرها الأساسية ، ويتمثل ذلك في دعوة السورة إلى توحيد الله : فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ . (الشعراء : ٢١٣) .

وبيان قدرة الله الفائقة ، ونعمه السابغة على لسان إبراهيم الخليل حين يقول : ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ . (الشعراء : ٧٨ – ٨٢) .

ثم تستطرد السورة إلى وعيد المكذبين بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة . حيث تقول : فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ . (الشعراء : ٦) .

وتقول :

وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ . (الشعراء : ٢٢٧) .

ذلك إلى تسلية الرسول ﷺ وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن : لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ . (الشعراء : ٣) .

وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين ، وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا في سبيلها من الظالمين ، كما ثبت من قبلهم من المؤمنين .

القصص في سورة الشعراء

القصص غالب على سورة الشعراء ، يشغل معظم السورة ، فمجموع آياتها ٢٢٧ آية ، منها ١٨٠ آية تحتوى على قصص هادف يمس شغاف القلوب ، ويبين رعاية الله للأنبياء والمرسلين ، ومن هذا القصص:

قصة موسى :

ذكرت قصة موسى وفرعون فى الآيات : (١٠ – ٦٨) .

وفيها سبعة مشاهد : أولها : مشهد النداء والبعثة والوحى والمناجاة بين موسى وربه . وثانيها : مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه ، وتأييد موسى بآيتى العصا واليد البيضاء . وثالثها : مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى : ورابعها : مشهد إيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده . وخامسها : مشهد إيحاء الله لموسى أن يسرى بعباده ليلا . وسادسها : مشهد إرسال فرعون فى المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بنى إسرائيل . وسابعها : مشهد المواجهة أمام البحر ، ونهاية القصة بانفلاق البحر ، وغرق الظالمين ، ونجاة المؤمنين .

قصة إبراهيم :

تستغرق قصة إبراهيم الآيات : (٦٩ – ١٠٤) ، والحلقة التى تعرض هنا من قصة إبراهيم – عليه السلام – هى حلقة الرسالة إلى قومه ، وحواره معهم حول العقيدة ، وإنكار الآلهة المدعاة ، والاتجاه بالعبادة إلى الله ، وبيان صفات الله وفضله وعظيم نعمائه ، فهو الذى يخلق ويطعم ويسقى ، ويشفى ويحيى ويميت ، ويغفر الذنب ، ويحاسب الناس ، ويكافئ المؤمنين ، ويعاقب الغاوين .

وفى أعقاب قصة إبراهيم مشهد كامل من مشاهد القيامة ، يتنكر فيه العباد للآلهة ، ويندمون على الشرك الذى انتهى بهم إلى ما هم فيه ، كأنهم قد صاروا فعلا فى موقف الحساب والجزاء ، وهنا عبرة القصة للمشركين .

ومن ثم يتوسع فى الحديث عن مقومات عقيدة التوحيد ، وفساد عقيدة الشرك ، ومصير المشركين فى يوم الدين ، لأن التركيز متجه إليه ، وتختصر السورة ما عدا ذلك مما يفصل فى سور أخرى .

قصة نوح :

تستغرق قصة نوح – عليه السلام – الآيات : (١٠٥ – ١٢٢) ونلحظ أن القصص فى سورة الشعراء لا يتبع التسلسل التاريخى فقد عرضت قصة موسى ، ثم قصة إبراهيم ، ثم قصة نوح . ولو أراد أن يتبع التسلسل التاريخى لعرض قصة نوح أولاً ، ثم قصة إبراهيم ثانيًا ، ثم قصة موسى ثالثًا .

لكنه فى هذه السورة كان يذكر الأحدث ، ثم يرجع القهقرى من قصة إبراهيم إلى قصة نوح . لأن الخط التاريخى ليس هو المقصود هنا ، بل المقصود هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب .

وقصة نوح ومن قبلها قصة موسى وقصة إبراهيم قد عرضت فى سور شتى سابقة .

لكن الجانب الذى يعرضه من القصة يأتى مناسبا لسياق السورة ، وللعظة والعبرة المقصودة منها .

وتعرض قصة نوح فى الغالب فى سلسلة مع قصص عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين – كما تشاهد فى هذه السورة – وأظهر ما فى الحلقة المعروضة فى سورة الشعراء هنا هو دعوة نوح قومه إلى تقوى الله ، وإعلانه أنه لا يطلب منهم أجرا على الهدى . وإباؤه أن يطرد المؤمنين الفقراء الذين يستنكف منهم الكبراء – وهذا ما كان يواجهه رسول الله ﷺ فى مكة سواء بسواء – ثم دعاؤه لربه أن يفتح بينه وبين قومه واستجابة الله له بإغراق المكذبين وإنجاء المؤمنين .

قصة هود :

تستغرق قصة نبى الله هود الآيات : (١٢٣ – ١٤٠) .

وقبيلة عاد – وهم قوم هود – كانوا يسكنون الأحقاف ، وهى جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن ، وقد جاءوا بعد قوم نوح ، وكانوا ممن زاغت قلوبهم بعد فترة الطوفان الذى طهر وجه الأرض من العصاة .

واتخذت عاد المساكن المرتفعة والمصانع المشيدة ، وبلغت شأوا بعيدا من الحضارة الصناعية ، وزادتها القوة بطرا وقسوة ؛ فكفرت بنعم الله ، وتطاولت وتجبرت ونسيت الخالق الرزاق ، وكذبوا نبى الله هود فأهلكهم الله ودمر مصانعهم ودورهم ، وصب عليهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم ، وتركهم عبرة لكل طاغية : إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . (الشعراء : ١٣٩) .

قصة ثمود :

تستغرق قصة ثمود الآيات : (١٤١ – ١٥٩) .

وقد دعاهم نبى الله صالح إلى عبادة الله ، وذكرهم بما هم فيه من نعمة ، وكانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز ، وقد مر النبى ﷺ بدورهم المدمرة مع صحابته فى غزوة تبوك ؛ فاستحث راحلته وحنى ظهره وجلًا وخشوعا لله وقال للمسلمين : «لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون ، خشية أن يصيبكم ما أصابهم» .

لقد كانت ثمود فى نعمة فكفروا بنعمة الله عليهم ، وذكرهم صالح بقدرة الله ، فطلبوا منه معجزة؛ فأعطاه الله الناقة ، على شرط أن يكون الماء الذى يستقون منه يومًا للناقة ويومًا لهم ، وحذرهم صالح أن ينالوا الناقة بسوء على الإطلاق ، وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم .

ولكنهم استمروا فى عنادهم وظلمهم ، فنحروا الناقة ، وكذبوا صالحا ، وأحسوا بالندم بعد فوات الأوان ، فأخذهم عذاب الله العادل : إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . (الشعراء : ١٥٨ ، ١٥٩) .

قصة لوط :

تستغرق قصة لوط الآيات : (١٦٠ – ١٧٥) .

وقد كان قوم لوط يسكنون عدة قرى فى وادى الأردن ، واشتهر بينهم الشذوذ الجنسى بإتيان الذكور وترك النساء ، وهو انحراف شنيع فى الفطرة ، فقد برأ الله الذكر والأنثى وفطر كلا منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته فى امتداد الحياة عن طريق النسل الذى يتم باجتماع الذكر والأنثى ، فكان هذا الميل طرفا من الناموس الكونى العام .

ولكن قوم لوط خرجوا على الفطرة ، واستباحوا الفاحشة ، وهددوا لوطا بالطرد والنفى ؛ فخسف الله قراهم وغطاها الماء ، ومنها قرية سدوم ، ويُظن أنها ثاوية تحت البحر الميت فى الأردن .

أصحاب الأيكة :

تستغرق قصة أصحاب الأيكة الآيات : (١٧٦ – ١٩١) .

والأيكة : الشجر الكثيف الملتف ، وهم أهل مدين ، ونبيهم شعيب عليه السلام ، وكان شأنهم تطفيف الكيل والميزان ، وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط وحسن المعاملة ، فكذبوا نبيهم : فأخذهم عذاب يوم عظيم فى يوم حار خانق يكتم الأنفاس ويثقل الصدور ، ثم تراءت لهم سحابة فاستظلوا بها ، فوجدوا لها بردًا ثم إذا هى الصاعقة المجلجلة المدوية ، تفزعهم وتدمرهم تدميرًا وكان ذلك يوم الظلة ، فالظلة كانت سمة اليوم المعلوم .

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . (الشعراء ١٨٩) .

فى أعقاب القصص

الآيات الأخيرة من سورة الشعراء تعقيب على قصص المرسلين فيها ، وتأكيد على بعض أهداف الرسالة السماوية ، فقد ذكر الله فى هذا القصص : قصة الرسل والرسالات ، وقصة التكذيب والإعراض ، وقصة التحدى والعقاب ، وتمثلت هذه المعانى فى قصة موسى مع فرعون ، وقصة إبراهيم مع أبيه وقومه، وقصة نوح مع قومه ، وقصة هود مع عاد ، وقصة صالح مع ثمود ، وقصة لوط مع قومه ، وقصة شعيب مع

أصحاب الأيكة ، فلما انتهى القصص عاد السياق إلى موضوع السورة ، وهو العقيدة والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، وقد جاء التعقيب الأخير فى السورة يتحدث عن القرآن فيؤكد أنه تنزيل من رب العالمين .

ويشير إلى أن علماء بنى إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من القرآن ؛ لأنه مذكور فى كتب الأولين ، إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة ، ويزعمون أنه سحر أو شعر ، ولو أن أعجميا لا يتكلم العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين ، لأن العناد هو الذى يقعد بهم عن الإيمان ، لا ضعف الدليل ، وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن على محمد ﷺ كما تتنزل بالأخبار على الكهان، وما هو كذلك بشعر ، فإن له منهجا ثابتا ، والشعراء يهيمون فى كل واد وفق الانفعالات والأهواء . إنما هو القرآن المنزل من عند الله تذكيرًا للمشركين قبل أن يأخذهم الله بالعذاب ، وقبل أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون : وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ . (الشعراء : ٢٢٧) .

وقد استغرق هذا التعقيب الأخير على القصص الآيات من ١٩٢ إلى ٢٢٧ ، وختم هذا التعقيب بهذا التهديد المخيف الذى يلخص موضوع السورة .

تلك السورة التى اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم ، واستهتارهم بالوعيد ، واستعجالهم بالعذاب ، كما اشتملت على مصارع المكذبين على مدار الرسالات والقرون .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

لعلك : لعل هنا للاستفهام الذى يراد به الإنكار ، وقال العسكرى : إنها للنهى .

باخع نفسك : مهلكها من شدة الحزن ، وأصل البخع : أن تبلغ بالذبح البخاع (بكسر الباء) وهو عرق مستبطن فقار الرقبة ، وذلك يكون من المبالغة فى الذبح .

ذكر : موعظة .

أنباء : المراد بالأنباء : ما سجل بهم من العذاب .

زوج : صنف .

كريم : الكريم من كل شىء : المرضى المحمود منه .

التفسير :

١ - طسٓمٓ .

هذه الأحرف المقطعة فى فواتح السور ، للعلماء فيها رأيان :

الأول : أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه ، ولا يعرف معناها أحد سواه .

الثانى : أن لها معنى ، وتعددت الآراء فى تحديد هذا المعنى ، فمنهم من قال : هى أسماء للسورة ، وقيل: هى إشارة إلى أسماء الله أو صفاته ، وقيل : هى حروف للتحدّى والإعجاز ، وبيان أن القرآن مكون من

حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدلّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، وإنما تنزيل من حكيم حميد .

٢ - تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ .

أى : المذكور فى هذه السورة ، أو فى القرآن كلّه ، آيات القرآن الواضحة البيِّنة ، المبينة للناس الحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، ومناهج التربية والاستقامة ، وأسباب سعادة الدارين .

قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ... (الشورى : ٥٢) .

٣ - لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ .

كان الرسول ﷺ يتألم لانصراف قومه عن هداية الإسلام ، وهو يعلم مصير المكذبين من الهلاك ، ونزول العذاب بهم ، وكان القرآن يسرى عنه ، ويحدد له دوره فى الرسالة ، وهو البلاغ والإنذار ، وهنا يقول له : لعلك قاتل نفسك أو مهلكها ، حزنا على عدم إيمانهم ، فلا تحزن عليهم ، كما قال تعالى : فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ... (فاطر : ٨) .

وكما قال سبحانه : فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف : ٦) .

وقال سبحانه : فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) .

٤ - إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ .

لو نشاء لأنزلنا عليهم معجزة أو آية ، تضطرهم إلى الإيمان القهرى ، لكنا لا نفعل ذلك ؛ لأننا لا نريد من الناس إلا الإيمان الاختيارى ، الذى يحتكم إلى العقل والإرادة والاختيار ، وتلك حكمة الله وإرادته ، فقد خلق الكون ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، ودعا الناس إلى الإيمان ، وشرح للناس مظاهر القدرة الإلهية ، وبيّن للناس أسباب الهداية ، وفضائل الإيمان وآدابه ، وثواب السير على الصراط المستقيم ، وبيّن أسباب السعادة الدنيوية والأخروية ، وترك للإنسان اختيار الطريق الذى يريده ، عن حرية وطواعية ، قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا . (الشمس : ٧ - ١٠) .

وقال سبحانه : وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ . (يونس : ٩٩) .

وقال سبحانه : وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ... (هود : ١١٨) .

لقد علم الله أزلا أن هذه هى الرسالة الخاتمة ، وأن هذا القرآن هو آخر الكتب السماوية ، فاشتمل على ألوان من الإعجاز : الإعجاز فى أسلوبه وبيانه ، وألفاظه ونظامه ، الإعجاز فيما اشتمل عليه من ألوان العلوم والفنون ، التى لم يكن يعلمها أحد وقت نزول القرآن الكريم فى القرن السابع الميلادى ، الإعجاز فى إخباره عن أمور مستقبلية ، مثل هزيمة الفرس أمام الروم ، ومثل تطور العلوم تطورًا عظيمًا ، ومع تقدم العلوم فإنها لم تصطدم بأى حقيقة علمية جاء بها القرآن ، بل إن تقدم العلوم أكّد صدق القرآن وإعجازه ، فقد تحدث القرآن عن بدء الخليقة ، وعن خلق السماء والأرض والبحار والأنهار ، وعن حركة الأرض والشمس والقمر ، وعن تطور خلق الجنين فى بطن أمه ، وعن فقد الجسم للإحساس عند احتراق الجلد ، وعن خلق الله من كل زوجين اثنين ذكر وأنثى ، ليتم التوالد وإعمار الحياة ، بتناسل الإنسان والحيوان والنبات ، وتحدث القرآن عن نهاية الحياة وقيام القيامة ، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وكل هذه الأمور وغيرها أيَّدها تقدم العلوم ، وكان تقدم العلوم فى حد ذاته توثيقًا لصدق القرآن وإعجازه ، قال تعالى : سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

٥ - وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ .

القرآن كتاب الله ، وهو كتاب البشرية الأخير ، يحمل أسباب الهداية والإيمان والتقدم ، ويعطى لكل إنسان ما يريده ، إذا فتح قلبه وعقله لتلاوته ، لكن هؤلاء المشركين أعرضوا عن القرآن ، وتكرر إعراضهم كلما تُلى عليهم ، مع أن فيه سبب سعادتهم .

وفى هذا المعنى قال تعالى : يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ . (يس : ٣٠) .

وقال تعالى : ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ . (المؤمنون : ٤٤) .

٦ - فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

لقد كذب كفار مكة الرسالة والرسول والكتاب المبين ، مع نزوله صباح مساء ، واشتماله على أسباب الهداية ، لكنهم كذبوا به فاستحقوا العذاب الذى سينزل بهم، ونلمح تدرج مراحل الكفر، فقد بدءوا بالإعراض ، ثم التكذيب ، ثم الاستهزاء ، والإعراض إنكار فى صمت ، والتكذيب تصريح بالإنكار ، والاستهزاء تجريح للدعوة ، وتهكم بالرسالة والرسول ، فأجاب القرآن بأنه : فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ . أى : سيأتيهم

لا محالة مصداق ما كانوا به يستهزئون ، ويصيرون هم أحاديث للناس يتحدثون بها ويتناقلون أنباءها ، وفى التعبير عن وقوع العذاب بهم بإتيان أنبائه وأخباره تهويل من شأن هذا العذاب ، وتحقيق لنزوله .

قال النيسابورى : فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ . وعيد لهم بعذاب بدر ، أو يوم القيامة .

وقال ابن كثير :

فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين .

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

فقد كذب هؤلاء بالحق الذى جئتهم به ، وسخروا منه ، فاصبر عليهم ، فسيرون عاقبة استهزائهم القاصمة . ا هـ .

٧ - أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ .

لقد طلبوا معجزات وآيات مادية ، كى يستدلوا بها على صدق محمد ﷺ ، فلفت القرآن أنظارهم إلى خلق الله فى هذا الكون ، كيف أرسل الرياح وأنزل المطر ، فسقى به الأرض ، فأنبتت صنوفًا من النباتات ، وألوانًا من الزروع ، منها نبات يفترق فيه الذكر عن الأنثى ، ومنها نبات يتجاور فيه ويجتمع فيه أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، فى عود واحد . أَوَلَمْ يَرَوْاْ ...؟ والأمر لا يحتاج لأكثر من الرؤية والنظر ، إلى هذه الأرض ، كيف يحييها الله بعد موتها ، بإنبات صنوف النبات وأنواعه ، وكيف جعل هذا النبات أزواجًا ، ذكرًا وأنثى ، لضمان استمرار الخضرة وتتابع الأرزاق .

قال تعالى : وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ... (الذاريات : ٤٩) .

وقال عز شأنه : سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ... (يس : ٣٦) .

والقرآن هنا كعادته يأخذ طريقه إلى القلوب والأفئدة ، كى تتأمل وتفكر فى خلق الله ، وبهذا يوقظ الحس الخامد ، وينبّه الفكر الغافل ، ويبصر القلوب العمياء ، كما قال : وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥) .

ونلاحظ أن : كَمْ . تدل على الكثرة ، أى : كثيرًا ما أنبتنا فى الأرض من الزروع والثمار ، وكُلِّ زَوْجٍ . إشارة إلى خلق كل نوع من أنواع النبات ، وفيه تنبيه على كمال القدرة ، ونهاية الجود والرحمة .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة، تدل على فضل الله على عباده فى خلق الكون، وتسخير السماء والأرض، وإنبات النبات، قال تعالى: أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ. (ق: ٦ – ١١).

فالكون حافل بأدلة التوحيد والقدرة والعناية الإلهية، قال الشاعر:

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

ووصف النبات بأنه كريم، أى: نافع مفيد.

قال المفسرون: الكريم نعت لكل ما يُرضى ويحمد فى بابه، ومنه: وجه كريم، إذا رضى فى حسنه وجماله، وكتاب كريم، مرضِ فى مبانيه ومعانيه، ونبات كريم، مرضِ فيما يتعلق به من المنافع، من زروع وثمار وحيوان.

وفى سورة عبس يقول الله تعالى: فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ. (عبس: ٢٤ – ٣٢).

٨ – إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ.

أى: فيما ذكر لدليل على قدرة الخالق، الذى خلق الكون وأبدع الخلق، ورفع السماء وبسط الأرض، وأرسل المطر، وأنبت أنواعًا وأزواجًا كريمة مثمرة نافعة مبهجة، ومع هذه الأدلة لم يؤمن أكثر الناس، بل كذبوا بالله وبرسوله، وآثروا العمى على الهدى والغى على الرشد.

قال تعالى: وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ. (يوسف: ١٠٣).

وقال تعالى: وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ. (الأنعام: ١١٦).

٩ – وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ .

تأكيد على فضل الله ، فهو سبحانه ٱلْعَزِيزُ . أى : المنيع الغالب القوى المتين ، وهو أيضا ٱلرَّحِيمُ . التواب الغفار .

قال المفسرون : ٱلْعَزِيزُ . فى نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره . ٱلرَّحِيمُ . بمن تاب إليه وأناب ، وقد تكررت الآيتان ٨ ، ٩ فى ثمانية مواضع من سورة الشعراء : هنا ، ثم عقب قصة موسى ، ثم إبراهيم ، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ، ثم شعيب .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

كـــــــلا : كلمة زجر وردع ، والمراد : اتق الله ، وانزجر عن خوفك منهم .

بـآيـاتـنـا : المراد هنا : معجزاتنا .

وأنا من الضالين : الجاهلين ، أو قبل أن ينعم الله علىّ بالنبوة والرسالة .

ففررت منكم : خرجت من بينكم إلى مدين .

تمهيد :

تعرض سورة الشعراء طائفة من أخبار السابقين ، فهى سورة مكية عنيت بأخبار الأمم السابقة ، تسلية للرسول الأمين وتحذيرا لأهل مكة ، أن يصيبهم مثل ما أصاب هذه الأمم ، وقد ذكرت قصة موسى فى مواضع

عديدة ، لكنها فى معظمها إشارات سريعة للعظة والعبرة ، وفى ستة مواضع فى القرآن الكريم ، ذكرت قصة موسى بشىء من الإسهاب والتفصيل ، مثل سورة طه ، وسورة القصص ، وسورة الأعراف ، وسورة الشعراء ، وقد استغرقت قصة موسى فى هذه السورة (سورة الشعراء) الآيات من ١٠ – ٦٨ ، أى : قرابة ٥٨ آية .

التفسير :

١٠ – وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

تبدأ هنا قصة موسى من مرحلة الرسالة ، وقد بدأت من جانب الطور الأيمن ، وموسى فى طريقه من أرض مدين إلى مصر ، حيث شاهد نارًا ، فطلب من أهله أن ينتظروا فى مكانهم ، حتى يذهب إلى النار ليأخذ منها قبسًا يستدفئ به ، ولعله أن يجد هناك من يرشده إلى الطريق السليم إلى مصر ، وهناك فاجأه الوحى والرسالة ، وكلف بتبليغ الرسالة إلى القوم الظالمين ، وهم فرعون وقومه حيث ألَّهوا فرعون ، وظلموا بنى إسرائيل ، والقصة بمشاهدها المتعددة ، فيها إيناس للرسول الأمين محمد ﷺ ، وتحذير لأهل مكة ، من أن يصيبهم الله بهلاك مماثل لهلاك فرعون وقومه ، وتخليد لذكرى أنبياء الله ورسله ، ودعوة إلى الإيمان والاتعاظ والاعتبار .

جاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

واذكر يا محمد لقومك قصة موسى حين ناداه ربك : يا موسى اذهب رسولاً إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وظلموا بنى إسرائيل بالاستعباد ، وذبح الأولاد .

١١ – قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ .

هنا يحدد القوم الظالمين ويذكر اسمهم ، ثم يعجب من عتوهم وظلمهم واستبدادهم ، أى : ائت قوم فرعون ، وحثهم على تقوى الله ومراقبته وامتثال أمره ، وفرعون وقومه يعرفهم موسى ، ويعرف مقدار ظلمهم ، لذلك قال :

١٢ ، ١٣ ، ١٤ – قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ * وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ .

وموسى هنا يظهر أمام ربّه تعالى مخاوفه وضعفه ، ويطلب منه المعونة والمؤازرة ، بأن يجعل هارون معه رسولاً ، وهى شفاعة من أفضل أنواع الشفاعة .

قال المفسرون : لم يكن موسى معترضًا على أداء الرسالة ، وإنما احتاط للمهمة فقال :

رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ . فهم طغاة متمردون ، وفى لسانى حبسة ، فأخاف أن يضيق صدرى بتكذيبهم ، وأن يضطرب لسانى فى موقف المجادلة والمحاجّة ، فأعجز عن شرح الرسالة على الوجه المبين.

وكان هارون أفصح بيانا ، وأهدأ أعصابا ، فطلب من الله أن يشدّ أزره بأخيه ، فإذا أخفق موسى أو قُتل ، أتم هارون الدعوة ، واستمر فى تبليغ الرسالة .

وكان موسى قد قتل قبطيا ، ثم خرج من مصر خائفا ، فاشتكى إلى الله خوفه من أن يُقتل قِصاصًا قبل تبليغه الرسالة .

وقريب من هذه الآيات ما ورد فى سورة طه : قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى * وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَـٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ . (طه : ٢٥ – ٣٦) .

١٥ ، ١٦ ، ١٧ – قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ .

أى : قال له الله تعالى : كَلَّا . لا تخف من تكذيبهم ، ولا تخف من ضيق صدرك ، ولا تخف من حبسة لسانك ، وقد استجبت إلى طلبك ، وأعطيتك سؤلك ، وأوحيت إلى هارون أن يرافقك فى رسالتك ، فاذهبا بآياتنا ، وهى المعجزات كالعصا واليد ، أو آيات التوراة ، ثم بين له الله أسباب الرعاية والعناية والحفظ حين قال : إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ . فهى معية عناية وحفظ ورعاية ، والله سميع لكل شىء ، لكنه هنا معهم يؤازرهم بمعيته ، ومن كان الله معه ، كان معه كل شىء ، ومن فقد الله فقد كلَّ شىء ، وكما قال سبحانه : إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ . (طه : ٤٦) .

لقد ذهب الخوف والخشية من قلب موسى ، وآنسه الله بمعيته ، ومعونته ورعايته ، واستماع الحق له ، استماع رعاية ومعاونة ، ثم حدد الله له المنهج والقول ، فقال :

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

بدون هيبة ولا تردد ولا خوف ، نحن مرسلان برسالة واحدة ، هى دعوتك إلى الإيمان بالله تعالى رب العالمين ، و«ٱلْعَـٰلَمِينَ» جمع عالم ، أى : عالم الإنس والجن والطير ، والأكوان والسماء والأرض والمخلوقات .

أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ .

أى : أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، وكان بنو إسرائيل أهل دين ، هو دين التوحيد من أيام إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام ، لكن هذا الدين كان قد بهت فى نفوسهم ، وفسدت عقائدهم ، فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ، ويعيد تربيتهم على دين التوحيد .

١٨ – قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ .

لقد انتهى مشهد إرسال موسى وهارون إلى فرعون ، وطوى القرآن ما بين المشهدين اكتفاء بفهم الإنسان لما بين المشهدين ، وعرض هنا مشهدًا آخر ، هو مشهد الحجج التى تذرع بها فرعون أمام رسالة موسى ، أى : عندما ذهب موسى إلى فرعون رسولا ، ودعاه إلى الإيمان بالله تعالى ، جحد فرعون الرسالة، وأخذ يتذرع بالحجج التى تمنعه من الإيمان .

فقال فرعون لموسى : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ .

أى : أنت ربيبى ، ربيتك فى بيتى حين كنت صغيرًا ، ومكثت عددًا من سنى عمرك بيننا ، منسوبًا إلينا ، تدخل بيتنا ، وتنعم بنعمتنا ، وكان الأمل أن تعترف لى بالفضل ، لكنك جئت تقول لى : إنك رسول ، وأن مهمتك استخلاص بنى إسرائيل من عذابى .

١٩ – وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ .

أى : قتلت القبطى وكان من شيعتى وأتباعى ، وبذلك جحدت نعمتى ، وكفرت بجميلى عليك ، أو كنت كافرا لم تعلن عن رسالتك ولا عن الوحى الذى أوحى إليك ، وموسى لم يكن يومًا ما من الكافرين بالله ، ولكنه كان يخفى أمره ، تقية من بطش فرعون وقومه .

٢٠ ، ٢١ – قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

ظنَّ فرعون أنه ألقم موسى أحجارًا ، وأنه ألزمه الحجة وقهره ، لكن الله فجَّر الحكمة على لسان موسى ، ففنَّد حجة فرعون ، لقد اعترف بأنه ارتكب هذا الخطأ لا عن عمد وإصرار ، ولكن عن خطأ حيث طعن القبطىّ فى خاصرته طعنة للتأديب ، فكانت قاضية على حياته ، أى : كان موسى فتى غريرا يجهل تقدير الموقف ، ويندفع فى معاقبة المسىء بدون تبصر ، أما الآن فقد تغير الموقف ، وآتاه الله الرسالة والحكمة ، وأذهب عنه الضلالة والتهور .

فالمراد بالضلال فى قوله : فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ . الجهل بالشىء ، والذهاب عن معرفة حقيقته ، أى . لا أجيد تقدير الموقف ، أو كان ذلك قبل مجىء الرسالة والهداية .

فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ...

أى : توقعت منكم الشرّ ، وخشيت منكم على نفسى ، فخرجت هاربا من وجوهكم إلى أرض مدين ، فأعطانى الله الحكمة والعلم النافع ، وأكرمنى بالرسالة واصطفانى بالنبوة والوحى .

٢٢ - وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ .

أى : أتمتنّ على بتربيتى فى بيتك ، والسبب فيه هو استعباد بنى إسرائيل ، وقتل الذكور واستحياء الإناث للخدمة ، فألقت بى أمى فى اليم خشية القتل ، فالتقطنى أهلك ، وتربيت فى بيتك ، ولولا الظلم والقهر منك ومن حاشيتك ، لتربيت مع أسرتى وإخوتى وأمّى وبين أهلى ، أى : أتمتن على بحرمانى من تربيتى وسط أهلى وأسرتى وقومى ، وما تسبب فى ذلك إلا عدوانك ، حيث ألقيت فى البحر ، وحملت إلى بيتك ، وتربيت بعيدًا عن أهلى ، بسبب ظلمك .

★ ★ ★

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير :

٢٣ - قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

وهذا استفهام إنكار وتجبر ، حيث قال فرعون مستفهما من موسى الذى قال هو وأخوه : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . هذا الذى جئت رسولاً من قبله ، وهو سؤال استنكار من فرعون ، أن يكون هناك إله آخر سواه ، بدليل ما حكاه القرآن عنه فى آية أخرى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ... (القصص : ٣٨) .

٢٤ – قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ .

أى : قال موسى لفرعون ومن معه ، إن رب العالمين هو خالق السماوات والأرض ، وما بينهما من الفضاء والهواء ، فملكه واسع لا حدود له ، أى : إن ملكك يا فرعون محدود بهذه البلدة ، أو القطر الذى تدعى ألوهيتك لأهله ، على فرض صحة دعواك ، لكن رب العالمين يمتد ملكه إلى الأكوان كلها ، والعوالم كلها ، فهو يملك الأكوان ويملكك ويملك ملكك وأرضك .

إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ .

إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة ، لتيقنتم بهذا الإله الحق .

٢٥ – قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ .

أى : قال فرعون لمن حوله : ألا تعجبون من قول هذا فى زعمه أن لكم إلهًا غيرى ، وفى آية أخرى قال القرآن : فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ . (الزخرف : ٥٤) .

٢٦ – قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ .

لقد أضاف موسى زيادات مستمرة ، فى تعريف الإله الحق ، وبيان نعمائه وآلائه ، فهو الرب الحق الخالق للناس ، ولمن كان قبلهم من الآباء والأجداد ، وفرعون يفتخر بأنه ورث الملك والألوهية عن آبائه ، لكن موسى هنا يتكلم فى صراحة ووضوح ، إن الملك الحقيقى لله وحده .

٢٧ – قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ .

أى : أراد فرعون أن يشوِّش على موسى ، فادعى أنه إنسان مسلوب العقل ،لا ينبغى أن نستمع إلى مهاتراته ، وادعائه أن له ربًّا غير فرعون .

٢٨ – قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ .

استمر موسى يعدد مجال القدرة الإلهية ، فالله سبحانه هو الذى يأتى بالشمس والقمر والكواكب ، حيث يجعلها تُشرق من جهة المشرق ، وتغرب من جهة المغرب ، والله تعالى ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما ، إن استخدمتم عقولكم وقلوبكم ووجدانكم ، أدركتم عظمته وجلاله ، وقد خص المشرق والمغرب ، لوضوح الأدلة على ملك الله تعالى وحده لهما ، فلم يدَّع أحد أنه يملك طلوع الشمس أو غروبها ، بدليل قول إبراهيم عليه السلام : فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ... (البقرة : ٢٥٨) .

وهكذا تتوالى أدلة موسى على وجود الله تعالى على النحو التالى :

١ – فهو رب السماوات والأرض .

٢ – وهو رب الناس ورب آبائهم الأولين .

٣ – وهو رب المشرق والمغرب .

أى : أنه الخالق الأوحد ، والمالك العظيم ، والمكوّن لهذا الكون ، والمصرّف لشئونه ، فمن ادعى الألوهية غيره فهو مفترٍ كذّاب ، وإزاء وضوح الحجة والأدلة ، لم يجد فرعون مناصًا ، من التهديد باستخدام القوة ، فهو يملك السجون ، ويقدر على إدخال موسى بداخلها ، على نحو ما نرى فى الآيات التالية :

★ ★ ★

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾

التفسير :

٢٩ – قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ .

ضاق فرعون ذرعا بأدلة موسى على وجود الله ، فقد أخذ موسى عليه كل سبيل ، فلجأ فرعون إلى التهديد والوعيد ، بأن موسى إذا جعل لنفسه إلهًا غير فرعون ، فسيدخله فى عداد المسجونين ، وكان فرعون جبارًا فى سجنه ، حيث يلقى بالمسجون فى سحيق من الأرض ، لا يسمع ولا يرى فيه شيئا ، ولا يخرج من السجن إلا بعد أن يموت .

٣٠ – قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ .

أى : أتفعل ذلك ، حتى لو قدمت لك أدلة واضحة بينة ، تدل على صدق رسالتى ونبوتى .

٣١ – قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ .

أى : قدّم هذا الدليل إن كنت صادقًا فى دعوى الرسالة ، أو صادقًا فى أن عندك دليلاً مبينًا واضحًا .

٣٢ - فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ .

ألقى موسى عصاه ، فتحولت إلى ثعبان كبير له طاقة هائلة ، ومنظر مرعب مخيف ، لقد دبَّت الحياة فى العصا بقدرة الله تعالى ، معجزة لموسى عليه السلام .

٣٣ - وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ .

وأخرج موسى يده ، فإذا هى بيضاء بياضًا ناصعًا ، تتلألأ كقطعة من القمر .

قال ابن عباس : أخرج موسى يده من جيبه ، فإذا هى بيضاء تلمع للناظرين ، لها شعاع كشعاع الشمس ، يكاد يغشى الأبصار ، ويسدّ الأفق .

وأمام هذه الحجج الواضحة ، والمعجزات التى تدل على صدق موسى ، فى أنه رسول مؤيد من الله رب العالمين ، كابر فرعون ، ومع اعترافه بهذه القدرة الخارقة ، لجأ إلى المكابرة والعناد ، لكن الرهبة التى أصابته ، جعلته يلجأ إلى قومه ، طالبًا مشورتهم ، شأن الجبارين المتكبرين ، فى الرخاء يدَّعون الألوهية ، كما قال فرعون : **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ...** (القصص : ٣٨) . وفى الشدة يتظاهرون بطلب المشورة ، عندما أحس بأن الأرض تتزلزل من تحته .

٣٤ - قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ .

أى : قال فرعون لأشراف دولته ، وحاشيته المحيطة به : إن ما جاء به موسى ليس معجزة كما يدّعى ، بل هو سحر من ساحر وافر العلم والمقدرة والإحاطة بالسحر .

٣٥ - يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ .

أى : إن موسى يريد أن يكثر أتباعه وأعوانه ومريدوه ، فتنقلب الأمور إليه ، ويكون هو الحاكم المتصرف فى البلاد ، ويخرج الأمراء والحاشية والسلطان من الملك ، ليستولى هو عليه .

جاء فى تفسير أبى السعود :

بهره سلطان المعجزة ، وحيّره حتى حطَّه من ذروة ادعاء الربوبية ، إلى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه ، والامتثال لأمرهم ، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم ، بعدما كان مستقلا بالرأى والتدبير ، وأظهر استشعار الخوف ، من استيلائه على ملكه ، ونسبَه إلى إخراجهم من الأرض لتنفيرهم منه .

٣٦ ، ٣٧ - قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ .

أى : أشار الملأ والحاشية على فرعون بأن يمهل موسى وأخاه ، فقد كان يفكر فى قتله ، فقيل له :

• أمهل اتخاذ القرار فى ذلك وأرجئه .

يقال : أرجأت هذا الأمر وأرجيته ، إذا أخَّرته ، ومنه أخذ لفظ المرجئة ، لتلك الفرقة التى تؤخر العمل ، وتقول : لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، واقترحت عليه أن يرسل جنوده وأتباعه وشرطته فى مدائن مملكته ، يحشرون السحرة عند فرعون ، ليختار منهم من يشاء ، ليقدموا عملاً مبهرًا يؤدى إلى انتصار فرعون وحاشيته ، على موسى ومعجزاته .

قال ابن كثير : وكان هذا من تسخير الله تعالى ، ليجتمع الناس فى صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة . ا هـ .

★ ★ ★

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾

المفردات :

الـمـيـقـات : ما وقت به ، أى : حدد من مكان وزمان ، ومنه : مواقيت الإحرام .

يـوم مـعـلـوم : هو يوم الزينة الذى حدده موسى فى قوله : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى . (طه : ٥٩) .

عـزة فرعون : قوته التى يمتنع بها من الضيم .

تلقف : تبتلع بسرعة .

يأفكون : يقلبونه عن وجهه وحقيقته بكيدهم وسحرهم .

من خلاف : يقطع الأيادى اليمنى ، والأرجل اليسرى .

لا ضير : لا ضرر علينا فيما ذكرت .

منقلبون : راجعون .

تمهيد :

هذا منظر المبارزة بين موسى والسحرة ، فقد اجتمعوا يوم العيد ضحوة ، وكان السحرة جمعا غفيرًا قيل : كان عددهم ١٢,٠٠٠ اثنى عشر ألفًا ، قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعًا إلى أربعة منهم ، وهم رؤساؤهم ، وهم : سابور ، وعاذور ، وحطحط ، ومصفّى . وألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، وجاءوا بسحر عظيم أرهب الناس ، واستولى على مشاعرهم ، ثم ألقى موسى عصاه فابتلعت حبال السحرة ، فأيقن السحرة أن هذا ليس سحرا ، وإنما هو معجزة وتأييد من الله لرسوله ، فخروا ساجدين لله مؤمنين به ، فتهددهم فرعون بالعذاب والقتل ، فما زادهم ذلك الوعيد إلا إصرارًا على الإيمان ، وتمسكًا به ليكونوا قدوة لقومهم .

التفسير :

٣٨ - ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ .

اجتمع السحرة وكانوا فئة كبيرة مثقفة، من أبرع الناس فى السحر وأصنعهم ، وأشدهم تخييلا، جاءوا من أقاليم مصر العليا ، وأراد موسى أن تقع المبارزة يوم عيد لهم ، ليكون ذلك أمام حشد عظيم ، ولتظهر الحجة أمام الجموع الغفيرة ، وهذا كله من لطف الله تعالى فى إظهار أمر موسى .

٣٩ ، ٤٠ - ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ .

طلب فرعون من الناس التجمع والتجمهر ، بأساليب الدعاية والدعوة ، وإثارة النعرة والعصبية ، فالاجتماع مؤازرة للسحرة وانتماء لهم ، لا للحق فى حد ذاته ، أى : وقال قائلهم : إنا نرجو أن يتغلب السحرة، فنستمر على دينهم ، ولا نتبع دين موسى ، ولعل مهارشة النوادى الرياضية ، والاتجاهات الفكرية والدينية والعلمانية ، مما يشغل الجماهير ويمتص اهتماماتها ، أمر مرغوب محبوب لدى القيادات السياسية فى الماضى والحاضر .

٤١ ، ٤٢ - فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ .

أى : عندما جاء السحرة إلى مجلس فرعون ، وحوله وزراؤه وحاشيته ، سألوا: هل يصرف لنا أجر من المال أو الجاه ، إذا انتصرنا على موسى ؟

قال فرعون : نعم ، لكم أجر وجزاء مادى ، وفوق ذلك أقربكم من حاشيتى ، وأجعلكم من أتباعى ومن المقربين منّى .

٤٣ ، ٤٤ - قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ .

استشار السحرة موسى وفوّضُوا له الخيار ، وقالوا : يا موسى، إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى، قال : بل ألقوا .

أذن لهم موسى بإلقاء سحرهم وعصيهم وأعمالهم ، فألقوا حبالهم وكانوا قد دهنوها بالزنبق ، فلما أرسلت الشمس أشعتها ، هيّئ للناس أن الحبال تتحرك وتتموّج ، وأرهب الناس بهذا العمل الفائق ، والسحر العظيم المبدع ، حتى خشى موسى أن يخسر الجولة ، وحتى فرح فرعون وحاشيته ، وظنوا أنهم اقتربوا من حافة النصر .

وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ .

أى : قال السحرة : بجاه فرعون وعظمته وجبروته وسطوته ، سنغلب موسى وننتصر عليه .

وقد قال تعالى : فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ . (طه : ٦٦ - ٦٨) .

وقال سبحانه : فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . (الأعراف : ١١٦) .

٤٥ - فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ .

بعد هذا العمل العظيم الذى قدّمه السحرة ، ألقى موسى عصاه فانقلبت حية كبيرة ، تبتلع كل ما ألقاه السحرة وما زيّفوا وصفه ، ثم تعود كما كانت ، فيأخذها موسى ، ويشاهد الجميع هذه المعجزة .

٤٦ ، ٤٧ – فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

أى : خرّ السحرة ساجدين لله ، فقد بذلوا أجلّ عمل وأعظمه ، ثم شاهدوا عمل موسى ، وأدركوا أنه معجزة لا طاقة للبشر بعملها ، وأن موسى رسول من عند الله ، فقالوا : ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

٤٨ – رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ .

الإله الواحد الذى أرسل موسى وهارون ، آمنا به ، أى : وكفرنا بأن فرعون إله ، لقد كانوا منذ قليل يطلبون الأجر من فرعون ، فلما شاهدوا المعجزة الحقة ، والعصا التى ابتلعت حبالهم ، أيقنوا أن موسى رسول من عند الله ، ولو كان ساحرًا لوجدوا حبالهم وعصيهم ، لكنهم وجدوا شيئا فوق طاقة البشر .

إذا جاء موسى وألقى العصا		فقد بطل السحر والساحر

ولما آمن السحرة ، وهم كهنة فرعون ، والمثقفون والمؤثرون على العامة ، أسقط فى يد فرعون ، وتحير فى أمره ، فلجأ إلى التهديد والوعيد .

٤٩ – قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ .

قال فرعون : كيف تؤمنون بموسى من قبل أن آذن لكم بذلك ؟

وما علم أن الإيمان له سلطانه على القلوب ، وأن «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف يشاء»[٣٤] .

ثم بدأ فرعون يتهم السحرة بالخيانة فقال : إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ...

لقد قصَّرتم فى السحر ، وتواطأتم مع موسى ليظهر أمره ، وهذا تضليل لأهل مصر ، حتى لا يعتقدوا أنَّ إيمان السحرة عن عقيدة واقتناع ، ثم تهددهم وتوعدهم بالعذاب والنكال :

فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ .

أى : سأعاقبكم بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، حتى لا يكون لأحدكم نصف كامل ، ثم أقتلكم وأصلبكم ، وليس فى الإهلاك أشد من ذلك ، وفى آية أخرى حكى القرآن قول فرعون : وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ . (طه : ٧١) .

٥٠ - قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ .

أجاب السحرة فرعون في شجاعة وثبات وإيمان ، مؤثرين الآخرة على الدنيا ، مستهينين بالعذاب والقتل والصلب .

قَالُواْ لَا ضَيْرَ ...

أي : لا ضرر علينا في ذلك ، ولا نبالي بوعيدك ، فكل حي ميت لا محالة .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

ونحو ذلك قول على بن أبى طالب : لا أبالى أوقع علىّ الموت أو وقعت على الموت .

فما أجل الإيمان بالله ، والرغبة فيما عنده ، إن هذا الإيمان يهوّن الحياة وكلّ مصائبها ، ما دام ذلك فى مرضاة الله .

إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ .

أي : إنا راجعون إلى الله فسيوفينا جزاءنا ، ونسعد بثواب ربنا .

٥١ - إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

إنا راغبون فى ثواب الله ، ونأمل أن يتقبل الله توبتنا ، ويغفر ذنوبنا السابقة فى تأليه فرعون ، وفى أعمال السحر ، والآن وقد دخل الإيمان قلوبنا ، فإننا نسارع فى إعلانه ، إظهارًا للحق ، وبراءة من الباطل والكفر ، لنكون أول من آمن بالله ، وناصر موسى وهارون ، لعل ذلك يرضى ربنا فيغفر لنا ما سبق من ذنوبنا .

* * *

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

المفردات :

أســـــــر : سِرْ ليلاً .

مــتــبــعــون : يتبعكم فرعون وجنوده .

شــــرذمــــة : طائفة قليلة من الناس .

غــائــظــون : فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا .

حــــــاذرون : من دأبنا الحذر ، واستعمال الحزم فى الأمور .

كــــنــــوز : أموال كنزوها وخزنوها فى باطن الأرض .

ومــقــام كــريــم : وقصور عالية ودور فخمة .

أورثــنــاهــا : ملّكناها لهم تمليك الميراث .

مشــرقــيــن : داخلين فى وقت الشروق .

تراءى الجمعان : تقاربا ، بحيث رأى كل منهما الآخر .

لــمــدركــون : سيدركوننا ويلحقون بنا .

كــــــــلا : لن يدركوكم .

انــفــلــق : انشق .

الفرق : الجزء المنفرق منه .

الطود : الجبل .

أزلفنا : قربنا .

ثم : هناك .

لآية : لعظة وعبرة توجب الإيمان بموسى .

تمهيد : فى (خروج بنى إسرائيل من مصر)

طالت مدة مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر ، يشرح لهم الدّين ، ويقدِّم الأدلة والبراهين ، وفرعون وملؤه يكابرون ويعاندون ، فأنزل عليه تسع آيات إلى فرعون وقومه ، منها : الجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وغير ذلك ، ثم أمر الله موسى أن يخرج ليلا ببنى إسرائيل ، فى ليلة مقمرة ، واستعار بنو إسرائيل من القبط حليا كثيرا ، قائلين إن لنا فى هذه الليلة عيدًا ، ولما اتجه موسى مع قومه ، هاربا من فرعون وظلمه، جمع فرعون جنودًا كثيرة ، وعبأهم نفسيًا ، فذكر أن موسى مع قومه شرذمة قليلة ، يخالفون أمرنا ، فينبغى أن نحاربهم ، وأن ننتصر عليهم ، وسار فرعون وجنوده فى وقت شروق الشمس ، حتى يدركوا موسى وقومه ، فيقاتلوهم ويعاقبوهم ، وأرشد الله موسى ، فضرب البحر بعصاه ، فانفلق وانقسم قسمين كبيرين ، وصار كل قسم مثل الجبل ، ثم سار موسى مع قومه فى طريق يابس ، ونجوا إلى الشاطىء الآخر ، وأغرق الله فرعون وقومه .

التفسير :

٥٢ – وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ .

جاء بنو إسرائيل إلى مصر أيام يوسف عليه السلام ، وأقاموا بها ٤٣٠ سنة ، ثم أوحى الله إلى موسى أن يسير بهم ليلا جهة البحر ، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونهم ، وسيخرجون فى آثارهم .

٥٣ – فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ .

كان عدد بنى إسرائيل ستمائة ألف ماش من الرجال ، ما عدا الأولاد ، وخبزوا فطيرًا فى عيد الفصح وخرجوا به ، وساروا ليلاً ، وأخبر فرعون بذلك ، فأرسل فى مدائن مصر رجالاً من حرسه . ليجمعوا الجند ، ثم يتبعوا بنى إسرائيل فيردّوهم إلى مصر ، ويعذبوهم أشد التعذيب على ما فعلوا ، وحاول فرعون تعبئة الجنود تعبئة معنوية ، فقال لهم :

٥٤ – إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ .

إن بنى إسرائيل فئة قليلة فيسهل اقتفاؤهم ، وإرجاعهم وكبح جماحهم .

٥٥ – وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ .

إنهم يفعلون ما يغيظنا من إثارة الشعب ، وأخذ أموال القبط ، وقد خرجوا على ديننا ، واتبعوا دينا آخر .

٥٦ – وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ .

إن فرعون ورجاله جميعا ، قوم آخذون فى الحذر ، وإعداد العدة والسلاح لإبادة بنى إسرائيل .

٥٧ ، ٥٨ – فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ .

أخرجنا فرعون وقومه من النعيم إلى الجحيم ، وتركوا المنازل العالية ، والبساتين والأنهار ، والأموال والملك والجاه .

٥٩ – كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ .

أى : كان الأمر حقا كما قلنا ، وكذلك كان إخراجنا كما وصفنا ، وورثنا بنى إسرائيل مثل تلك الثروات ، وتحولوا من العبودية إلى الحرية والاستقلال، والترف والنعيم فهى وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون، قال تعالى : وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا ... (الأعراف : ١٣٧). ولم يعرف أن بنى إسرائيل عادوا إلى مصر ، لكنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه .

وقال سبحانه : وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ونجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ . (القصص ٥٠) .

٦٠ – فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ .

أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس على خليج السويس .

٦١ – فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ .

فلما اقترب الفريقان من بعضهما ، وصار كل فريق يرى الفريق الآخر ، اشتد الخوف ببنى إسرائيل ، وقالوا : إن فرعون وجنوده يلاحقوننا ونخشى أن نتعرض للإيذاء أو القتل على يد فرعون وجنوده .

٦٢ – قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ .

أى : قال موسى لقومه : كلاً ، لن يدركنا فرعون ، ولن نهلك غرقًا فى البحر ، ولن نهلك قتلا على يد فرعون ، فقد وعدنى الله بالنجاة والهداية ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، ومن وجد الله وجد كل شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء ، بهذا اليقين والثقة فى النصر قال موسى : كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ .

ولم يكن يعلم حتى هذه اللحظة ، ما هى وسيلة النجاة .

٦٣ – فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ .

أى : ألهم الله موسى وأمره أن يضرب البحر بعصاه ، وكانت قدرة الله وآيته ، فانفلق البحر ، وتشققت به طرق يابسة ، صالحة للمشى ، وعلى الجوانب مياه قائمة كالجبال ، ويسر الله لهم اثنى عشر طريقا فى البحر ، بعدد أسباط بنى إسرائيل ، لكل سبط منهم طريق .

قال تعالى : فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ . (طه : ٧٧) .

٦٤ – وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْأَخَرِينَ .

أى : قربنا من البحر هنالك الآخرين ، وهم فرعون وجنوده فتبعوهم .

٦٥ – وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ .

أى : أنجينا موسى ومن معه من المؤمنين ، فلم يغرق منهم أحد ، وكان هذا معجزة لموسى ، وآية ظاهرة على رسالته .

٦٦ – ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ .

أغرق الله فرعون وجنوده أجمعين ، فلم يبق منهم أحدًا ، وحاول فرعون إظهار الإيمان بإله بنى إسرائيل فى اللحظة الأخيرة ، فأغلق الله فى وجهه هذه التوبة ، التى جاءت بعد ظهور شبح الموت .

قال تعالى : وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ . (يونس : ٩٠ – ٩٢) .

وقال تعالى : فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ . (الدخان : ٢٢ - ٢٩) .

٦٧ - إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ .

إن فيما ذكر من قصة موسى ، ونجاته مع المؤمنين به ، وغرق فرعون وجنوده ، آية واضحة ، ودليلاً ظاهرًا على قدرة الله تعالى ، حيث نجَّى المؤمنين ، وأهلك الطغاة المعتدين .

وهذه الآية من شأنها أن تأخذ بيد الناس إلى الإيمان ، لكن أكثر الناس من القبط لم يؤمنوا ، بعد أن شاهدوا ما شاهدوا ، أو أكثر بنى إسرائيل لم يستقر الإيمان فى قلوبهم ، بدليل أنهم شاهدوا قومًا يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة .

٦٨ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ .

وإن الله سبحانه وتعالى لهو المنتقم من أعدائه ، والرحيم اللطيف بأوليائه ، كما أهلك فرعون وغيره من العتاة الظالمين ، وكما نجى موسى وغيره من المرسلين .

★ ★ ★

قصة إبراهيم عليه السلام

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

تمهيد :

تأتى قصة إبراهيم الخليل تسرية لرسول الله ﷺ ، وتخليدًا لذكرى أبى الأنبياء ، وإرشادًا إلى سلوكه الممتاز ، فى نبذ الأصنام ، وبيان أنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ، ولا تستحق العبادة ، وأن من يستحق العبادة هو الله وحده ، الخالق الرازق المحيى المميت ، الباعث ، الحسيب الرقيب ، الذى هو على كل شىء قدير.

التفسير :

٦٩ ، ٧٠ - وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ .

أى : اتل على قومك المشركين قصة إبراهيم الخليل ، فقد كانوا يفتخرون بأنهم على دين إبراهيم ، فبين لهم إخلاص إبراهيم ، وتجرده وشجاعته ، حين سأل أباه وقومه ، عن عبادتهم وآلهتهم التى يعبدونها.

٧١ - قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ .

قال قوم إبراهيم له : نعبد هذه الأصنام ، ونظل مقيمين على عبادتها فى الليل والنهار .

٧٢ ، ٧٣ - قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ .

هل تسمع الأصنام عبادتكم ودعاءكم ، هل تملك أن تجلب لكم نفعا ، أو تدفع عنكم ضرًا ؟ إذن ما الفائدة من عبادة ما لا يسمع ولا يعقل ، ولا يجيب ولا ينفع ولا يضر .

٧٤ – قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ .

لم يجدوا حجة ولا دليلاً على استحقاق الأصنام للعبادة ، غير حجة التقليد الأعمى ، واتباع الآباء والأجداد .

قال تعالى : أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ . (البقرة : ١٧٠) .

٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ – قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ.

جهر إبراهيم بالحق بدون مجاملة أو خجل أو مواربة ، فقال لهم فى صراحة : إن هذه الأصنام التى تعبدونها ، وقد عبدها آباؤكم السابقون ، أنا لا أعترف بألوهيتها ، وأجاهر بعداوتها ، فهى لا تسمع ولا تجيب ، ولا تنفع ولا تضر ، وأنا لا أعبد إلا الله تعالى ، خالق الكون كله ، ورب الخلائق أجمعين .

وهو قريب من قول هود عليه السلام : إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . (هود : ٥٤ – ٥٦) .

ثم ذكر إبراهيم صفات الرب الذى يعبده ويتبتل إليه ويعترف بأفضاله فقال :

٧٨ – ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ .

إنه الخالق الذى وهبنى حياتى ووجودى ، وعقلى وفكرى ، وهيأ لى طرق الهداية ، وأودع فىَّ العقل والفكر والاختيار .

كما قال تعالى : ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ . (الأعلى ٢ ، ٣) .

فهو سبحانه الخالق الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، والذى أودعه أسباب الهداية والمعرفة .

قال تعالى : هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ١ – ٣) .

٧٩ – وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ .

وهو سبحانه سائق السحاب ، ومنزل المطر ، ومحيى الأرض بعد موتها ، ومقدر الأرزاق فى الأرض ، ومرسى الجبال لتحتفظ بالمياه فى رءوسها ، قال تعالى : فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ

شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ . (عبس : ٢٤ - ٣٢) .

وقد أضاف إبراهيم النعم إلى الله فى أدب وتجرد ، وتحبب إلى الله ، فنسب إليه كلَّ خير ، ونسب المرض إلى نفسه ، فقال :

٨٠ - وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ .

وإذا طرأ علىَّ مرض ، فهو سبحانه الذى ينعم علىّ بالشفاء منه .

وقريب من ذلك قول فتى موسى : وَمَآ أَنسَٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ ... (الكهف : ٦٣) ، وكما قالت الجن : وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا . (الجن : ١٠) .

٨١ - وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ .

فهو الإله القادر الذى يهب الحياة للأحياء ، والذى يميتنى عند نهاية عمرى وانتهاء أجلى ، ثم يحيينى يوم القيامة للبعث والحساب والجزاء ، وكل ذلك لا تقدر عليه أصنامكم .

٨٢ - وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ .

إن الله سبحانه يتصف بكل كمال ، ويتنزه عن كل نقص ، فهو الخالق الرازق ، وهو المحيى المميت، وهو صاحب الفضل والعطف والرحمة ، فأنا آمل وأطمع أن يغفر لى ذنوبى ، ويصفح عن خطيئتى يوم القيامة ، والله تعالى يعصم الأنبياء والمرسلين من اقتراف الذنوب والمعاصى ، لكنه ربما اقترف خلاف الأولى ، أو ارتكب بعض المخالفات أو الصغائر ، فسماها خطيئة ، هضما لنفسه ، ورغبة فى استنزال رحمات ربه ، وتعليما للمخاطبين وإرشادًا لهم ، وتحبيبًا لله تعالى إلى خلقه ، فهو غافر الذنب وقابل التوب ، وهو الرحمان الرحيم .

جاء فى صحيح مسلم عن عائشة ، قلت : يا رسول الله ، ابن جُدْعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : «لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما: ربِّ اغفر لى خطيئتى يوم الدين»[٣٥] .

ويوم الدين هو يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم .

★ ★ ★

دعـــاء

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

المفردات :

الحكم : هو العلم بالخير والعمل به .

ألحقنى بالصالحين : وفقنى للأعمال التى توصل إلى الانتظام فى زمرة الكاملين ، المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها .

لسان صدق : ذكرا جميلا بين الناس ، بتوفيقى إلى الطريق السليم ، حتى يقتدى بى الناس من بعدى ، ومن كلام الحكماء : «قد مات قوم وهم فى الناس أحياء» .

من ورثة جنة النعيم : ممن يدخلون الجنة ، ويتمتعون بنعيمها ، كما يتمتع الوارث بميراثه .

الخزى : الهوان .

القلب السليم : البعيد عن الكبائر والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة .

تمهيد :

هذا دعاء من إبراهيم ، وفيه ذكر الله ، وتفويض الأمور إليه ، وفى الحديث : «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» .

التفسير :

٨٣ - رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ .

يارب وفقنى وألهمنى الحكمة ، والصدق فى القول ، والصواب فى العمل .

وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ .

وفقنى للأعمال الصالحة لأدخل فى زمرة الصالحين من عبادك ، فدرجة الصلاح درجة سامية ، هى أن يكون العبد طائعا لله ، كأنه قدر الله وتوفيقه ، وقد وصف الله بعض الأنبياء بالصلاح فقال : وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ . (آل عمران : ٣٩) .

وفى التشهد «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ومن أدعية الملائكة الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بالمغفرة ودخول الجنة ، والوقاية من النار .

وروى أن النبى ﷺ قال فى دعائه : «اللهم أحينا مسلمين ، وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبدّلين» .

٨٤ – وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ .

أى : اجعل لى ذكرًا حسنا ، وحبًّا فى قلوب الخلق ، حتى أكون قدوة حسنة لمن بعدى ، وقد أجاب الله دعاءه كما قال سبحانه : وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .
(الصافات : ١٠٨ – ١١٠)

٨٥ – وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ .

أى : اجعلنى ممن يدخلون الجنة ، ويتمتعون بنعيمها ، كما يتمتع الوارث بالميراث .

قال تعالى : وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الزخرف : ٧٢) .

٨٦ – وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ .

أى : سامح أبى واغفر ذنوبه ، واستر عيوبه ، لأنه ضل عن الحق وعبد الأصنام .

قال تعالى : وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ . (التوبة : ١١٤) .

٨٧ – وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ .

أى : لا تفضحنى بعتاب على ما فرطت ، أو بنقص منزلتى فى الآخرة ، وأجرنى من الخزى والهوان ، يوم القيامة ، يوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم ، وفى هذا المعنى ورد من الأدعية فى القرآن الكريم : رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . (آل عمران : ١٩٢) .

٨٨ ، ٨٩ – يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

فى يوم القيامة لا ينفع الإنسان ماله وإن كثر ، ولا ابنه ، وإنما ينفعه الإيمان بالله وباليوم الآخر ، والإخلاص لله ، والبعد عن النفاق والرياء والشرك .

فلا ينفع فى يوم القيامة منصب ولا جاه ، ولا مظهر ولا وجاهة ، ولا أىّ قيمة من القيم التى يحرص عليها المراءون ، إنما القيمة العليا فى ذلك اليوم ، لإخلاص القلب لله ، والبعد به عن الشهوات والانحرافات، والمراد بالقلب السليم الخالى من شوائب النفاق والشرك ، والرياء وحب المظاهر . قال تعالى : فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ . (البقرة : ١٠) .

ونلمح فى الآيات السابقة توفيق إبراهيم ، وتجرده مخلصا لله ، وذكره لآلاء الله ، ودعاءه لله دعاءً رخيًا نديًا ، ينبض بالإخلاص حيث دعا الله أن يرزقه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

أخرج أحمد ، والترمذى ، وابن ماجة ، عن ثوبان قال : لما نزلت : وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ... (التوبة : ٣٤) ، قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ : لو علمنا أى المال خير اتخذناه ، فقال رسول الله ﷺ : «أفضله: لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه»[٣٦] .

★ ★ ★

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

المفردات :

أزلفت : قرّبت .

برزت : جعلت بارزة لهم بحيث يرون أهوالها .

الغاوين : الضالين عن طريق الحق .

فكبكبوا : ألقوا على وجوههم مرة بعد أخرى ، من قولهم : كبّه على وجهه ، أى : ألقاه .

يختصمون : يخاصمون من معهم من الأصنام والشياطين .

نسويكم: نجعلكم مساوين له فى استحقاق العبادة .

الصديق: الصادق فى ودِّه .

الحميم: هو الذى يهمه ما أهمّك .

الكرة: الرجعة .

تمهيد:

فى هذه الآيات وصف ليوم القيامة حيث ينعم المتقون بالجنة ، ويعاقب المجرمون بالنار ، واقتصر فى وصف الجنة على آية واحدة ، ثم أسهب فى وصف جهنم وأهلها ، واختصامهم وحسرتهم فى جهنم، وتمنيهم العودة إلى الدنيا ليكونوا من المؤمنين .

التفسير:

٩٠ - وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ .

وقد قربت فى يوم القيامة الجنة لمن اتقى الله تعالى وخاف عقابه ، كما قال تعالى : وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . (ق : ٣١) .

٩١ - وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ .

أظهرت الجحيم للضالين عن الحق ، المنصرفين عنه إلى الغى والضلال ، بحيث يشاهدونها ويدركون أهوالها ، ويتيقنون بالعذاب فيها .

قال تعالى : وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا . (الكهف : ٥٣) .

٩٢ ، ٩٣ - وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ .

أى : سُئل أهل النار سؤال تقريع وتوبيخ ، لا سؤال استفهام . وقيل لهم : أين الأصنام ، والآلهة المدعاة التى عبدتموها من دون الله ؟ هل ينصرونكم اليوم وينقذونكم من النار ، بل هل ينتصرون لأنفسهم هم حين يلقون فى النار ، أذلاء تحرقهم النار ؟ كما قال تعالى : وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ... (التحريم : ٦) .

٩٤ ، ٩٥ - فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ .

أى : تكرر إلقاء العصاة فى جهنم ، فى صورة زرية منكرة ، تحس بها من هذا اللفظ المعبر : فَكُبْكِبُواْ فِيهَا ... أى : ألقوا فيها جموعا فوق بعضها ، أو ألقوا فى النار على وجوههم ، من كبَّه : إذا دفعه فى النار على وجهه ، قال تعالى : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ . (القمر : ٤٨) .

ونلحظ أن الآلهة المدعاة تلقى أولاً ، ثم يلقى بالغاوين ، لينقطع رجاؤهم وتشتد حسرتهم ، حين يشاهدون الآلهة تدفع فى جهنم دفعًا وتدعُّ دعا ، ثم يلقى فى جهنم جميع جنود إبليس ، وأتباعه الذين أطاعوه وعملوا فى خدمته ، والجميع من جنود إبليس ، فهو تعميم شامل بعد تخصيص .

٩٦ – قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ .

أى : قال الغاوون وهم يخاصمون من معهم فى جهنم ، من الأصنام والشياطين والآلهة المدعاة .

٩٧ ، ٩٨ – تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

والله ما كنا إلا فى ضلال واضح ، حين تركنا عبادة الله وحده ، وعبدنا معه أصنامًا لا تضرّ ولا تنفع ، ولا تشفع ولا تنقذ .

والآيات تصوّر أهل النار ، فى مشهد حى مُشاهد ، كأنه واقع منظور ، حيث تلقى الأصنام والآلهة المدعاة فى النار أمام عبادها ، وحيث يتبرأ العباد من ألوهيتها ، ويندمون أشد الندم ، ولكن بعد فوات الأوان .

٩٩ – وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ .

لم يخرجنا عن طاعة الله إلى طاعة الشياطين والأصنام ، إلا الرؤساء والقادة والكبراء ، الذين أغرونا بالكفر بالله واتباع غيره ، فهم مجرمون معتدون علينا ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا . (الأحزاب : ٦٧ ، ٦٨) .

١٠٠ ، ١٠١ – فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ .

فليس لنا اليوم شافع يشفع لنا ، فينقذنا من العذاب ، ولا صديق مخلص ، يسعى لرحمتنا وإنقاذنا مما نحن فيه ، ونلاحظ أن الشافعين جاءت بالجمع ، لكثرة الشافعين فى ذلك اليوم من المؤمنين ، أما الصديق الحميم فجاءت مفردة ، للدلالة على ندرة الصديق ، خصوصا فى وقت الضيق .

والخلاصة :

أن الأمر قد بلغ بهم من شدة الهول ، مبلغًا عظيمًا ، فهم فى النار خالدون مخلدون ، وهم يتأسفون على حالهم ، ويندمون على عبادة غير الله ، ثم يظهرون الحسرة واللهفة على عدم وجود شفيع يشفع لهم ليخلصهم مما هم فيه ، أو حتى مجرد صديق يتوجع لألمهم ، ويشاطرهم أحزانهم .

١٠٢ – فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أى : ليت لنا كرة ورجعة إلى الدنيا ، لنتدارك ما فاتنا ، ونعمل صالحًا ، ونؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، حتى إذا متنا لا ينالنا ذلك العذاب ، والقرآن هنا يصوّر مواقف القيامة ، كأنها حاصلة مشاهدة أمام العين ، ليتدارك الإنسان نفسه قبل ضياع عمره .

قال تعالى : وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ . (المنافقون : ١٠ ، ١١) .

١٠٣ – إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ .

أى : فيما ذكر من قصة إبراهيم الخليل ، وجداله مع قومه ، وإلزامهم الحجة ، وفى عرض مواقف الحشر والحساب والجزاء ، لآية وعظة وعبرة لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ .

وما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين بالله ورسوله .

١٠٤ – وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ .

إن الله تعالى القوى القادر ، له العزة جميعا ، والغلبة والأمر كله لله ، وهو مع ذلك رحيم بعباده يقبل توبة التائبين ، ويعفو عن المذنبين ، ورحمته وسعت كل شىء ، وهو الرحمان الرحيم .

ويتكرر هذا التعقيب عقب قصة نوح مع قومه ، وهود مع عاد ، وصالح مع ثمود ، ولوط مع قومه ، كما جاء تعقيبا على آية وقعت للمكذبين .

وخلاصة هذا التعقيب :

فى هلاك الظالمين فى الدنيا ، وعذابهم فى الآخرة ، عظة وآية ، وقد كان سبب هلاكهم عدم إيمان أكثرهم ، وفى هذا التعقيب تسلية للرسول الأمين ، وتبصرة للمؤمنين بأن الله هو الغالب العزيز ، وهو الرحيم بعباده حيث خلقهم ورزقهم ، وأرسل لهم الرسل ، ثم بين لهم عاقبة أمرهم فى الآخرة ، ليتبصروا ويعتبروا .

★ ★ ★

قصة نوح عليه السلام مع قومه

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) ﴾

المفردات :

القوم : اسم لا واحد له من لفظه ، كرهط ونفر ، يذكر ويؤنث .

أخوهم : أخوة نسب ، كما يقال : يا أخا العرب ، ويا أخا تميم ، يريدون : يا من هو واحد منهم .

قال الحماسى :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

الأرذلون : واحدهم : أرذل .

والرذالة : الخسة والدناءة ، وقد استرذلوهم لاتضاع نسبهم ، وقله حظوظهم من الدنيا .

من المرجومين : من المقتولين رميا بالحجارة .

فافتح : احكم ، من الفتاحة بمعنى الحكومة ، أى : احكم بينى وبينهم حكمًا .

نجنى : من شؤم عملهم .

الفلك : يطلق على الواحد والجمع .

المشحون : المملوء بالناس والحيوان .

الـبـاقـيـن : من قومه .

لآيـــة : عبرة شاعت وتواترت .

تمهيد :

هذه قصة نوح عليه السلام ، وهو أوّل رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، بعد أن عُبدت الأصنام والأنداد ، فنهاهم عن ذلك ، وحذّرهم من وبال عقاب ربهم ، ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين ، فكذبه قومه فدعا عليهم ؛ فأغرقهم الله عقابًا لهم ، ونجى الله نوحًا ومن معه من المؤمنين .

التفسير :

١٠٥ ، ١٠٦ - كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ .

تأتى قصة نوح فى سلسلة عدد من المرسلين ، دعوا أقوامهم إلى توحيد الله ، والتمسك بالفضائل . ولكن أقوامهم كذبوهم فاستحقوا عقاب الله تعالى .

ونلحظ هنا أن قوم نوح كذبوا نوحًا وحده ، لكن لما كانت دعوة الرسل واحدة ، كان تكذيب رسول منهم تكذيبًا لهم أجمعين .

والمعنى :

كذبت قوم نوح رسالات السماء ، حين قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون الله وتراقبونه ، وتؤمنون به سبحانه .

ونلحظ أن نوحًا نشأ بينهم ، وهم يعرفون حسبه ونسبه وأمانته ، وكل ذلك يكون داعيًا إلى تصديقه، لكن المكذبين يرون أن الرسالة امتياز ، فيجحدون ويكذبون ، حتى لا يتفضل الرسول على قومه ، ولا يتميز عليهم ، وهو لون من ألوان الحقد ، كما قال تعالى على لسان قوم نوح : مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ... (المؤمنون : ٢٤) .

١٠٧ ، ١٠٨ - إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

إنى رسول من عند الله أرسلنى إليكم ، وإنى أمين على وحى السماء ، لا أغير فيه ولا أبدل ، وإنما أنطق بالحق والصدق .

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

أى : راقبوا الله واتقوه وآمنوا به ، وأطيعونى فيما آمركم به من توحيد الله وطاعته ، والتصديق برسله وكتبه ، والإيمان بالبعث والجزاء والجنة والنار .

١٠٩ – وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

أى : لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة أجرًا ، ولا مالاً ولا جعلاً ، لأن أجرى وجزائى عند الله ، فأنا أقوم بتبليغ رسالة الدين خالصة لوجه الله تعالى .

وقد كان الكهان ورجال الدين يستغلون الدين فى جمع المال ، بل والاحتيال بطرق عديدة ، لجمع الأموال من الناس ، لذلك صرح الرسل فى رسالاتهم بأن أجرهم على الله ، فهم أمناء على دعوة الله ، وهم يبلغونها ابتغاء مرضاة الله .

قال تعالى : **ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا** . (الأحزاب : ٣٩) .

١١٠ – فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

كرر الأمر بتقوى الله ، لأنها رأس الفضائل ، وقدمها على طاعته ، لأن من خاف الله وراقبه ، يرجى خيره وبرّه وطاعته لرسول الله . وتكرير التقوى هنا لترسخ فى أذهانهم ، وتلين قلوبهم ، ونظير هذا قول الأب لابنه : اتق الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيرًا ، اتق الله فى عقوقى وقد علمتك كبيرًا .

١١١ – قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ .

أتباع الرسل عادة يكونون من الفقراء والبسطاء ، لأنهم يؤمنون بالحق ، ويصدقون بوحى السماء ، بدون نظر إلى ربح أو خسارة ، أما المترفون فتشغلهم اللذات والمحرمات واتباع الهوى ، والإسراف على النفس ، عن الإيمان بالرسل ، قال تعالى : **وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ** . (الزخرف : ٢٣) .

ومعنى الآية :

أنُصدق برسالتك يا نوح ، ونحن نرى أتباعك من الفقراء والبسطاء ، وأصحاب الحرف المتدنية ؟ فكيف نجلس – ونحن الأغنياء والشرفاء – مع الفقراء الذين لا حسب لهم ولا نسب ؟ فهم من الأراذل الذين انحط نسبهم وقل قدرهم . وما علموا أن الله كرّم الإنسان بعقله ، وميزه به على جميع المخلوقات ، فمن فكر وآمن بالله ورسله ، فقد حاز الشرف والأجر ، أما الكافر فهو متعرض لغضب الله والخزى والهوان ، قال تعالى : **رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** . (آل عمران : ١٩٢) .

١١٢ - قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

كأنّ الكفار ادعوا أن هؤلاء الفقراء والبسطاء قد اتبعوا نوحًا لينالوا شرفا فى الدنيا ، ومنزلة أعلى من منزلتهم ، فأخبرهم نوح أنه رسول من عند الله ، فمن آمن به وجب عليه أن يضمّه إلى قائمة المؤمنين ، وأن يقبل ظواهرهم ، وليس عليه أن ينقب عن بواطنهم ، لأن المطّلع على الضمائر هو الله تعالى ، والله تعالى لا ينظر إلى صور الناس ولا إلى أموالهم ، وإنما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم ، «فالخلق جميعًا عباد الله، يدركون ثوابه بالعمل الصالح ، ويتفاضلون عنده بالتقوى» . وفى القرآن الكريم : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (الحجرات : ١٣) .

١١٣ - إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ .

ما حسابهم وجزاؤهم إلا على الله المطّلع على السرائر والضمائر ، ولو كنتم من أهل الشعور والإدراك لعلمتم ذلك .

١١٤ - وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

كأنهم شرطوا على نوح ، أن يطرد هؤلاء الفقراء من مجلسه ، حتى يؤمنوا به ، كما ذكر ذلك أبوحيان فى «البحر المحيط» ، ويدل على ذلك ما حكاه القرآن الكريم على لسان نوح عليه السلام : وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (هود : ٢٩ ، ٣٠).

وقد حاول رؤساء قريش مثل ذلك مع النبى ﷺ ، فأنزل الله عليه قوله تعالى : وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . (الأنعام : ٥٢) .

١١٥ - إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

ما أنا إلا رسول من عند الله ، أدعو إلى توحيد الله ، وأنذر الكافرين بالعذاب ، فمن أطاعنى دخل فى زمرة المؤمنين ، سواء أكان شريفًا أم وضيعًا ، جليلاً أم حقيرًا .

١١٦ – قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ .

طال مكث نوح فى قومه يدعوهم إلى توحيد الله ، ويناقشهم بالحجة والبرهان والأدلة العقلية ، ولما أفحمهم لجأوا إلى التهديد بالقوة فقالوا : لئن لم تنته يا نوح عن دعوتك لنا إلى الإيمان برسالتك ، وعن تحقيرك للأصنام التى نعبدها ، لنرجمنك بالحجارة حتى تموت ، ولما هددوه بالقتل لجأ إلى الله يبثه أحواله ، ويشكو إليه تكذيب قومه ، ويطلب منه النصر والمعونة .

١١٧ ، ١١٨ – قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أى : قال نوح لربه شاكيًا متضرعًا مستغيثًا به : إن قومى كذبوا رسالتى وأعرضوا عنى ، وازدادوا عتوًا وتصميمًا على الكفر ، وقد ورد هذا المعنى بالتفصيل فى سورة نوح وغيرها ، مثل قوله تعالى : قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا . (نوح : ٥ – ٧) .

فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ...

اقض بيننا بحكمك العادل ، الذى ينصر الحق ، ويخذل الباطل ، وينجى المؤمنين ، ويهلك الكافرين .

وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أى : أنقذنى ومن آمن بى من مكرهم وكيدهم وعدوانهم .

١١٩ – فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ .

كان الله قد أوحى إلى نوح أن يصنع سفينة لينجو بها مع قومه المؤمنين من الطوفان الذى يصيب الكافرين ، وكان الكفار يسخرون من نوح ومن عمله ، حيث يصنع سفينة فى منطقة يابسة ليس بها ماء ، والسفينة لا تجرى على اليبس .

قال تعالى : وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ... (هود : ٣٨) .

وفى الوقت المعين، أمطرت السماء، وفجر الله عيون الأرض، وتلاقت المياه واشتد الطوفان، وأغرق الله الكافرين ، ونجى المؤمنين ، فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ . أى : الممتلئ عن آخره ، قال تعالى : فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ

فَٱنتَصِرْ * فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ .

(القمر ١٠ - ١٦)

١٢٠ - ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ .

بعد نجاة نوح فى السفينة ، ومعه من كل زوجين اثنين ، يسّر الله له مقومات الحياة ، ونجاه بسلام وأمان من الطوفان هو والمؤمنين ، ثم أغرق الله الباقين من قومه على الكفر ، أو الباقين خارج السفينة لكفرهم .

١٢١ - إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ .

إن فيما تقدم من هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين ، لعظة عظيمة وعبرة لمن تدبر وتفكر ، وما كان أكثر قوم نوح بمؤمنين ، ولذلك استحقوا الهلاك وعقوبة السماء ، وفى هذا تهديد لأهل مكة : أن أفيقوا وتنبهوا ، وآمنوا حتى لا يصيبكم ما أصاب المكذبين من الأمم قبلكم .

١٢٢ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ .

فهو سبحانه الرب الكريم صاحب العزة والجبروت ، فلا يقهر ولا يذل ، وهو الغالب على ما يريده ، القادر على استئصال أعداء دينه ، وهو على كل شىء قدير ، وهو سبحانه الرحيم بخلقه ، فلا يعاجلهم بالعقوبة ، بل يمهلهم أحقابًا ودهورًا ، ويقبل توبة التائبين ، ويغفر للمستغفرين .

★ ★ ★

قصة عاد قوم هود عليه السلام

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾

المفردات :

عـــــاد : اسم أبى القبيلة الأكبر، ويُعبَّر عن القبيلة إذا كانت عظيمة باسم الأب، أو ببنى فلان أو آل فلان.

الـــريـــع : «بالفتح والكسر» المكان المرتفع، ويقال : كم ريع أرضك ؟ أى : ارتفاعها.

آيـــة : قصرًا مشيدًا عاليًا.

تـعـبـثـون : تتخذون العبث، وتفعلون ما لا فائدة فيه.

مصـــانـــع : قصورًا مشيدة، وحصونا منيعة.

لـعـــل : معناها هنا : التشبيه، أى : كأنكم تخلدون.

الـبـطش : الأخذ بالعنف.

الـجـبـار : المتسلط العاتى بلا رأفة ولا شفقة.

أمدّكـــم : سخّر لكم.

الـوعـظ : كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد.

خـلـق الأولـيـن : عادتهم التى كانوا يدينون بها، ونحن مقتدون بهم.

وما نحن بمعذبين : على ما نحن عليه .

فكذبوه : بالعذاب .

فأهلكناهم : بسبب التكذيب فى الدنيا ، بريح صرصر .

تمهيد :

بعد هلاك قوم نوح بالطوفان ، جاء بعدهم عاد ، وكانوا يسكنون فى جنوب الجزيرة العربية قرب حضرموت ، بالأحقاف : وهى جبال الرمل بين سلطنة عمان واليمن ، وقد ظهرت حفريات فى سلطنة عمان ترجح وجود قرية عظيمة البُنيان والمصانع ، يرجح أنها قرية عاد ، التى أهلكها الله بالريح العاتية ، وفى سورة الأعراف يقول الله تعالى على لسان هود نبى الله إلى عاد : وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَسْطَةً ... (الأعراف : ٦٩) .

التفسير :

١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ – كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

كذبت عاد رسول الله إليهم ، حين قال لهم أخوهم هود : ألا تتقون الله وتراقبونه وتخافون بأسه ، فقد أهلك قوم نوح حين كذبوا .

إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . ناصح مخلص فى تبليغ الرسالة ، فاتقوا الله واستجيبوا لدعوته ، وأطيعونى فيما آمركم به .

ومن هذه المقدمة نلحظ اتحاد الرسالات فى الدعوة إلى توحيد الله ، فكل رسول كان يأتى ليبلغ هذه الدعوة ، ويمضى فى طريقه ، ويحاول أن يشرح لهم الرسالة التى يحملها ، ومضمون ما تقوم عليه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

١٢٧ – وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة أجرًا ولا مالاً ، فأجرى وجزائى أرجوه من ربى ، الله رب العالمين .

١٢٨ – أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ .

أتبنون بناية بكل مكان مرتفع من الأرض ، مثل أبراج الحمام التى تبنى للهو والعبث ، وكل مكان مرتفع تُبنى به بناية للهو والترف .

قال ابن كثير :

الريع : المكان المرتفع ، كانوا يبنون عند الطرق المشهورة بنيانًا محكمًا هائلاً باهرًا ، لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة ، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك ، لأنه تضييع للزمان ، وإتعاب للأبدان ، واشتغال بما لا يجدى فى الدنيا ولا فى الآخرة .

١٢٩ - وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ .

تتخذون قصورًا مشيدة محكمة ، أو سدودًا للمياه .

قال مجاهد : المصانع : البروج المشيدة ، والبنيان المخلد ، وفى رواية عنه : بروج الحمام .

وقال قتادة : هى مأخذ الماء .

والمعنى على العموم هو :

وتتخذون سدودًا لحبس المياه ، أو حصونا منيعة وقصورًا مشيدة ، مؤملين الخلود فى الدنيا ، كأنكم لا تعرفون الموت ، ولا تحسُّون بسكان القبور .

والمقصود من ذمِّهم : اهتمامهم بدنياهم ، دون العمل لأخراهم ، فلو عملوا لهما جميعًا ، لما عيب عليهم ما صنعوه لدنياهم ، فى غير سرف ولا مخيلة .

١٣٠ - وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ .

وإذا عاقبتم سواكم أسرفتم فى البغى عليهم ، جبارين غاشمين ، دون رأفة أو رحمة .

قال الفخر الرازى :

وصفهم بثلاثة أمور :

١ - اتخاذ الأبنية العالية ، وهو يدل على السرف وحب العلو .

٢ - اتخاذ المصانع - القصور المشيدة والحصون - وهو يدل على حب البقاء والخلود .

٣ - الجبّارية : وهى تدل على حب التفرد بالعلو ، وكل ذلك يشير إلى أن حب الدنيا قد استولى عليهم ، بحيث استغرقوا فيه حتى خرجوا عن حد العبودية ، وحاموا حول ادعاء الربوبية ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة .

١٣١ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

خافوا الله ، واتركوا هذه الأعمال ، وأطيعوا أمرى .

١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ - وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ .

خافوا الله الذى أنعم عليكم بنعم تعلمونها وتشاهدونها ، من أنواع النعماء والآلاء ، أمدكم بالإبل والبقر والغنم ، وأمدكم بالبنين لتكثروا ، وليعاونوكم فى حفظ أنعامكم وتنميتها ، وليحملوا عنكم بعض أعبائكم ، وأمدكم ببساتين مثمرات ، وعيون بالماء جاريات .

ونلاحظ أن نبى الله هود قد تدرج معهم فى ذكر عيوبهم وتكبرهم وتجبرهم ، ثم تلطف معهم فى ذكر أنعم الله عليهم ، حيث أجملها ثم فصَّلها مستشهدًا بعلمهم ، وبذلك أيقظهم من غفلتهم ، ونبههم إلى شكر ربهم خشية نزول العذاب بهم .

١٣٥ - إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

أى : إنى أخاف عليكم - إن لم تؤمنوا بالله وتطيعوا أمره - عذاب يوم القيامة ، الذى يشيب من هوله الوليد . أو أخاف عليكم عذاب الله فى الدنيا ، وهو عذاب عظيم ، حيث ينزل بكم العذاب ، فيصيبكم الفناء ، حيث كانوا فى نعم وقوة وقدرة ، واستكبار وعتوّ ، قال تعالى : فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . (فصلت : ١٥) .

وهكذا نجد نبى الله هودًا يقدم لهم النصح والموعظة الحسنة ، ويرشدهم إلى أنعم الله عليهم ، ويحذرهم من عقوبته ، لكنهم أصمُّوا آذانهم عن نصيحته .

١٣٦ - قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ .

أى : يستوى عندنا تذكيرك لنا وعدمه ، فلا نبالى بما تقول ، ولا نرعوى عما نحن عليه .

قال أبو حيان : جعلوا قوله وعظًا ، على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوَّفهم به ، إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به ، وأنه كاذب فيما ادّعاه .

١٣٧ - إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ .

ما نحن عليه هو دين الآباء والأجداد ، أو هو سنة الدهر : أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وما يهلكنا إلا

الدهر، ولن يكون هناك بعث ولا جزاء، وهكذا استكثر أهل مكة البعث والحشر، كما قال تعالى: وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ. (الواقعة: ٤٧، ٤٨).

١٣٨ – وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.

فلا بعث ولا حساب ولا جزاء، أو لن ينزل بنا عذاب في الدنيا، وكذلك في الآخرة.

١٣٩ – فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّ فِى ذَ ٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ.

هذه خاتمة القوم في هذه القصة جاءت في كلمتين:

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ.

كذبوا رسولهم، ولم يستمعوا إلى نصحه المتكرر، وبيانه المستفيض، وتعديد أنعم الله عليهم، وتحذيره لهم من العقوبة، بل تبجحوا وأنكروا البعث والحشر والجزاء، واستمروا في تكذيب الرسول هود عليه السلام فأهلكهم الله، حيث لم يغن عنهم طول أجسامهم، ولا تشييد بيوتهم ومصانعهم، ولا تجبرهم وبطشهم، فأين قوة المخلوق من قوة الخالق، وقد بينت سور القرآن الكريم أن الله أرسل عليهم ريحًا عاتية، وأنهم حاولوا دفن أجسامهم في الرمال، وإبقاء رءوسهم في الهواء، فكانت الريح تقصف رءوسهم، وتتركهم كالنخلة التي قطع رأسها، وترك الجذر خرابًا لا ثمر فيه ولا فائدة، وقد طمرتهم الرياح، وعفت على آثارهم وتمت إبادتهم عن آخرهم، ليكونوا عظة وعبرة لسوء خاتمة المكذبين، وما كان أكثر هؤلاء المهلكين بمؤمنين.

وفي سورة الحاقة وضح القرآن هذه المعاني بقوله تعالى: وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ. (الحاقة: ٦ – ٨).

١٤٠ – وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ.

إن الله هو القادر المنتقم من المكذبين الجاحدين، الرحيم بالتائبين النادمين.

★ ★ ★

قصة ثمود قوم نبى الله صالح

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾

المفردات :

الطلع : أول ما يطلع من التمر ، وبعده يسمى خلالاً ، ثم بلحا ، ثم بسرا ، ثم رطبا ، ثم تمرا .

الهضيم : النضيج الرّخص ، اللين اللطيف .

النحت : النجر والبرى .

فارهين : بطرين ، من الفره : وهو شدة الفرح ، أو حاذقين ، من الفراهة : وهى النشاط ، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب ، وقرئ : «فرهين» أى : بطرين ، وهو أبلغ .

المسحّرين : الذين سُحروا حتى ذهبت عقولهم .

الشّرب : «بالكسر» ، النصيب والحظ .

فعقروها : رموها بسهم ثم قتلوها .

تمهيد :

يتجاور القصص فى القرآن الكريم ، وعادة تأتى قصة ثمود مع قصة عاد ، فقد كانوا عربًا يسكنون أطراف الجزيرة العربية ، تسكن عاد فى الجنوب بين اليمن وسلطنة عمان ، وتسكن ثمود مدينة الحجر ، التى بين وادى القرى والشام ، أى على طريق المدينة ، ومساكنهم معروفة مشهورة ، وتعرف اليوم بمدائن صالح، وكان أهل قريش فى رحلة الصيف يمرون عليها وهم ذاهبون إلى الشام ، ومرّ رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام . وقال لأصحابه : «لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون أن يصيبكم ما أصابهم»[٣٧] .

وكانت ثمود بعد عاد ، وقبل إبراهيم الخليل عليه السلام ، والقصة ذكرت فى عدد من سور القرآن الكريم ، وقد كانت هناك معجزة ظاهرة لثمود ، هى ناقة صالح ، تسقيهم لبنا فى يوم ، وتشرب الماء فى يوم ، ولكنهم كذبوا وقتلوا الناقة ، واستحقوا العذاب ، فأهلكهم الله العزيز القادر على المكذبين ، الرحيم بالمؤمنين .

التفسير :

١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ – كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

كذبت ثمود رسل الله أجمعين ، حين كذبت نبى الله صالحًا ، حين قال لهم صالح : ألا تتقون الله ، وتخافون عقابه ، إنى لكم رسول أمين ، ناصح لكم ، أدعوكم إلى توحيد الله ، ونبذ عبادة الأصنام ، وطاعة الله ورسوله ، فاتقوا الله وأطيعونى فيما أدعوكم إليه ، ولا أطلب منكم على تبليغ الرسالة أجرًا ولا مالاً ، فجزائى وأجرى عند الله الخالق الرازق رب العالمين ، وخالق الأكوان ، وهو إله عالم السماء وعالم الأرض، وعالم الفضاء وعالم الطير ، وعالم الحيوان وعالم الإنسان ، وعالم الجن ، وجميع العالمين .

وهذه الآيات بمضمونها تكررت فى قصص الأنبياء السابقين واللاحقين ، لأن القرآن بهذا يؤكد وحدة الرسالات فى الدعوة إلى توحيد الله ، ثم تميز كل رسالة بمعالجة خصائص مجتمعاتها .

١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ – أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ .

أتظنون أن تتركوا فى أنعم الله تتمتعون بها ، حال كونكم آمنين من بطشه وعقابه ، وقد حاول أن يلمس قلوبهم وأفئدتهم ، وأن يذكرهم بالنعم التى بين أيديهم ، من جنات وبساتين ، وعيون المياه الجارية،

والزروع النضرة والنخيل المثمر ، ذى الرطب الهضيم ، اللين اللطيف سهل الهضم ، وتنحتون من الجبال بيوتا حاذقين بطرين فى نحتها وبنائها ، مع البطر والأشر والفرح والتطاول ، أتظنون أن تتمتعوا بكل ذلك من ألوان النعم ، وأنتم كافرون بأنعم الله المتعددة ، التى ذكرت بعضها تذكيرًا لكم ، وتنبيهًا لأفئدتكم ؟!

١٥٠ - فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

فراقبوا الله وأقبلوا على طاعته ، وطاعة رسوله ، فهذه الطاعة هى التى تجمّلكم بالشكر ، وتجعلكم فيمن أحرز النعمة وقام بشكرها ، فاستحق التمكين فى الأرض ، والزيادة والسعادة فى الدنيا والآخرة .

١٥١ ، ١٥٢ - وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ .

أى : لا تتبعوا أمر السادة والقادة ، الذين يسرفون على أنفسهم فى اتباع الهوى والترف ، وينطلقون إلى الإفساد وارتكاب الموبقات ، ولا يصيخون السمع إلى الهداة والمصلحين .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ . (النمل : ٤٨) .

ونلحظ هنا أن القرآن قال : ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ .

لبيان أن فسادهم خالص ، ليس معه شيء من الصلاح ، على عكس حال بعض المفسدين ، المخلوطة أعمالهم ببعض الصلاح .

١٥٣ - قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ .

أى : لست إلا رجلا غلب السحر على عقله ، فأصبح يهذى بكلام المجانين [٣٨] .

١٥٤ - مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ .

أى : لست إلا رجلاً مثلنا ، تأكل الطعام وتشرب الماء مثلنا ، فكيف تميزت علينا بالرسالة ، فإن كنت صادقًا ، فَأْتِ بحجة تدل على صدقك .

وهكذا نجد أن البشرية فى تاريخها الطويل كذبت رسالة الرسل ، لأنهم بشر مثلهم ، وفى عهد النبى ﷺ استكثر كفار مكة عليه الوحى ، لأنه يعانى مثلهم ، فلماذا لا يعطيه الله أموالا كثيرة ، أو بساتين يتعيش من دخلها ، وما علموا أنها إرادة الله فى أن يكون الرسول بشرًا كسائر الناس ، يعيش مثلهم ، ويمارس الحياة والأكل والشرب والإخراج والنوم مثلهم ، حتى يكون قدوة عملية لهم .

وقد حكى القرآن كلام أهل مكة للنبى محمد ﷺ ، فقال : وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا . (الفرقان : ٧ ، ٨) .

والخلاصة : أنهم كذبوا نبيهم صالحًا ، واقترحوا عليه أن يأتى بمعجزة تدل على صدقه .

١٥٥ – قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ .

أى : هذه معجزة ماثلة أمامكم ، وهى ناقة تخرج من بين جبلين ، وكان لهم نهير صغير ، فاشترط نبى الله صالح أن يتركوا لها ماء النهر كله فى يوم ، تشرب ماء النهر فى الصباح ، ثم يحلبون منها لبنا يكفيهم جميعًا فى آخر النهار ، وفى اليوم التالى تترك لهم ماء النهر ولا تشرب منه .

قال تعالى : إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةُۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . (القمر : ٢٧ – ٣٢) .

ومع وضوح هذه الآية ، ودلالتها على صدق نبى الله صالح ، فإن الكفر معدنه جحود وكنود ، فقد قتلوا الناقة وعتوا عن أمر ربهم واستحقوا عقاب السماء ، قال تعالى : وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا . (الإسراء : ٥٩) .

١٥٦ – وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

لا تؤذوا هذه الناقة بضرب أو عقر ، فإنكم إن فعلتم ذلك أرسل الله عليكم عذابًا عظيمًا مهلكًا ، وسمّى العذاب عذاب يوم عظيم ، تسمية لليوم باسم ما وقع فيه ، وهو العذاب العظيم .

١٥٧ – فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ .

اعتدوا على الناقة ، وانطلق شقى من الأشقياء – هو قدار بن سالف – فعقرها ، والقوم راضون عن عمله ، لم يمنعوه ولم يأخذوا على يديه ، فاعتبروا مشاركين فى هذا العمل ، وقد ظهرت بوادر العذاب وعلاماته ، فأصبحوا نادمين خوفًا من حلول العذاب بهم ، لا توبة من ذنبهم ، أو تابوا عند معاينتهم العذاب ، حيث لا ينفع المتاب .

١٥٨ – فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ .

أرسل الله عليهم صاعقة فأهلكتهم ، كما قال سبحانه : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ . (فصلت : ١٧ ، ١٨) .

وقال سبحانه : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ * إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا . (الشمس : ١١ – ١٥) .

لقد عتوا وبغوا وطغوا وعقروا الناقة عتوًّا وكبرا ، فجاءهم العذاب المهين ، والهلاك المدمّر ليكون الجزاء من جنس العمل .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ... في ما ذكر من قصة ثمود من هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين .

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . حيث آمن القليل وكفر الكثير ، فنجى الله المؤمنين ، وأهلك الكافرين .

١٥٩ – وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ .

وإن الله هو الغالب القادر ، الفعال لما يريد ، وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقابل التوب من التائبين .

جاء في تفسير القرطبي ما يأتي :

يقال : إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانمائة رجل وامرأة ، وقيل : كانوا أربعة آلاف .

وقال كعب : كان قوم صالح اثنى عشر ألف قبيل ، كل قبيل نحو اثنى عشر ألفا ، سوى النساء والذرية، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات[٣٦] .

★ ★ ★

قصة لوط عليه السلام

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾

المفردات :

أخوهم : أى : فى البلد والسكنى ، لا فى الدِّين ولا فى النسب ، لأنه ابن أخى إبراهيم ، وهما من أرض بابل .

الذكران : واحدهم : ذكر ، ضد الأنثى من كل حيوان .

عادون : متعدّون الحدود التى رسمها العقل والشرع .

من المخرجين : ممن نخرجهم من أرضنا ، وننفيهم من قريتنا .

من القالين : المبغضين لفعلكم ، والقِلى : البغض الشديد ، كأنه يقلى الفؤاد ، يقال : قليته ، أقليه ، قلى وقلاء .

الغابرين : الباقين ، من غبر بالمكان ، غبورًا : أقام به ، وقد يستعمل الغبور بمعنى المضى والذهاب ، فهو فى الشىء وضده .

دمرنا : الدمور والدمار والتدمير : الإهلاك .

تمهيد :

هذه قصة لوط مع قومه ، ونبى الله لوط رحل من العراق إلى الشام مع عمّه إبراهيم الخليل ، واسمه لوط بن هاران بن آزر ، وقد بعثه الله إلى أمة عظيمة ، تسكن من قطاع الأردن سدوم وأعمالها ، التى أهلكها الله ، وهى عمورة وثلاث مدن أخرى ، وجعل مكانها بلاد الغور المتاخمة لجبال بيت المقدس ، فدعاهم إلى

عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم ، وأن يجتنبوا الفواحش والمثلية الجنسية ، وهى استغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء .

التفسير :

١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ – كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

تأتى هذه الآيات مماثلة لما سبق فى قصص موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح عليهم السلام ، ذلك أن رسالة الأنبياء واحدة فى جوهرها وأساسها ، وهى الدعوة إلى توحيد الله ، وإلى التحلّى بمكارم الأخلاق ، والتخلّى عن الرذائل ، مع الإيمان بالبعث والحساب والجزاء ، وفى هذه الآيات نجد أن قوم لوط كذبوا جميع المرسلين ، حين كذبوا نبيهم ، وأن نبيهم لوط دعاهم إلى تقوى الله وطاعته ، والخوف من عقابه ، وبيّن لهم أنه رسول من عند الله تعالى ، أمين على وحى السماء ، فعليهم مراقبة الله ، وطاعة رسوله، وهو لا يطلب منهم أجرًا ، إنما أجره على الله رب العالمين .

١٦٥ – أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

أتفعلون هذا المنكر وتلك الفاحشة ، التى لم يسبقكم إلى مثلها أحد من العالمين ، وهى جماع الرجل للرجل ، واستغناء الرجال بالرجال ، كأنّه لا توجد نساء أمامكم .

ونلحظ أن الفطرة السليمة تقتضى تعاون الذكر والأنثى ، من أجل استمرار الحياة وبقائها ، قال تعالى : **وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** . (الذاريات : ٤٩) . فالنبات أزواج ، والحيوان أزواج ، والإنسان أزواج ، والسحاب الممطر يتم تلقيح السالب فيه بالموجب ، والتكامل فى هذا الكون قائم على التعاون والتنوع ، والتناسق بين أجزائه ، قال تعالى : **تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** . (الفرقان : ٦١ ، ٦٢) .

والخلاصة : أن الزواج هو الوسيلة العملية لإشباع الفطرة ، واستمرار الحياة ، ورعاية النشء والذرية ، وأن جماع الرجل للرجل منكر مرفوض .

١٦٦ – وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ .

وتتركون الاستمتاع بالزوجات الحلال ، وتتركون الجماع فى مكان الحرث ، إلى الجماع فى الدُّبر ، وهذا عدوان منهم ومخالفة للفطرة السليمة ، واعتداء على ما أمر به العقل والشرع .

قال الزمخشرى :

مِّنْ أَزْوَاجِكُم : تبيين لما خلق الله ، أو للتبعيض ، ويراد بما خلق : العضو المباح منها ، فكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم .

وقال الشيخ أحمد المراغى ، فى تفسير المراغى :

أأنتم دون الناس جميعًا ، تفعلون هذه الفعلة الشنعاء ، تغشون الذكور وتتركون النساء ، اللاتى جعلهن الله حلالكم ، تستمتعون بهن ، ويستمتعن بكم .

١٦٧ – قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ .

لم يكن لوط من أهل سدوم ، بل رحل من أرض بابل بالعراق مع عمّه إبراهيم ، ثم أقام فى سدوم ، وأرسله الله رسولاً إلى أهلها ، فهددوه بالطرد من القرية ، وربما باحتباس أمواله ، شأن الظلمة المعتدين إذا غضبوا على شخص صادروا أمواله ، وكانوا بهذا يريدون إسكات فمه ، فلا يبشر برسالته ، وإسكات إنكاره وتشنيعه على ارتكابهم الفاحشة ، والاعتداء على الآخرين ، وقد وضح القرآن الكريم بعض آثامهم فقال : أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ... (العنكبوت . ٢٩) . فهم قوم مردوا على الآثام والعدوان ، والسلب والنهب ، وارتكاب الفاحشة بصورة لم تخطر ببال أحد ممن سبقهم .

١٦٨ – قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ .

أى : إنى من المبغضين لأعمالكم ، لا يهمنى وعيدكم ولا تهديدكم ، بل أجاهركم ببغض هذا السلوك الذى تسلكونه ، من قطع الطريق ، والاستيلاء على أموال السائرين ، والمجاهرة بالأفعال الشاذة ، وإتيان المنكر فى الجموع المحتشدة ، بدون حياء أو خجل .

١٦٩ – رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ .

أحس لوط بفطرته أنهم معتدون ، مستحقون لعقوبة السماء ، فسأل الله أن ينقذه منهم ، وأن يخرجه من بينهم .

١٧٠ ، ١٧١ – فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ .

استجاب الله دعاءه ، وأمرهُ الله أن يسير مع المؤمنين به ليلاً ، مهاجرًا هو والمؤمنين من هذه القرية، ولا يلتفت منهم أحد حتى لا يرى العقوبة التى ستنزل بهم ، لكن زوجته المسنة المنافقة ستكون مع الكافرين، وستهلك معهم .

قال تعالى : قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ . (هود : ٨١ – ٨٣) .

١٧٢ – ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ .

أهلكناهم عقوبة على أفعالهم بالخسف والحصب، أى: خسف الله بهم الأرض ، وأرسل عليهم الحجارة .

قال مقاتل : خسف الله بقوم لوط ، وأرسل الحجارة على من كان خارجًا من القرية .

١٧٣ – وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ .

قال قتادة : أمطرنا على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكتهم .

وقال وهب بن منبه : أنزل الله عليهم الكبريت والنار ، أى : فجر الله فيها البراكين النارية .

والخلاصة : أن عقابهم كان زلزالاً شديدًا ، جعل بلادهم عاليها سافلها ، وكان مصحوبا بكبريت ونار وحجارة من السماء ، فأحرقت قراهم ، كما قال تعالى : فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . (هود : ٨٢) .

قال فى ظلال القرآن :

قيل : خسفت قراهم وغطاها الماء ، ومنها قرية سدوم ، ويظن أنها ثاوية تحت البحر الميت فى الأردن . وبعض علماء طبقات الأرض ، يؤكدون أن البحر الميت ، يغمر مدنا كانت آهلة بالسكان ، وقد كشف بعض رجال الآثار بقايا حصن بجوار البحر ، وبجوار المذبح الذى كانت تقدم عليه القرابين .

١٧٤ ، ١٧٥ – إِنَّ فِى ذَ ٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ .

فى هلاك الكافرين ، ونجاة لوط ومن معه من المؤمنين ، آية ملموسة ، ودليل على أن الجزاء الحق من جنس العمل .

وجاء فى تفسير المراغى لصاحبه الأستاذ أحمد مصطفى المراغى ، خاتمة تؤيد أن هذه القصة تاريخية ، ويؤكد ذلك بما كتبه الباحثون فقال : كتبت مجلة السياسة الأسبوعية فصلاً قالت فيه : روت الكتب المنزلة : أن الله أهلك مدينتى سدوم وعمورة ، وثلاث مدن أخرى بجوارهما ، بأن أمطر عليهم نارًا وكبريتا

من السماء ، فلم ينج من سكانها سوى إبراهيم الخليل وأهل بيته ، ولوط وابنتيه ، ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن ، بل نزح إليها من الشمال طلبًا للكلأ والمرعى ، بحسب عادة القبائل الرحل فى ذلك الزمن[٤٠] .

★ ★ ★

قصة شعيب عليه السلام مع قومه

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

المفردات :

الأيكة : غيضة كثيرة الشجر قرب مدين ، بعث الله إلى أُهلها شعيبا ، كما بعثه إلى أهل مدين ، وكان نسب شعيب فى أهل مدين ، ولم يكن من أصحاب الأيكة نسبًا .

من المخسرين : المطففين الآخذين من الناس أكثر مما لهم .

القسطاس : الميزان .

المستقيم : العدل .

ولا تعثوا : ولا تفسدوا .

الجبلّة : «بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، ويضمهما وتشديد اللام» ، الخِلقة والطبيعة .

الأولين : الناس من قبلكم .

كسفا : واحدها : كسفة ، كقطعة (وزنا ومعنى) .

الـــظـلـــــة : السحابة التى أظلتهم ، ثم التهبت عليهم نـارًا .

لآيـــــــــة : لعبرة وعلامة دالة على صدق الرسول ﷺ .

تمهيد :

هذه هى القصة السابعة فى هذه السورة ، التى وردت باختصار نسبى لتسلية الرسول ﷺ ، وتشجيعه على تحمل أذى المشركين ، وتدريبه على الصبر ، وبيان عاقبة المكذبين ، حتى يرتدع كفار مكة ، بما أصاب المكذبين من قوم فرعون حين كذبوا موسى ، وقوم إبراهيم وقوم نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح، وقوم لوط ، وأخيرًا أصحاب الأيكة قوم شعيب ، وقد كانوا أصحاب غيضة وشجر وثمر ، وكانوا يطففون الكيل والميزان ، ويفسدون فى الأرض ، ويبدو أنهم كانوا فى طريق القوافل بين الجزيرة العربية وفلسطين، وهذه القوافل فى حاجة إلى التعامل معهم ، لكنهم كانوا يعطون القليل ، ويطففون الكيل ، ويفسدون فى الأرض، فنصحهم شعيب بالاستقامة ، ووفاء الكيل وإعطاء الحق ، ودعاهم إلى توحيد الله ، فكفروا بالله ، وجحدوا نبوة شعيب ، وقد استمر شعيب فى نصحهم وتوضيح شبهتهم ، وشرح رسالته إليهم ، حتى ألزمهم الحجة.

وفى قصة شعيب فى سورة هود نجد تفصيلا وتوضيحا لما قدمه هذا الرسول إلى قومه ، حتى قال ﷺ : «يأتى شعيب يوم القيامة خطيبًا للأنبياء» .

التفسير :

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ - كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

أكثر المفسرين على أن أصحاب الأيكة ، هم قوم لهم أشجار وزروع بجوار مدين ، وأن أصحاب الأيكة هم ضاحية من ضواحى مدين .

قال ابن كثير : أصحاب الأيكة : هم أصحاب مدين على الصحيح .

ويرى بعض المفسرين أن شعيبًا كان من أهل مدين ، وقد أُرسل رسولاً إلى أهل مدين ، وأُرسل أيضًا إلى أصحاب الأيكة ، ولم يكن أخاهم فى النسب ، فهما جهتان ، وقد دعاهم شعيب إلى الإيمان بالله تعالى ، ومراقبته وتقواه وطاعته ، وأخبرهم أنه رسول لهم من عند الله ، وهو لا يطلب منهم أجرًا على تبليغ الرسالة ، وإنما أجره وجزاؤه على الله رب العالمين ، لكنهم كذبوه ولم يؤمنوا به .

١٨١ ، ١٨٢ – أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ .

أُرسل كل رسول إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله ، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واختص كل رسول بمعالجة عيوب المجتمع ، فقد حارب لوط المثلية الجنسية ، وهنا يحارب شعيب تطفيف الكيل والميزان ، وكان القوم معروفين بتطفيف الكيل والميزان ، والاستيلاء قسرًا وغصبا على ما يزيد عن حقهم ، وإعطاء الناس أقل من حقهم ، ويشترون بثمن بخس ، ويبيعون بثمن مرتفع ، ويبدو أنهم كانوا فى ممر قوافل التجارة ، فكانوا يتحكمون فيها ، وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط فى هذا كله ، وفى هذا المعنى وردت آيات كثيرة ، تحث على العدل والوفاء وأداء الأمانة ، وعدم تطفيف الكيل والميزان ، قال تعالى: وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ . (المطففين :١ – ٣) .

وقد وردت قصة شعيب مع قومه فى الآيات ٨٥ – ٩٣ من سورة الأعراف ، وفى الآيات ٨٤ – ٩٥ من سورة هود ، وفيها نجد هؤلاء الناس متكبرين متجبرين ، مفسدين فى الأرض ، مطففين للكيل والميزان ، رافضين لهداية السماء ، وفى نهاية القصة نجى الله شعيبا والذين آمنوا معه ، وأهلك المكذبين هلاكًا مدمرًا ، فأصبحوا أثرًا بعد عين .

١٨٣ – وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

ولا تنقصوا الناس من حقوقهم ، سواء أكانت مادية أم معنوية ، كالحفاظ على الكرامة والعرض .

قال الرازى : وهذا عام فى كل حق يثبت لأحد ألَّا يُهضم ، وفى كل ملك ألا يُغصب مالكه ، ولا يُتصرف فيه إلا بإذنه تصرفا شرعيا .

وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

لا تبالغوا فى الإفساد فى الأرض ، بقطع الطريق والقتل والسلب وإهلاك الزرع ، وغير ذلك من أنواع الفساد التى كانوا يفعلونها .

١٨٤ – وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ .

راقبوا الله الذى خلقكم ، وخلق الأجيال الكثيرة قبلكم من عهد آدم ، وقد أهلك الضالين ، وأعز المؤمنين ، فراقبوه وابتعدوا عن طاعة الشيطان ، فهو الذى أغوى الضالين ، وتسبب فى هلاكهم .

قال تعالى : وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ . (يس. ٦٢) .

١٨٥ ، ١٨٦ - قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ .

قدّم إليهم شعيب دعوته إلى توحيد الله ، ونهاهم عن الرذائل ، ثم بيّن لهم قدرة الإله الخالق ، رغبة في استمالتهم وتحريك الإيمان في قلوبهم ، فكان جوابهم متضمنا ما يأتي :

١ - اتهامه بالسحر والجنون ، وهذا يبعد الثقة فيما يقول .

٢ - هو بشر مثلهم ، فلماذا يتفضل عليهم بالنبوة ؟

٣ - تأكيد كذبه في دعوى النبوة ، أو تهديدهم بالعذاب .

١٨٧ - فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ .

أي : إن كنت صادقًا في دعوى الرسالة ، أو في وعيدك لنا بالعذاب ، فأنزل علينا قطعًا من السحاب فيها نوازل العذاب ، وهذا شبيه بقول كفار مكة للنبي ﷺ : وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا . (الإسراء : ٩٠)

إلى أن قالوا : أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلاً . (الإسراء : ٩٢) .

وقوله تعالى : وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ... (الأنفال : ٣٢).

قال القرطبي :

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ...

أي : جانبًا من السماء وقطعة منها فننظر إليها ، كما قال : وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ . (الطور : ٤٤).

وقيل : أرادوا : أنزل علينا العذاب ، وهو مبالغة في التكذيب .

قال أبو عبيدة : الكِسْف : جمع كسفة ، مثل : سِدر وسدرة . وقرأ السلمي وحفص : (كِسَفاً) جمع كسفة أيضا ، وهي القطعة والجانب ، تقديره : كسرة وكِسر .

قال الجوهري : الكِسفة : القطعة من الشيء؛ يقال : أعطني كسفة من ثوبك، والجمع : كِسَفٌ وكِسْف، ويقال : الكِسْف والكسفة واحد[٤١] .

١٨٨ - قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .

الله هو المحاسب والمجازى والمطلع على أعمالكم ، فإن كنتم تستحقون العذاب فسينزله بكم ، فى الوقت الذى يشاء وكيف يشاء ، فلا رادّ لأمره، ولا معقب لإرادته، أما أنا فما علىَّ إلا البلاغ، وليس بيدى نزول العذاب بكم .

١٨٩ - فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

أى : كذبوا شعيبا، فبعث الله عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم، فخرجوا منها هربا إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس – وهى الظلّة – فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضا ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم ناراً فأهلكتهم جميعا [٤٢] .

إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

إن هذا العذاب شديد الهول، عظيم الوقع ، أدّى إلى الهلاك والإفناء .

١٩٠ - إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ .

أى : فى هذه القصة عبرة وعظة، وكذلك فيما سبقها من قصص موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط، عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وما كان أكثر قريش مؤمنين، أو ما كان أكثر قوم شعيب مؤمنين .

وقد نقل القرطبى فى تفسيره أنه لم يؤمن من قوم شعيب سوى تسعمائة نفر، والله أعلم بصحة ذلك.

١٩١ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ .

وإن ربك – يا محمد – لهو العزيز القادر على الانتقام من الكافرين . ٱلرَّحِيمُ . بعباده المؤمنين .

خاتمة

تحدث القرآن عن قوم شعيب فى سورة الأعراف ، فذكر أنهم هددوا شعيبا ومن آمن معه ؛ فعاقبهم الله بالرجفة ، قال تعالى : فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ . (الأعراف ٩١) .

وفى سورة هود استهزءوا بنبى الله شعيب فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم .

قال تعالى : وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ . (هود : ٩٤) .

وهنا قالوا : فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ...

فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . (الشعراء : ١٨٩) .

ونلاحظ أن العذاب يمرّ بمراحل متعددة ، فترتجف الأرض تحت أقدامهم، ويصيح بهم الملك صيحة تهلكهم، أو ينزل عليهم ناراً من الظلة تهلكهم، فهى ألوان من العذاب تنزل بهم ، وتنتهى بهلاكهم عقابا عادلا من الله تعالى على تكذيبهم .

★ ★ ★

القرآن الكريم

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾

المفردات :

الروح الأمين : جبريل عليه السلام ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين وحيه تعالى وموصله إلى من شاء من عباده .

على قلبك : على روحك ، لأن الروح هى المدركة المكلفة دون الجسد .

الــــزبــــر : الكتب ، واحدها . زبرة ، كصحف وصفحة .

آيـــــــــة : الدليل والبرهان والعلامة .

الأعــجــمــيــن : واحدهم : أعجمى ، وهو من لا يقدر على التكلم بالعربية .

ســلــكــنــاه : أدخلناه (أى : التكذيب) فى قلوب المجرمين ، من كفار مكة .

مــنــظــرون : موخرون لنؤمن ، والجواب : لا .

أفــــــرأيت : أخبرنى .

إن متعناهم سنين : أبقينا على حياتهم يأكلون ويشربون وينكحون .

ما كانوا يوعدون : من العذاب .

مــنـــذرون : رسل ينذرون أهلها عاقبة الكفر والشرك .

ذكـــــــرى : عظة وعبرة لغيرهم .

وما ينبغى لهم : وما يتيسر ولا يتسنى لهم .

وما يستطيعون : وما يقدرون على ذلك .

لمعــزولــون : لممنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكنين .

تمهيد :

بدأت سورة الشعراء بمقدمة عن الرسول ﷺ ، وحرصه على هداية قومه ، مع إعراضهم عن سماع القرآن الكريم ، وتكذيبهم للرسول الأمين ، ثم ساقت السورة سبع قصص ، لسبعة من رسل الله الكرام ، دعوا أقوامهم إلى توحيد الله ، وأنذروهم بطشه وشدة عذابه ، لكن الكافرين لم يؤمنوا فاستحقوا العذاب ، أى : وكذلك أهل مكة ، أهلٌ لأن ينالهم عذاب الله ، بسبب تكذيبهم لرسوله محمد ﷺ ، وفى نهاية القصص عود إلى الحديث عن القرآن الكريم ، فهو وحى السماء ، نزل به جبريل الأمين ، على فؤاد النبى محمد ﷺ ، ليكون من الرسل المنذرين لقومهم ، وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين ، وتحدثت عنه التوراة والإنجيل ، وبشر به موسى وعيسى ، ولو نزل القرآن على رجل أعجمى ، فقرأه عليهم بلغتهم ، ما آمنوا مع هذه المعجزة البينة ، لأن التكذيب قد استقر فى قلوبهم ، كما استقر فى قلوب المجرمين المكذبين قبلهم .

التفسير :

١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ - وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ .

إن القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى ، وليس فيه سحر ولا كهانة ولا اختراع بشر ، وقد نزل به جبريل وهو الروح الأمين ، فهو أمين على وحى السماء ، فقد نزل بكتب الله على رسله ، قال تعالى : مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . (التكوير : ٢١) . أى : إنه مطاع فى ملائكة السماء ، وهو أيضًا أمين على وحى الله .

عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ .

تنزل بالوحى على روحك وقلبك ، لتستوعبه وتحفظه وتفهمه ، ثم تنذر به الآخرين .

وخصَّ القلب ، لأنه محل النظر من الله ، ولأن القلب هو الذى يدير الجسم ، فإذا نشط فى العبادة نشطت الأعضاء .

قال الشاعر :

وإذا حلّت الهداية قلبًا نشطت فى العبادة الأعضاء

ويقول الآخر :

وإذا كان القلب أعمى عن الرشـ ـد فماذا تفيده العينان

وروى البخارى ، ومسلم : أن رسول الله ﷺ قال : «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ، ألا وهى القلب»[٤٣] .

وقال تعالى : إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ... (ق : ٣٧) .

وقال تعالى : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ . (الحج : ٤٦) .

فالنبى ﷺ قد استوعب القرآن بقلبه ، وحفظه وفهمه ، وبلّغه إلى أمته وإلى الناس .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا . (الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) .

بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ .

فقد نزل القرآن بلغة العرب ، واضحًا مبينًا ميسرًا ، وفى هذا دعوة للعرب أن يستوعبوه ويفهموه، ويؤمنوا به ويعملوا به ، ويبشروا به عباد الله .

قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... (الشورى : ٧) .

وقال تعالى : وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

وفى هذه الآيات تحدث القرآن عن مُنزِل الكتاب ، وهو رب العالمين ، وعن الذى نزل به وهو جبريل الأمين ، وعن المنْزَّل عليه وهو قلب محمد ﷺ ، وعن المبعوث إليهم وهم العرب المنذَرون ، وعن اللسان الذى نزل به القرآن ، وهو اللسان العربى المبين ، وعن أدلة صدقه ، وهى بشارة التوراة والإنجيل به .

١٩٦ - وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ .

أى : إن كتب الأمم السابقة بشرت بالقرآن ، وبالرسول محمد ﷺ .

قال تعالى : ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ... (الأعراف : ١٥٧) .

وقال تعالى : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ . (الصف : ٦) .

١٩٧ - أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً [٤٤] أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ .

أجهل أهل مكة وغفلوا ولم يكن لهم علامة على صدق القرآن ، وصدق محمد ﷺ أن علماء بنى إسرائيل بشرت بهذا النبى ، فقد كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وقد بشر بالنبى ﷺ العدول من بنى إسرائيل، مثل عبدالله بن سلام وسلمان الفارسى ، وغيرهما ممن كان له علم بكتب أهل الكتاب أسلم أو لم يسلم .

قال القرطبى : إنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين ، لأنهم كانوا يرجعون فى أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب ، لأنهم مظنون بهم علمًا .

جاء فى «البحر المحيط» عن ابن عباس : أن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبى ﷺ، فقالوا : هذا أوانه ، وذكروا نعته ، وهذا يدل دلالة واضحة على نبوته ﷺ ، لأن تطابق الكتب الإلهية ، على إيراد نعته ووصفه يدل قطعا على نبوته .

١٩٨ ، ١٩٩ - وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۞ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ .

أى : لو نزل هذا القرآن على رجل أعجمى ، لا ينطق العربية ولا يستطيع نظمها ، ثم أنزلنا عليه القرآن ، وقرأه عليهم بلغتهم ، مع وجود الحجة الظاهرة على أنه من عند الله ما آمنوا ؛ لأن التكذيب غالب عليهم ، فسواء أنزلنا الكتاب على النبى محمد الذى يعرفون صدقه ، والذى بشرت به التوراة والإنجيل ، أو أنزلناه فرضًا على رجل أعجمى ، يتأكدون بالدليل أنه ليس من تأليفه ما آمنوا ؛ لأن الجحود فى جبلتهم ، كما قال تعالى : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

أى : هوِّن على نفسك يا محمد ، فأنت لم تقصر فى عرض الدعوة ، ولا فى بيان القرآن ، إنما كفار مكة هم الذين طبعوا على العناد والإعراض عن الحق . قال تعالى : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ . (الحجر : ١٤ ، ١٥) .

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ - كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۞ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ .

تشير هذه الآيات ، إلى تمكن التكذيب فى قلوب الكافرين من أهل مكة ، وفى قلوب من سبقوهم من المشركين ، فلا تأس عليهم يا محمد ؛ لأن الجحود والعناد ثابت فى جبلتهم ، وفى قلوب من سبقوهم من المشركين ، وقريب من ذلك قوله تعالى : وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . (هود : ٣٦) .

قال فى ظلال القرآن :

والتعبير يرسم صورة حية لملازمة التكذيب لهم ، فيقول : إنه على هذه الهيئة ، هيئة عدم الإيمان ، والتكذيب بالقرآن ، على هذه الهيئة نظمناه فى قلوبهم وأجريناه ، فهو لا يجرى فيها إلا مكذبًا به ، ويظل على هيئته هذه فى قلوبهم ، حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ .

فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

وقد بقى بعضهم فعلاً على هذا الوضع ، حتى فارق هذه الأرض بالقتل أو الموت ، ومن ثم إلى العذاب الأليم[٤٥] .

وخلاصة المعنى :

لقد تمكن التكذيب فى قلوب أهل مكة ، كما تمكن فى قلوب الأمم التى كذبت أنبياءها ، كقوم نوح ومن بعدهم ، فكيفما فعل بهم، وعلى أى وجه دبّر أمرهم، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحود وإنكار، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ . لا يصدقون بالقرآن ، بل يستمرون على ما هم عليه ، حتى يعاينوا العذاب.

قال تعالى : وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . (الأنعام : ٧)

فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

ينزل بهم العذاب فجأة وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . قبل ذلك بمجيئه حتى يفجأهم .

فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ .

فيقولون على وجه التحسر والأسف ، والتمنى للإمهال ، هل نؤخر إلى حين ؟ وهل يؤجل هلاكنا حتى نؤمن ونتدارك ما فاتنا ؟

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . (النساء : ١٨) .

وقوله تعالى : وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ . (المنافقون : ١٠ ، ١١) .

٢٠٤ - أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ .

كان أهل مكة فى غنى ومكانة ووجاهة ، وكانت لهم تجارة رابحة تتحرك إلى الشام صيفا وإلى اليمن شتاءً ، وكان الأمل أن تتحرك النعمة من بطونهم إلى عقولهم حتى يفكروا ويتأملوا ، لكنهم أبطرتهم النعمة ، وسيطر عليهم الأشر والبطر ، واستخفوا بهدايات السماء ، وكان النبى ﷺ إذا خوّفهم عقوبة الله ، قالوا له على سبيل الاستهزاء : متى ينزل بنا هذا العذاب ؟

وقد سبق فى سورة الشعراء قول قوم شعيب : فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . (الشعراء : ١٨٧)

كما حكى القرآن عن كفار مكة أنهم تعجلوا نزول العذاب : وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

٢٠٥ . ٢٠٦ ، ٢٠٧ - أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ.

أى : أخبرنى أيها العاقل عن هؤلاء الكفار ، لو استجبنا إلى مطالبهم وتركناهم فى الدنيا سنين عددًا، يأكلون ويشربون وينسلون ويتمتعون ، ثم نزل بهم العذاب ، هل ينفعهم أو يغنى عنهم ما كانوا فيه من متاع الدنيا ؟ .

إن ذلك لن يغنى عنهم شيئًا فى دفع العذاب أو تخفيفه ، وإنما هم خالدون فى النار أبد الآبدين .

والخلاصة : إن طول التمتع ليس بدافع شيئًا من عذاب الله ، إذا حلَّ بهم ، وكأنهم لم يُمتعوا بنعيم قط .

كما قال تعالى : كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا . (النازعات : ٤٦) .

وقال سبحانه : يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ . (البقرة : ٩٦) .

وقال تعالى : وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ . (الليل : ١١) .

قال الإمام ابن كثير : وفى الحديث الصحيح : «يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيرًا قط ؟ هل رأيت نعيمًا قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤسًا كان فى الدنيا ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسًا قط ؟ فيقول : لا والله يا رب»[٤٦] .

ولهذا كان عمر بن الخطاب يتمثل بهذا البيت :

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة ... إذا أنت أدركت الذى كنت تطلب

وروى القرطبى ، عن الزهرى : أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ، ثم قرأ : أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ . ثم يبكى ويقول :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازمُ

فلا أنت فى الأيقاظ يقظانُ حازمٌ ... ولا أنت فى النُّوَّام ناجٍ فسالمُ

تُسرُّ بما يفنى وتفرحُ بالمُنَى ... كما سُرَّ باللذاتِ فى النوم حالمُ

وتسعى إلى ما سوف تكرهُ غبَّهُ ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائمُ

وروى عن ميمون بن مهران أنه لقى الحسن – رضى الله عنه – فى الطواف ، وكان يتمنى لقاءه ، فقال له : عظنى ، فلم يزد على تلاوة هذه الآيات : أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ . فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت .

٢٠٨ ، ٢٠٩ – وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ(٤٧) **وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ .**

شاءت حكمة الله تعالى ألا يهلك قرية من قرى الظالمين الذين كذبوا أنبياءهم ، والذين ذكر سبعة منهم فى هذه السورة ، إلا بعد أن يرسل إليهم الرسل يدعونهم إلى التوحيد ، وينصحونهم بطاعة الله، وينذرونهم عذاب الله إذا خالفوا ، وذلك تذكرة لهم وتنبيهًا وإرشادًا ، وليس من شأنه تعالى أن يظلم الناس، أو يهلكهم قبل أن يُعذر إليهم ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم مثل : وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

وقوله تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً . (الإسراء : ١٥) .

وقوله سبحانه : وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ . (القصص : ٥٩) .

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ – وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ.

أفاد القرآن فيما سبق أنه من عند الله رب العالمين ، وقد نزل به الروح الأمين ، وكانت العرب تدعى أن لمحمد ﷺ تابعًا من الجن يخبره بالقرآن ، وهنا ردّ عليهم مبينا ضلال هذه الفكرة ، فقال :

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ .

فالشياطين لم تنزل بهذا القرآن ، لأن طبيعة الشياطين شريرة عابثة ، تدعو إلى الشر ، وتحرّض على الإثم ، وهذا القرآن هداية ونور ، ودعوة إلى الإيمان ، ومكارم الأخلاق .

قال ابن كثير :

ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه ما ينبغى لهم ، لأن سجاياهم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه نور وهدى وبرهان عظيم .

الثانى : أنه لو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، وهذا من حفظ الله لكتابه ، وتأييده لشرعه فهو أعلم حيث يجعل رسالته .

الثالث : أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن ، لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا ، فلم يخلص أحد من الشياطين لاستماع حرف واحد منه ، لئلا يشتبه الأمر . ا هـ .

إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ .

أى : حفظ الله السماء من الشياطين ، حيث كانوا يصفّون بعضهم فوق بعض ، وآخر جنّى يتسمع كلام الملائكة ، مثل : قضى الليلة بموت فلان ، أو بسعادة فلان ، ثم ينزل فيخبر بها الكهان ، ثم يكذب الكاهن معها مائة كذبة ، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ شددت الحراسة على السماء ، فمن حاول استماع أخبار السماء أصابه شهاب فقتله أو خبله ، وقد ورد هذا المعنى فى سورة الجن ، قال تعالى : وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا . (الجن : ٩) .

وقال عز شأنه : إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . (الصافات : ٦ – ١٠) .

قال النيسابورى :

إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ .

وذلك بواسطة رجم الشهب ، لما أخبر عنه الصادق ، والمعجزات يتساند بعضها ببعض ، ولو فرض أنهم غير مرجومين بالشهب ، فالعقل يدل على أن الاهتمام بشأن الصديق أقوى منه بشأن العدوّ ، وكان محمد ﷺ يلعن الشياطين ، ويأمر الناس بلعنهم ، فلو كان الغيب بإلقاء الشياطين ، لكان الكفار أولى بأن يحصل لهم ذلك . ا هـ .

* * *

دعائم التوحيد

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

المفردات :

عشيرتك : العشيرة : القبيلة ، والجمع : عشيرات وعشائر ، والمراد بها : قريش ، وقيل : عبد مناف .

جناحك : الجناح : اليد والعضد والإبط والجانب ، وهو المراد هنا ، أى : ألن جانبك .

حين تقوم : إلى الصلاة ، أو حيثما كنت .

وتقلبك فى الساجدين : المراد بالساجدين : المصلُّون ، أى : ويرى تصرفك وتغيرك من حال – كالجلوس – إلى حال – كالقيام – بين المصلين إذا أممتهم .

التفسير :

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ – **فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ * وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ * وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ .**

أى : أخلص العبادة لله وحده، وتوجّه إليه بعبادتك وصلاتك ودعائك ؛ فإنه سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك ، ومن عمل عملا يريد به الناس، لم يلق عليه الثواب يوم القيامة ، والخطاب فى هذه الآية للرسول ﷺ والمراد أمته، فهو من باب خطاب الأمة فى شخص زعيمها ورئيسها ، أو الخطاب لكل من يتأتى منه الخطاب سواء أكان رسولا أم مرسلا إليه .

وتحقيق المراد هنا :

أى : إذا كان الرسول الأمين إذا دعا مع الله إلها آخر ؛ عُذِّب وعوقب، فمن باب أولى من عداه من الناس، وليعلم الجميع أن الله سبحانه لا يقبل الشرك من أحد؛ قال تعالى : **وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ** . (البينة : ٥) .

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ .

أرسل الله محمداً ﷺ بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فوظيفته البلاغ وإعلام الناس بالرسالة ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ... (المائدة: ٦٧) .

وفى هذه الآية يكلفه الله تعالى أن يبلغ أسرته القريبة النسب منه ؛ فهم أولى بأن يخصهم بدعوته، وأن يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ، وأن يرشدهم إلى عدالة السماء ؛ فالخلق كلهم عباد الله، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون عنده بالتقوى ويدركون ثوابه بالعمل الصالح، وقد وردت أحاديث صحيحة متعددة تفيد أن النبى ﷺ دعا عشيرته دعوة للعام والخاص ، وأعلن هذه الدعوة لكل العشيرة ، وخصص أقرب الناس إليه، حتى لا يتكل أى إنسان على الحسب أو قرابة النسب ، بل عليه أن يقوم بالواجب نحو ربه ودينه ، وذلك بالإخلاص والعمل الصالح .

روى البخارى ، ومسلم وغيرهما ، عن أبى هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ؛ دعا رسول الله ﷺ قريشا وعمّ وخص ، فقال: «يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضراً ولا نفعا، يا معشر بنى كعب بن لؤى ، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم ضراً ولا نفعا ، يا معشر بنى قصىّ ، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، يا معشر بنى عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنى لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا معشر بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضراً ولا نفعا، يا فاطمة بنت محمد ، أنقذى نفسك من النار، فإنى لا أملك لك ضراً ولا نفعاً، ألا إن لكم رحماً وسأبلُّها ببلالها». يريد : أصلكم فى الدنيا ، ولا أغنى عنكم من الله شيئًا[٤٨] .

إن هذا هو الإسلام فى نصاعته ووضوحه، ونفى الوساطة بين الله وعباده ، حتى عن رسوله الكريم، وقريب من ذلك قصة نوح مع ابنه حين غرق مع الكافرين ، وحاول نوح الشفاعة له، فبين الله أنه لا قرابة ولا نسب بالنسبة للعدالة الإلهية ، التى تكافئ الصالح وتعاقب الطالح .

وقد وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وكذلك زوجة نوح وزوجة لوط ، خانتا الأمانة، فقيل لهما : ادخلا النار مع الداخلين ، وزوجة فرعون آمنت بالله، وأخلصت له وتبرأت من فرعون وعمله، فجعلها الله مثلا أعلى للمؤمنين .

هذه أمثلة توضح عدالة السماء، التى جعلت الجزاء من جنس العمل .

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ . (فصلت : ٤٦) .

وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ .

ألن جانبك، وارفق بأتباعك الذين آمنوا بك وصدقوك، فذلك أطيب لقلوبهم، وأدعى إلى قبول الدعوة، واستمرار تأثيرها، وكذلك كان ﷺ ، سهلا مألفا محببا متعه الله بمكارم الأخلاق ، حيث قال له الله تعالى : وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . (القلم : ٤) .

وقال تعالى : فَبِمَا رَحۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ . (آل عمران . ١٥٩) .

وقال ﷺ : «إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون»(٤٩) .

وسئلت عائشة رضى الله عنها ، عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن(٥٠) .

أى : كان تطبيقا عمليا لآداب القرآن الكريم ، وسلوكه وأخلاقه ، فهو صاحب الصفح الجميل والعفو الجميل ، والحلم الجميل ﷺ .

فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ .

أى : إن عصاك أحد ممن أنذرتهم من العشيرة فلا ضير عليك ، وقد أديت ما أمرت به ، وما عليك إثم مما يعملون ، وقل لهم : إنى برىء منكم ، ومن عبادتكم الأصنام والأوثان ، وإنكم ستجزون بجرمكم يوم الجزاء.

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ . (الشعراء : ٨٨ ، ٨٩) .

٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ – وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ .

تأتى هذه الآيات إيناسا وقربا للرسول ﷺ ، فتأمره أن يفوض أمره إلى الله ، متوكلاً عليه بعد الأخذ بالأسباب، فهو العلى القدير. وهو العزيز الغالب، الرحيم بعباده المؤمنين، وهو سبحانه يراك – يا محمد – حين تقوم من الليل ، متنفلاً أو مصلياً ملتزماً بدعوة القرآن لك إلى التهجد ، حيث قال تعالى : وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ ... (الإسراء : ٧٩) .

وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ .

انتقالك من القيام إلى الركوع إلى السجود ، أو عنايتك بالصحابة وتفقد أحوالهم ، وتنظيم صفوفهم فى الصلاة ، إلى غير ذلك مما هم فى حاجة إليه من إرشاد وتعليم .

وعبر عن المصلين بالساجدين : لأن العبد أقرب ما يكون من ربّه وهو ساجد ، فهذا التعبير من باب التشريف والتكريم لهم .

٢٢٠ - إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

إنه سبحانه سميع لجميع العباد بجميع اللغات ، عليم بكل ما يحدث فى هذا الكون ، عليم بأفعال عباده وحركاتهم وسكناتهم ، قال تعالى : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ... (يونس : ٦١) .

وقصارى ذلك ، أنه هو القادر على نفعكم وضركم ، فهو الذى يجب أن تتوكلوا عليه ، وهو الذى يكفيكم ما أهمكم .

★ ★ ★

الشياطين والكهان

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

المفردات :

أنبئكم : أخبركم .

أفاك : كثير الإفك والكذب .

أثيم : كثير الذنوب والفجور .

يلقون السمع : يصغون أشد الإصغاء إلى الشياطين ، فيتلقون منهم ما يتلقون مما أكثره الكذب .

الغاوون : الضالون المائلون عن السنن القويم .

الوادى : الشّعب ، والمراد : الذهاب فى مذاهب كثيرة ، من مدح الشىء ، وهجائه ، وذمه ، إلى غير ذلك.

يهيمون : يسيرون سير البهائم حائرين ، لايهتدون إلى شىء .

المنقلب : المرجع .

تمهيد :

كانت للكهان منزلة عالية فى الجاهلية ، ولهم سجع وتنبؤ بأخبار المستقبل ، ولما أرسل الله محمدًا ﷺ ، وشاهدوا القرآن وبلاغته وسحره وأسره ، استبعدوا أن يكون هذا القرآن من كلام بشر ، فادعوا أن الشياطين تتنزل على محمد فتلقى عليه هذا الكلام ، كما تلقى على الكهان ، وهنا يوضح القرآن أن الشياطين مردة ، منهجهم الإغراء بالشر ، والنزول على الكهان الكذابين ، فكلاهما من فصيلة واحدة ، أما القرآن فمنهجه الدعوة إلى الحق والعدل والإيمان ، ومحمد ﷺ معروف أنه صادق أمين .

التفسير :

٢٢١ - هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ .

أى : قل يا محمد لكفار مكة : هل أخبركم على من تتنزل الشياطين ؟ وهذا ردُّ عليهم حين ادعوا أن الذى يأتى محمدًا بالقرآن تابع من الجن .

٢٢٢ - تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ .

أى : تنزل الشياطين على كل أَفَّاكٍ . مبالغ فى الكذب ، متصف بالكذب الكثير ، أَثِيمٍ . فاجر مبالغ فى الكذب والبهتان ، لا على سيد ولد عدنان ، أى : إن الشياطين إنما تنزل على فئة تحترف الكهانة ، ومعرفة الغيب من الفسقة الفجرة ، أمثال : سطيح ، وطليحة ، ومسيلمة ، فلا تنزل الشياطين إلا على مثلهم .

أما القرآن فملائكة الله المقربون هى التى تنزلت به على محمد ، كما قال تعالى : وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . (الشعراء . ١٩٢ - ١٩٤) .

وقد ورد فى صحيح البخارى ، وصحيح مسلم وغيرهما : أن الشياطين من الجن كانت ترصّ بعضها فوق بعض ، حتى يستمع آخرهم إلى أخبار السماء ، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ شُدّت الحراسة على السماء ، وكان الجنّى الأخير يلقى بهذه الأخبار لمن تحته ، وهكذا ... ثم يحملها الأخير إلى الكاهن ، فيخبر الكاهن بها الناس ، ويكذب معها مائة كذبة ، فإذا قالوا له : إن أخبارك لم تتحقق . يقول الكاهن : ألم أخبركم بخبر كذا يوم كذا وقد تحقق ؟ .

٢٢٣ - يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ .

أى : إن الكهان الأفاكين يلقون سمعهم إلى الشياطين ، ويتلقون وحيهم إليهم ، وإلقاء السمع مجاز عن شدة الاهتمام فى الإصغاء ، إلى ما يلقى إليهم .. إلخ .

وأكثر الكهان مفترون كاذبون ، يفترون على الشياطين ما لم يخبروهم به ، لأن الشيطان يخبر وليه بأمر واحد ؛ فيكذب معه مائة كذبة ، فهذا فريق للكذب والافتراء ، وليس كذلك محمد ﷺ .

وقيل : المراد من قوله تعالى : ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ ... هم الشياطين ، وكانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يتسمعون إلى الملأ الأعلى ، فيخطفون بعض ما يتكلمون به ، ثم يوحون به إلى أوليائهم ، وأحيانًا تظن الشياطين الأمر ظنا ، فتلقى به إلى أتباعها من الكهان ، وهو كذب فى أكثره .

٢٢٤ - ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ .

اتهم أهل مكة النبى بأنه شاعر ، وأن القرآن شعر بدليل وجود القافية فيه ، وقد نفى القرآن الشعر عن الرسول ﷺ فقال : ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ . (يس : ٦٩ ، ٧٠) .

وقال عز شأنه : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾. (الحاقة : ٤١ - ٤٣)

لقد كان محمد ﷺ مثلاً أعلى فى مكارم أخلاقه ، فهو الصادق الأمين ، وهو الداعى إلى الله وإلى الإيمان به ، والتزام طاعته واجتناب نواهيه ، أما الشعراء فكانوا فى جوانب كثيرة أصحاب أغراض وأطماع ، وتشبيب بالنساء ، وتكسُّب بالشعر ، فيمدحون ثم يذمون ، فإن أعطو مالا مدحوا ، وإن لم يعطوا قدحوا .

قال المفسرون :

رُوِى عن عبدالله بن عباس : أن هذه الآيات نزلت فى شعراء المشركين : عبدالله بن الزِّبعرى ، وهبيرة ابن وهب المخزومى ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبى عزة الجمحى ، وأمية بن أبى الصلت .

قالوا : نحن نقول مثل قول محمد ، وكانوا يهجونه ، ويجتمع لهم الأعراب من قومهم ، يستمعون أشعارهم وأهاجيهم ، وهم الغاوون .

الإسلام والشعر

أراد الله توحيد لسان العرب ، تمهيدًا لنزول القرآن عربيًا مبينًا ، فكانت هناك أسواق للكلام الجيد ، والقصائد البليغة ، والخطب الرائعة ، والجيد من الشعر والنثر ، يعرض ذلك فى أسوق عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وكان العرب قد تميزوا بالشعر وفن القول ، وربما كان البيت من الشعر يرفع القبيلة إن كان مدحًا ، أو يخفضها إن كان قدحًا ، فلما نزل الكتاب الخاتم بلسان عربى مبين ، حاول القوم إلصاق التهم به ، فقالوا: كهانة ، وقالوا : شعر شاعر ، فرد القرآن هذه التهمة ، فشتان بين أهداف الشعراء ، وأهداف القرآن الكريم ،

والشعر وسيلة أدبية عالية ، وهو قيثارة رنانة ، منه الحسن والقبيح ، فالقبيح ما كان للهجاء والتشجيع على الرذيلة والكفر والفسوق ، أو التشبيب بالنساء ، أو هجاء الصالحين .

والحسن من الشعر ما كان مدحًا للحق ، ومنافحة عنه ، ودفاعًا عن الفضيلة ، فالشعر كلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح .

روى البخارى فى الأدب ، والطبرانى فى الأوسط ، عن عبد الله بن عمرو . وأبو يعلى ، عن عائشة – وهو حديث حسن – أن رسول الله ﷺ قال : «الشعر بمنزلة الكلام ، حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام» .

كما ورد هذا المعنى عن العلماء والأئمة والهداة :

فقال الإمام الشافعى : الشعر نوع من الكلام ، حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام .

وقال ابن عبد البر : ليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر ، أو تمثل به ، أو سمعه فرضيه إذا كان حكمة أو مباحًا .

والخلاصة : إن من الشعر ما يجوز إنشاده ، ومنه ما يكره أو يحرم .

روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد ، عن أبيه قال : ردفت رسول الله ﷺ يومًا فقال : «هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شىء» ؟ قلت : نعم ، قال : «هيه» فأنشدته بيتا ، فقال : «هيه» ، ثم أنشدته بيتا ، فقال: «هيه» ، حتى أنشدته مائة بيت[٥١] .

وكان شعر أمية بن أبى الصلت مليئا بالحكمة ، والدعوة إلى الإيمان ، حتى قال ﷺ : «كاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم» .

فالشعر الحسن ما كان حسن اللفظ ، حسن المعنى ، يحث على الخير ، أو يدافع عن الحق .

والشعر المكروه أو المحرم ما كان داعيا إلى الفجور أو اللهو ، أو العشق أو السوء ، أو الاستهانة بالقيم والخير ، وكان من شعر أمية بن أبى الصلت ، فى الجاهلية قبل الإسلام :

مجِّدوا الله وهو للحمد أهل		ربنا فى السماء أمسى كبيرا

وقال أيضًا :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا		بالخير صبحنا ربى ومسانا

وكان أمية بن أبى الصلت من المتنسكين الذين زهدوا فى الخمر وعبادة الأصنام ، مثل قس بن ساعدة وورقة بن نوفل ، وكان أمية بن أبى الصلت يعلم أن نبيا سيُبعث قد أظل زمانه ، فكان يرجو أن يكون هو ذلك النبى ، فلما بُعث محمد ﷺ امتنع عن الإسلام حقدًا وحسدًا ، ولما أحسّ أمية بن أبى الصلت باقتراب أجله ، أنشد قائلاً :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأى عبد لك لا ألمَّا

وقد ورد من الحديث الشريف ، ما يذمّ الشعر ، مثل ما رواه مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا حتى يريه[٥٢] ، خير من أن يمتلئ شعرًا»[٥٣] .

ومن الأحاديث التى مدحت الشعر ، ما رواه أحمد ، وأبو داود ، عن ابن عباس : أن النبى ﷺ قال : «إن من البيان سحرا ، وإن من الشعر حكمًا»[٥٤] .

ويمكن التوفيق بين الحديثين ، بحمل الحديث الأول على الشعر المذموم المردود ، كالشعر الذى يدعو إلى الفجور والفسق وارتكاب المحرمات ، ومدح الهوى والباطل ، وأن نحمل الحديث الثانى على الشعر الممدوح ، الحسن المقبول ، الذى قصد به إظهار الحق ، والدعوة إلى الخير ، ومدح الفضائل والمثل العليا ، والدفاع عن الوطن والذود عنه ، وكل ما فيه تربية للنفوس وتهذيب للعقول[٥٥] .

عودٌ إلى التفسير

وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ .

قال الضحاك : تهاجى رجلان – أحدهما أنصارى ، والآخر مهاجرى – على عهد رسول الله ﷺ ، مع كل واحد غواة قومه وهم السفهاء ؛ فنزلت ، وقاله ابن عباس ، وعنه : هم الرواة للشعر ، وروى عن على بن أبى طلحة : أنهم هم الكفار يتبعهم ضلال الجن والإنس[٥٦] .

وأرى أن الآية عامة ، فى كل الشعراء الذين يقولون الشعر المذموم .

قال الماوردى :

الشعر كلام العرب ، مستحب ومباح ومحظور ، فالمستحب : ما حذر من الدنيا ، ورغب فى الآخرة ، وحث على مكارم الأخلاق . والمباح : ما سلم من فحش وكذب . والمحظور : ما كان كذبًا وفحشًا . وجعل الرويانى منه ما فيه الهجو لمسلم ، سواء كان بصدق أو كذب .

وقال الشيخ أبو بكر الجزائرى :

وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ .

أى : أهل الغواية والضلال ، هم الذين يتبعون الشعراء ، فيروون لهم وينقلون عنهم ، ويصدقونهم فيما يقولون .

٢٢٥ - أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ .

أى : إنهم ينطلقون فى القول هائمين على وجوههم ، ماضين فى قولهم ، فيمدحون ويذمون ، يهجون ويفخرون ، ويدّعون أنهم فعلوا كذا وكذا وما فعلوا .

٢٢٦ - وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ .

فهم يرغّبُون فى الجود ، ويرغبون عنه ، وينفّرون من البخل ، ويتمسكون به ، ويقدحون الأعراض لأدنى الأسباب ، ويرتكبون الموبقات ، تلك حال الشعراء وحال أتباعهم من الغاوين ، وحال سلوكهم من قول ما لا يفعلون ، فهل قول محمد ﷺ من جنس ذلك الشعر ؟ وهل أخلاقه وأخلاق أتباعه توازى حال الشعراء وأتباعهم ؟.

إن محمدًا ﷺ مثل أعلى وقدوة حسنة ، وصحابته نماذج مضيئة ، أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰـهُمُ ٱقْتَدِهْ ... (الأنعام : ٩٠) .

فمن ادعى أن محمدًا شاعر ، فليقل لنا هل سلوك محمد سلوك شاعر ؟ وهل يقول ما لا يفعل ؟ وهل صحابته غاوون ضالون ؟ .

لقد وردت صفة محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن .

قال تعالى : مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا . (الفتح : ٢٩) .

٢٢٧ - إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ .

كان من الشعراء مؤمنون صادقون ، دافعوا عن الإسلام ، وعن رسول الله ﷺ واتصفوا بصفات أربع :

١ - الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

٢ - عملوا أعمالاً صالحة كالجهاد والصلاة والصدقة ، وقول الشعر الذى يرسم المثل الأعلى ، ويمدح الإسلام ورسوله ، ويهجو الشرك وأهله .

٣ - ذِكْر الله ذكرًا كثيرًا وتمجيده وتحميده والثناء عليه .

٤ - الانتصار للحق والدين والإسلام ، بعد هجاء المشركين ، ونيلهم من الإسلام وأهله .

فهذه الآية ردّت لشعراء المؤمنين اعتبارهم ، وشجعتهم على المضى فى طريق القول الجيد المفيد .وقد روى التاريخ لنا مآثر من شعر الخلفاء الراشدين ، وفى تفسير القرطبى نماذج طيبة من ذلك .

وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ .

وهذه الآية وعيد عام لكل شاعر ظلم الحق والحقيقة ، أو لكل كفار مكة ، واختار بعض المفسرين أن الآية وعيد لكل ظالم ، بأنه سيلقى جزاءه فى الدنيا والآخرة ، وسيعلم أى مرجع يرجع إليه ، وأى مصير يصير إليه .

فإن مرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع ، ومصيرهم إلى النار وهى أقبح مصير .

وهكذا تختم سورة الشعراء ، التى واست النبى ﷺ ، وذكرت قصص سبع من الأمم السابقة ، أهلك العذاب منهم المكذبين ، ونجى الله المؤمنين ، ثم تختم فى آخرها بهذه الفقرة تهديدًا للظالمين ، ووعيدًا للكافرين .

من كتب التفسير

١ - قال الطبرى :

فى قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ .

هذا مثل ضربه الله لهم فى افتنانهم فى الوجوه التى يفْتَنُّون فيها بغير حق ، فيمدحون بالباطل قومًا، ويهجون آخرين .

٢ – وقال أبو حيان فى البحر المحيط :

أخبر تعالى عن الشعراء بالأحوال التى تخالف حال النبوة ، إذ أمرهم كما ذكر من اتباع الغواة لهم ، وسلوكهم أفانين الكلام من مدح الشىء وذمّه ، ونسبة ما لا يقع منهم إليهم ، وهذا مخالف لحال النبوة فإنها طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون .

٣ – وجاء فى تفسير ابن كثير :

قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وغير واحد : إن الآية الأخيرة فى سورة الشعراء : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ ... استثناء من عموم قوله تعالى : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ . وهى تخص شعراء الإسلام كحسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وكل من سلك مسلكهم .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان : «اهجهم وجبريل معك»[٥٧] .

وقال الإمام أحمد ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه ، أنه قال للنبى ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل فى الشعراء ما أنزل ، فقال رسول الله ﷺ : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل».[٥٨] أخرجه الإمام أحمد فى المسند .

٤ – وجاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى ما يأتى :

ذُكر أن الفرزدق أنشد أبياتًا عند سليمان بن عبد الملك ، وكان فى ضمنها قوله للنساء العذارى :

فبتن كأنهن مُصرَّعات ... وبت أفض أغلاق الختام

فقال له سليمان : قد وجب عليك الحدّ . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد درأ عنى الحد بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ . فعفا عنه .

٥ – **نقل القرطبى** جانبًا كبيرًا من شعر الذين آمنوا ، ومنه قصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير ، وأبيات لحسان بن ثابت ، وهى أبيات ذكرها الإمام مسلم فى صحيحه[٥٩] ، وهى فى السِّير أتم ، ومنها قوله لأبى سفيان :

هجوت محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء

وإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاءُ

أتشتمه ولست له بكفءٍ ... فشركما لخيركما الفداء

لسانى صارم لا عيب فيه ... وبحرى لا تكدّره الدّلاءُ

وقال كعب بن مالك :

جاءت سخينة كى تغالب ربّها ... وليُغلَبنَّ مُغالبُ الغلّابِ

★ ★ ★

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الشعراء

١ – مقدمة فى تسلية الرسول ﷺ عن إعراض قومه عن الدين ، وبيان أنهم ليسوا ببدع فى الأمم ، فقد كُذبت رسل سابقة فصبروا على ما كذبوا .

٢ – الاستدلال بخلق النَّبات وأطواره المختلفة ، على وجود الإله ووحدانيته .

٣ – قصص الأنبياء مع أممهم ، لما فيه من العبرة لأولئك المكذبين ، وأوردت سورة الشعراء سبع قصص هى : قصة موسى مع فرعون ، وإبراهيم مع قومه ، ونوح مع قومه ، وعاد ورسولهم هود ، وثمود ورسولهم صالح ، ولوط مع قومه ، وأخيرًا قصة شعيب مع أصحاب الأيكة .

٤ – إثبات أن القرآن وحى من رب العالمين ، لا كلام تنزلت به الشياطين .

٥ – بيان أن محمدًا ﷺ ليس بكاهن ولا شاعر .

٦ – وعيد المكذبين بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

تم تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين


تفسير سورة النمل

أهداف سورة النمل

سورة النمل مكية ، وآياتها ٩٣ آية ، نزلت بعد سورة الشعراء .

وسميت بسورة النمل لاشتمالها على مناظرة النمل مع سليمان فى قوله تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (النمل : ١٨) .

نظام السورة

هذه السورة مجاورة لسورة الشعراء وهى تمضى على نسقها فى الأداء : مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذى تعالجه ، وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع ، ويؤكده ، ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين فى مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم ، للعبرة والتدبر فى سنن الله وسنن الدعوات .

موضوع السورة

موضوع سورة النمل الرئيسى – كسائر السور المكية – هو العقيدة : الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، والإيمان بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب ، والإيمان بالوحى ، وأن الغيب كله لله لا يعلمه سواه ، والإيمان بأن الله هو الخالق الرزاق واهب النعم ، وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر ، والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله .

القصص فى سورة النمل

يأتى القصص فى سورة النمل لتثبيت أهداف السورة ، وتصوير عاقبة المكذبين ، وعاقبة المؤمنين .

تأتى حلقة من قصة موسى – عليه السلام – تلى مقدمة السورة . حلقة رؤيته للنار ، وذهابه إليها ، وندائه من الملأ الأعلى ، وتكليفه بالرسالة إلى فرعون وملئه ، ثم يعجل السياق بخبر تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها ، وعاقبة التكذيب مع اليقين . وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ . (النمل : ١٤) .

واستغرقت هذه الحلقة من قصة موسى الآيات من ٧ – ١٤ .

قصة سليمان وبلقيس

استغرقت الآيات من ١٥ – ٤٤ فى الحديث عن داود وسليمان وبلقيس وبدأته بالإشارة إلى نعمة الله على داود وسليمان ، ثم ذكرت قصة سليمان مع النملة ، ومع الهدهد ، ومع ملكة سبأ وقومها وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان وقيامهما بشكر هذه النعمة ، وهى نعمة العلم والملك والنبوة مع تسخير الجن والطير لسليمان ، وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التى يدعو إليها كل رسول .

قصة بلقيس

تبدأ قصة بلقيس بتفقد سليمان للطير وبحثه عن الهدهد فلم يجده ، ثم جاء الهدهد بعد ذلك ، وكان هدهدًا عجيبًا صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة فى عرض الأخبار ، فقد أخبر سليمان أنه رأى ملكة ولها رعية كبيرة فى بلاد سبأ ورآهم فى نعمة وغنى ولكنهم يسجدون للشمس من دون الله ، فكتب له سليمان رسالة ليلقيها إليهم وفيها : إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ . (النمل : ٣٠ ، ٣١) .

فلما ألقاها على الملكة جمعت قومها لتستشيرهم فيها ، فذكروا لها أنهم أولو قوة وبأس شديد ، وفوضوا أمر ذلك إليها ، فذكرت لهم أن عاقبة الحرب إفساد الديار ، وأنها ترى مسالمة سليمان بإرسال هدية إليه ، فلما جاءته الهدية لم يقبلها ، وهددهم بأن يرسل إليهم جنودًا لا قبل لهم بها فلم تجد الملكة مفرًا من أن تذعن له وتسافر إلى مقر ملكه ، فجمع قومه وأخبرهم بأنه يريد أن يحصل على عرشها قبل حضورها ، فأخبره عفريت من الجن أنه يمكنه أن يأتيه به قبل أن يقوم من مجلسه ، وأخبره عالم من علماء قومه أنه يمكنه أن يأتيه به قبل مرور طرفة عين ، فشكر سليمان ربه أن جعل فى ملكه مثل هذا الرجل المؤمن المتصل بالله سبحانه .

وأمر سليمان قومه أن يغيروا شيئًا من شكل العرش ليختبر ذكاءها ، فانتهت الملكة إلى جواب ذكى أريب : قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ... (النمل : ٤٢) .

فهى لا تنفى ولا تثبت ودلت على فراسة وبديهة فى مواجهة المفاجأة العجيبة ، ثم تعرضت بلقيس لمفاجأة أخرى ، فى قصر من البلور أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة فلما قيل لها: ادخلى الصرح، حسبت أنها ستخوض فى لجة الماء وكشفت عن ساقيها ، فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها وقال : إنه صرح مملس من زجاج .

ووقفت الملكة متعجبة مندهشة أمام هذه العجائب التى تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخرة له قوى أكبر من طاقة البشر ، فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره ،

معلنة إسلامها مع سليمان – لا لسليمان – ولكن لله رب العالمين . ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ . (النمل : ٤٤) .

قصة صالح ولوط

وفى أعقاب قصة بلقيس نجد الآيات (٤٥ – ٥٣) تتحدث عن نبى الله صالح ومكر قومه فى حقه ، ونجد الآيات (٥٤ – ٥٩) تتحدث عن نبى الله لوط وارتكاب قومه لفاحشة اللواط بالرجال . ومحاولة لوط تقديم النصيحة لهم دون جدوى ، بل هددوه بالطرد والنفى فأنجاه الله وأمطر على قومه حجارة من السماء؛ فأهلكتهم فبئس مطر الهالكين الخاطئين .

أدلة القرآن على وجود الله

فى ختام سورة النمل نجد آيات قوية تتحدث عن قدرة الله ومظاهر العظمة والقدرة فى هذا الوجود .

لقد استعرضت السورة فى بدايتها حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط استغرقت الآيات (٧ – ٥٩) .

أما الآيات الأخيرة فى السورة من (٦٠ – ٩٣) فإنها تجول جولة هادفة فى تثبيت العقيدة ، جولة فى مشاهد الكون وأغوار النفس وأطواء الغيب ، وفى أشراط الساعة ، ومشاهد القيامة ، وأهوال الحشر ، التى يفزع لها من فى السماوات والأرض إلا من شاء الله .

فى هذه الجولة الأخيرة يستعرض القرآن أمام الناس مشاهدات فى صفحة الكون وفى أطواء النفس لا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير .

ويتوالى عرض هذه المشاهدات فى إيقاعات مؤثرة ، تأخذ عليهم أقطار النفس وأقطار المشاعر ، وهو يسألهم أسئلة متلاحقة : من خلق السماوات والأرض ؟ من أنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة؟ من جعل الأرض قرارًا ، وجعل خلالها أنهارًا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزًا ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ من يجعلكم خلفاء الأرض ؟ من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشرًا بين يدى رحمته ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفي كل مرة يقرعهم : أإله مع الله ؟ وهم لا يملكون أن يدّعوا هذه الدعوى ، لا يملكون أن يقولوا : أن إلها مع الله يفعل من هذا كله شيئًا ، وهم مع هذا يعبدون أربابًا من دون الله !

وعقب هذه الإيقاعات القوية التى تقتحم القلوب - لأنها إيقاعات كونية تملأ صفحة الوجود من حولهم ، أو إيقاعات وجدانية يحسونها فى قلوبهم - يستعرض تكذيبهم بالآخرة وتخبطهم فى أمرها ، ويعقب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الغابرين الذين كانوا مثلهم يكذبون ويتخبطون .

ويخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول ومن فزع ، ويرجع بهم فى ومضة خاطفة إلى الأرض ، ثم يردهم إلى مشهد الحشر وكأنما يهز قلوبهم هزًّا ويرجها رجًا .

وتختم السورة بحمد الله الذى يستحق الحمد وحده ، وتكلهم إلى الله يريهم آياته ، ويطلع على أعمالهم ما ظهر منها وما بطن : وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . (النمل : ٩٣) .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

المفردات :

طسٓ : حروف مقطعة للتنبيه ، مثل : ألا ، ويا التى للنداء ، وينطق بأسمائها فيقال : (طا - سين) .

تلك : إشارة إلى السورة .

مبين : موضح للأحكام والأخلاق والعظات .

يعمهون : يتحيرون ويترددون فى أودية الضلال .

الأخسرون : أشد الناس خسرانا ، لحرمانهم الثواب ، واستمرارهم فى العذاب .

من لدن : من عند .

حكيم : عظيم الحكمة ، والحكمة : إتقان الأمور .

التفسير :

١ - طسٓ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ .

طسٓ ...

اسمان لحرفين من حروف المعجم ، هما الطاء والسين ، وقد مضى الكلام بشأن مثلهما ، فى أول سور البقرة، وآل عمران، ويونس، وهود، وغيرها . ومن كلام العلماء أنهما حرفان للتنبيه ، كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة ، وهذه الأحرف فاجأت العرب بأمر لم يألفوه فتنبهوا ، فلما تنبهوا قال القرآن الكريم :

تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ .

أى : هذه الآيات المنزلة عليك يا محمد هى آيات القرآن المعجز فى بيانه الساطع فى برهانه .

وَكِتَابٍ مُّبِينٍ .

وآيات كتاب واضح مبين لمن تفكر فيه وتدبر ، أبان الله فيه الأحكام ، وهدى به الأنام .

وقد لاحظ العلماء المهتمون بالإحصاء ، أن كل سورة بدئت بمثل هذه الفواتح ، تغلب فيها الحروف التى بدئت بها ، على سائر الحروف التى تكونت منها كلمات السورة ، وبما أن محمدًا ﷺ أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، فذلك شاهد على أن القرآن ليس من تأليفه ، كما زعم أعداء الحق ، بل هو من عند الله العزيز الحكيم.

٢- هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

القرآن إنما تحصل هدايته وبشارته لمن حلَّ فى قلبه الإيمان ، فهو روح وهداية وبشارة بعز الدنيا وسعادة الآخرة ، لمن آمن بالله والتزم بطاعته .

٣ - ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

وصف الله المؤمنين بهذه الصفات :

١ - إقامة الصلاة : أى المحافظة عليها فى أوقاتها ، كاملة الأركان ، فى خشوع وخضوع ، وتدبر وتفكر، واستغراق فى عظمة العلى القدير.

٢ - وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ . يؤدونها كاملة ، متى بلغت النصاب ، وحال عليها الحول ، يرجون بها وجه الله ، وينفقونها فى مصارف الزكاة ، ويؤدونها مستوفاة شروطها ، كاملة متجردة من الرياء والتظاهر.

٣ - وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون .

إنهم آمنوا بالآخرة وتيقنوا بها ، وهذا يزيدهم خشوعًا فى صلاتهم ، وإخلاصًا فى زكاتهم ، ويقينًا بربهم ، وبالجزاء العادل يوم القيامة ، وقد أكد إيمانهم بالآخرة ، لأن هذا الإيمان وذلك اليقين هو مبعث كل نشاط حسن .

من التراث

دخل جمع من الناس على عمر بن عبد العزيز ، فوجد بينهم شابًا نحيلاً ، فسأله الخليفة : ما الذى أحالك إلى هذا الذبول ، قال : يا أمير المؤمنين ، أسقام وأمراض ، فقال الخليفة : بالله عليك إلا ما أصدقتنى.

فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مريرة ، وهان علىّ أمرها ، واستوى عندى ذهبها وحجرها ، وكأنى أنظر إلى عرش ربِّى بارزًا ، والناس يساقون إلى الجنة أو إلى النار ، فأظمأت لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وقليل حقير ما أنا فيه ، بجنب ثواب الله وعقابه .

٤ - إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ .

إن هؤلاء الكفار الذين رفضوا الإيمان بالآخرة ، وقالوا : إن هى إلا أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ، هؤلاء الكفار سلبهم الله معونته وعونه وتوفيقه فصار الكفر والضلال حبيبا إليهم ، وضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فحبب إليهم اتباع الهوى ، وزين لهم الضلال، فتراهم حيارى فى غيِّهم يترددون ، ونلاحظ أن العمى صفة البصر ، والعَمَه صفة البصيرة ، فبصيرتهم فى ظلام الضلال ، لا تدرك ما ينفعها ولا ما يضرها .

قال الرازى فى التفسير الكبير :

والمراد من التزيين : هو أن يخلق فى قلبه العلم بما فيها من المنافع واللذات ، ولا يخلق فى قلبه العلم بما فيها من المضار والآفات .

٥ - أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ .

هؤلاء الكفار لهم سوء العذاب ، بالقتل والأسر فى الدنيا ، وهم فى الآخرة يدخلون جهنم ويعذبون فيها عذابًا أبديًا سرمديًا خالدًا مخلدًا ، فهم فى أكبر خسارة حيث خسروا دنياهم وآخرتهم .

٦ - وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ .

تأتى هذه الآية ختامًا لمقدمة السورة ، وتمهيدًا لما سيأتى بعدها من قصص ، فتخبر أن القرآن من عند الله ، تلقاه محمد ﷺ عن جبريل ، وتلقاه جبريل عن الله ، وقد أكدت الآية أن القرآن من عند الله ، ردعًا لمن افترى بأن القرآن شعر أو كهانة أو أساطير الأولين ، وقد صرحت آية أخرى بهذا التلقى حيث قال سبحانه : نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) . وفى الآية إشعار بفضل الله على نبيه ، فهو يتلقى هذا الوحى بواسطة جبريل من الحكيم العليم ، فالله حكيم أنزل القرآن منجمًا ومجزأً حسب الوقائع والحوادث ، وقد اشتمل القرآن على حكمة التشريع ، وآداب الحياة ، ونظام العبادات والمعاملات ، وبيان الفرائض والأحكام ، لذلك نُسب إلى الحكيم واسع الحكمة ، الذى لا يعمل عملاً إلا لحكمة إلهية عليا ، وهو سبحانه : عَلِيمٍ . واسع العلم أحاط بكل شىء علمًا ، وهو سبحانه : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ... (البقرة : ٢٥٥) .

وقال تعالى : وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا . (النساء : ١١٣) .

وقال سبحانه : وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا . (طه : ١١٤) .

وخبر القرآن هو الصدق والعدل ، وشريعته هي الشريعة الوسط المعتدلة بلا تفريط ولا إفراط ، قال تعالى : وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ... (الأنعام ١١٥) .

★ ★ ★

قصة موسى عليه السلام

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

لـتـلـقـى : لتلقَّن وتعطى .

آنــســت : أبصرت إبصارًا حصل لي به أنس .

بـخـبـر : عن الطريق وحاله .

بشـهـاب : بشعلة نار .

قـبـس : قطعة من النار مقبوسة ، ومأخوذة من أصلها .

تصطلون : تستدفئون بها ، قال الشاعر :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد		أكل الفواكه شاتيا فليصطل

بورك من فى النار : جعلت البركة لمن في البقعة التي فيها النار

ومن حولها : ولمن في الأماكن التي حولها .

جـــان : حيَّة صغيرة سريعة الحركة .

ولى مدبرًا : التفت هاربًا .

ولم يعقب : لم يرجع على عقبه ، ولم يلتفت إلى ما وراءه . من قولهم : عقب المقاتل ، إذا كرَّ بعد الفرّ .

من غير سوء : من غير برص ولا نحوه من الآفات .

آيـــات : معجزات دالة على صدقك .

مبصــرة : بينة واضحة .

جحدوا بها : كذبوا .

استيقنتها : علمت علمًا يقينًا أنها من عند الله .

علـــوا : ترفعًا واستكبارًا .

التفسير :

٧ – إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ .

كان موسى عليه السلام قد خرج من مصر حين علم أن الملأ من قومها يأتمرون به ليقتلوه ، فخرج إلى سيناء وانتهى فى رحلته إلى مدين ، حيث عمل أجيرًا عند شعيب فى مقابل تزويجه إحدى ابنتيه ، فلما قضى عشر سنين فى أرض مدين ، جنَّ للرجوع إلى مصر ، وسار بأهله ، فأدركها المخاض عند الطور ، فوضعت فى ليلة شاتية باردة ، وكان قد حاد عن الطريق لأمر شاءه الله تعالى .

وقد أصبح بحاجة إلى أمرين :

أحدهما : أن يجد من يرشده إلى الطريق الموصل إلى مصر .

ثانيهما : أن يوقد نارًا ليستدفئ هو وأهله .

قال تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . (القصص : ٢٩) .

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ...

تأتى هذه الآية عقب قوله تعالى : وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ . (النمل : ٦) .

أى : لست بدعًا من الرسل ، ولست وحدك الذى تلقيت وحى السماء إلى الأرض ، فاذكر فضلاً مشابهاً، حين سار موسى من مدين إلى مصر ليلاً ، فى طريق مظلم قرب الطور ، فآنس نارًا فى ظلام الليل ، وكانت النار توقد ليلاً لأمرين :

١ – إكرام الضيف .

٢ – هداية السارى بالليل .

ومن ذلك قول حاتم الطائى لغلامه :

– إن الليل ليل قرّ ، والريح يا غلام ريح صر ، فإن جلبت ضيفا فأنت حرّ .

أدرك موسى النار وقد فرح برؤيتها ، وقال لزوجته : إنى آنست نارًا قد سررت لرؤيتها ، فامكثوا فى مكانكم ، وسأذهب إلى هذه النار : **سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** .

لقد سررت برؤية النار وتوقعت عندها الخير فامكثوا فى مكانكم ، لأذهب إليها ، حتى أسأل عن الطريق الموصل إلى مصر ، وأحضر منها قبسًا[١٠] نستدفئ به فى قرّ الصحراء ، ومضى موسى إلى النار ، التى آنسها ينشد خبرًا ، فإذا هو يتلقى النداء الأسمى .

٨ – **فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ** .

تقدم موسى إلى النار فرأى عجبا ، شجرة خضراء تتوقد منها النار ، لا تزداد الشجرة إلا اخضرارًا ، ولا تزداد النار إلا نورانية وارتفاعًا إلى السماء ، وتعجب موسى مما رأى ، وسمع نداء الحق سبحانة وتعالى :

أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ...

ومن فى النار : الملائكة مستجيبة لأمر الله تعالى بإيقاد النار .

وَمَنْ حَوْلَهَا : كل من حولها من الأرض والناس ، ومنهم موسى عليه السلام .

والآية تسجِّل بركات الله وعنايته ورحمته وهدايته ، ينزلها على ملائكته ورسوله موسى عليه السلام ، والله منزه عن الكم والكيف ، والطول والعرض ، لا يحدُّه مكان ولا يحويه زمان ، فهو سبحانه خالق الكون ، وخالق الزمان والمكان .

وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

تنزه الله الذى يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شىء من مخلوقاته ، وهو العلى العظيم ، الواحد الأحد الفرد الصمد ، المنزه عن مماثلة المحدثات .

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه ، وابن ماجة فى سننه ، والبيهقى ، عن أبى موسى الأشعرى قال :

قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، حجابه النور لو كشفها لأحرقت سُبُحات (أنوار) وجهه كل شىء أدركه بصره»(١١) . ثم قرأ أبو عبيدة : أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

٩ - يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

نادى الله موسى نداء الإله الخالق المهيمن ، فموسى رسول سيكلف بالرسالة ، وتسمو البشرية فى شخصه ، لتتلقى خبر السماء من الله ٱلْعَزِيز . الغالب ، القوى القادر، المهيمن المقتدر، ذى الجلال والإكرام، ٱلْحَكِيم . فهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو أحكم الحاكمين فى تصرفاته وأفعاله ، جل جلاله ، ومن هذه الحكمة اختيار موسى ليكون رسولاً إلى أكبر الطغاة فى الأرض ، فى ذلك الحين ، ومن ثمّ جعل ربُّه يعدُّه ويجهزه ويقويه .

١٠ - وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ...

أمر الله موسى أن يلقى عصاه ، فإذا هى تتحول إلى حية شديدة الحركة ، فى سرعة وخفة مذهلة ، فلما رآها موسى فى شكل مخيف مرعب رهيب ، جرى سريعًا بعيدًا عنها ، ولم يرجع إلى المكان الذى كان فيه ، حين ألقى عصاه ، فناداه الله مطمئنا له بقوله :

يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ .

يا موسى لا تخف من العصا ولا من الحية الكبيرة ، العظيمة الحركة ، فأنت رسول رب العالمين ، الرسل لا يخافون فى حضرة ربهم ، وهم يتلقون التكليف .

الثعبان ، والجان

فى الآية ١٠٧ من سورة الأعراف قال تعالى : فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ .

والثعبان حية كبيرة .

وهنا قال تعالى : وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ...

والجانُّ ضرب من الحيَّات أكثرها حركة ، وأسرعها اضطرابًا ، مع صغر فى الحجم .

ويجمع بين الآيتين : بأن العصا تحولت إلى حية كبيرة من ناحية الحجم ، وتحولت إلى صورة الجان من ناحية الحركة والاضطراب السريع ، ولهذا جاز التعبير عنها بالكلمتين فى موضعين مختلفين : فهى ثُعْبَانٌ. كبير ، فى سرعة جَآنٌّ . خفة واضطرابا .

١١ - إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

لكن من ظلم نفسه بارتكاب المعاصى ، ثم تاب إلى الله وعدَّل سلوكه ، وأقبل على الطاعات وبدل حسنا بعد سوء ، وعمل صالحًا بعد عمل المعصية .

فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

يغفر ذنبه ويرحم ضعفه ، ويقبل توبته ، فهو سبحانه خالق الخلق وهو أعلم بضعفهم ، ولهذا تكررت الدعوة إلى التوبة ، وفتح الله أبوابه لقبولها ترفقًا بعباده ، وترحمًا بضعفهم .

قال تعالى : وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ . (طه : ٨٢) .

وقال سبحانه وتعالى : قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . (الزمر : ٥٣) .

١٢ - وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ[٦٢] تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ .

هذه هى المعجزة الثانية فى هذا المقام :

الأولى : إلقاء العصا تنقلب حية كبيرة .

الثانية : أن يدخل موسى يده فى فتحة القميص التى يدخل الرأس منها ، فتخرج بيضاء بياضًا ناصعًا، كفلقة القمر فى غير برص ولا مرض .

فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦ ...

هاتان الآيتان (العصا واليد) ضمن تسع آيات أيدتك بها وهى : سنوات الجدب ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ .

خارجين عن سنن الفطرة ، حيث كذبوا موسى ، وعتوا عن أمر ربهم .

١٣ - فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

فلما تقدم موسى إلى فرعون وقومه ، ومعه معجزات ملموسة تبصرها العين ، وتتيقن بها النفس ، رفضوا الإيمان بها ، وقالوا : هذا سحر ظاهر وليس معجزة .

١٤ - وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ .

كذب فرعون وقومه بالآيات مع وضوحها وظهورها ، ولم يكن تكذيبهم بسبب نقص الدليل ، فإنهم تيقنوا من صدق موسى وصدق رسالته ، ولكن الجحود والكنود والظلم والبغي والاستعلاء في الأرض بغير الحق ، حملهم على التكذيب ، ظلمًا وترفّعًا عن الحق وعدم خضوع له ، فاستحقوا الهلاك والغرق .

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ .

فتأمل يا كلّ من عنده عقل أو فكر ، كيف كانت نهاية المفسدين إلى الغرق والهلاك ، وكأنّ هذه الخاتمة موجهة إلى أهل مكة ، وكأنها تقول : لقد هلك من كذّبوا موسى ، وأُغرقوا في اليم ، وحُرموا من نعيم الدنيا وسعادة الآخرة ، وقد جاءكم محمد ومعه شريعة خاتمة الشرائع ، وكتاب مبين ، فإذا جحدتم وجب عليكم الهلاك والدمار ، فتأملوا كيف انتهى حال المكذبين لرسلهم ، قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم .

وهكذا تنتهي قصة موسى في لمحات ركّزت ، على لقاء موسى الكليم والفضل الإلهي عليه والمعجزات التي أيَّده الله بها ، وفي إيجاز تكلمت عن سوء استقبال فرعون وقومه ، وعن نهاية المفسدين وهلاكهم .

★ ★ ★

قصة داود وسليمان عليهما السلام

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

ورث سليمان : قام مقام داود فى النبوة والملك .

منطق الطير : فهم ما يريده كل طائر إذا صوّت .

حشر : جمع .

يوزعون : يحبس أوّلهم ليلحق آخرهم ، فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد .

واد النمل : واد بأرض الشام .

لا يحطمنكم : لا يكسرنكم ويهشمنكم .

أوزعنى : ألهمنى ويسر لى .

تمهيد :

تأتى قصة داود وسليمان بعد قصة موسى ، وقد امتن الله على داود بأن نصره على طالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلّمه صنعة الدروع ولبوس الحرب ، وامتن الله على سليمان بأن علمه منطق الطير ، وسخّر له الإنس والجن والطير والريح والشياطين المتمردين فأمكنه منهم ، وقد طلب سليمان من ربه أن يوفقه إلى شكر نعمه عليه وعلى والديه ، وأن يمكنه من العمل الصالح ، وأن يدخله جنات النعيم .

التفسير :

١٥ - وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

تأتى هذه القصة بعد ذِكْر فضل الله على رسوله محمد ﷺ ، وفضله على رسوله موسى عليه السلام ، وذكر جانب من قصته ، ثم ذكر جانب بسير عن داود عليه السلام ، وقد آتاه الله الرسالة والنبوة ، والملك والعلم والقضاء ، وألان له الحديد ، كما منحه الصوت الحسن ، وتلاوة الزبور ، حيث كانت الجبال والطير والكون تردد الزبور خلفه ، فقد آتاه الله علمًا نافعًا ، وألهمه الشكر والاعتراف بالفضل لله العلى الكبير ، كما منَّ الله على سليمان بعلوم متعددة ، منها معرفة لغة الطير ، وفهم أحكام القضاء ، وتسخير الرياح والجن والشياطين لخدمته ، كما وفقه الله للشكر ، وفى الآية فضل العلم ، وإعلاء درجته على درجات الملك ، وقد أشاد القرآن الكريم بالعلم والعلماء .

قال تعالى : يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ... (المجادلة : ١١) .

وقال سبحانه : قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... (الزمر : ٩) .

وقال تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ... (فاطر : ٢٨) .

وقد سعى موسى لتعلم العلم من الخضر وقال له : هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا . (الكهف : ٦٦) .

وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أى : قال الأب والابن : الشكر لله تعالى الذى منحنا الملك والنبوة والعلوم المتعددة ، وفضلنا بهذه المنح والعطايا ، على كثير من عباده المؤمنين ، الذين لم يؤتهم مثل ما آتانا .

١٦ - وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ .

ورث سليمان والده فى ملكه وفى فضله ، وفى عطاء الله تعالى له ، وليس المراد ميراث المال ، لأن الأنبياء لا تورِّث مالا ، قال ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقه»[٦٣] وقد رواه أبو بكر وعمر أمام جمع من الصحابة ولم ينكر عليهما أحد .

وأخرج أبو داود ، والترمذى ، عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهما ، ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[٦٤] .

وقد صرح القرآن بأن الله أعطى داود الفضل ، أى : التفضل عليه بالنعمة والهداية والرسالة ، وحسن الصوت وترديد الجبال والطيور لعبادته وأناشيده ، وقد ورث سليمان جانبا من هذا الفضل ، واعترف بهذه النعمة ، فقال لأهل مملكته : يا أيها الناس قد تفضل الله علينا بأن علمنا منطق الطير ولغته ، فإذا صوت أدركنا ماذا يريد أن يقول .

وقال سليمان : لقد أعطانا الله من كل شيء يحتاج إليه أمثالى ، فأتاح لى النبوة والملك ، ومعرفة لغة الطير ، وغير ذلك من النِّعم .

إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ .

إن هذا تفضل ونعمة بينة ظاهرة واضحة ، قال ذلك اعترافًا بأنعم الله عليه ، ولم يقله على سبيل الفخر ، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود، ومسلم، عن أبى هريرة : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر» . أى : أقول هذا القول شكرا ، ولا أقوله فخرًا .

١٧ - وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ .

كان لسليمان جيش كبير ، فى غاية النظام والترتيب ، يصطف الإنس ثم الجن ، وتصطف الطير فوق رءوسهم لحمايتهم من وهج الشمس ، ولكل فئة من الثلاث قائد أو وازع ينظمهم ، ويحبس أوّلهم حتى يحضر آخرهم .

ومعنى : يُوزَعُونَ . أى : يحبسون ويمنعون من المضى حتى يتلاحقوا ويجتمعوا.

والإيزاع : الحث على الوزع ، وهو الكفُّ والمنع .

ومنه قول عثمان رضى الله عنه : ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن .

وقول الشاعر :

ومن لم يـزَعْـهُ لبّـه وحيـاؤه فليس له من شَيْبِ فَوْدَيْه وَازِعُ

لقد أعطى الله سليمان ملكًا لم يعطه لأحد من بعده ، مثل ملك الجن والريح والطير ، استجابة لدعائه : قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ . (ص : ٣٥ - ٣٨) .

وقال تعالى : وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ... (سبأ : ١٢ ، ١٣) .

كل هذا الملك ، والجيوش المتعددة الأنواع ، ومعرفة لغة الطير ، وتسخير الجن ، والتفوق فى القضاء ، قابله داود بالشكر والعرفان .

قال تعالى : ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ . (سبأ : ١٣) .

وعندما رأى سليمان عرش بلقيس مستقرا عنده ، قال : هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ . (النمل : ٤٠) .

عبرة بالآية

جاء فى أحكام القرآن لابن العربى – تعليقًا على قول عثمان : ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن –:

قد جهل قوم المراد بهذا الكلام ، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن ، وهذا جهل بالله وحكمه وحكمته ، فإن الله تعالى ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافة قائمة لقوام الخلق ، ولكن الظلمة خاسوا بها ، وقصّروا عنها ، وأتوا ما أتوا بغير نية منها ، ولم يقصدوا وجه الله فى القضاء بها ، فلم يرتدع الخلق بها ، ولو حكموا بالعدل ، وأخلصوا النية ، لاستقامت الأمور ، وصلح الجمهور .

لغة الطير

يتسابق العلماء الآن فى معرفة لغة الطير والحيوانات ، وقد علّمها الله تعالى لسليمان ، وأشار القرآن إلى تنظيم أمة النحل وأمة النمل ، وأمثالهما من الأمم ، حيث قال تعالى : وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ... (الأنعام : ٣٨) .

وقد سبق القرآن الكشوف العلمية ، وأيدته المشاهدة ، فالنحل له ملكة تدبر أمره ، وتسوسه ، ويبلغ من دقة إدراكه أنه يصنع بيوتًا مسدسة الأضلاع لتجميع عسله فيها ، بمقاييس غاية فى الدقة ، وبالجملة فدراسة مملكة النحل وأمته تحير الأفكار ، ومثلها النمل وجميع الكائنات الحية ، ومن أغرب المشاهدات تلك الطيور ، التى تقطع آلاف الأميال فى موسم الشتاء طلبًا للدفء والرزق ، ثم تعود أدراجها فى مواسم معينة، إلى نفس العش الذى تركته ، فوق مبنى أو فوق شجرة ، ولا تخطئ طريقها ، وكل طائفة تسير خلف نذيرها ومرشدها ، وهى تطير على هدى إدراك داخلى أقوى من (الرادار) ، لقد ألهمها الخالق سبحانه البحث عن رزقها ، والسير فى الفضاء والهواء ، بإلهام من الله العلى القدير ، وتجد أنواعًا من السمك ، تهاجر آلاف الأميال ، لتضع البيض ، ثم يفقس البيض ، ويتحول إلى سمك ، ويبدأ السمك رحلة العودة من حيث جاءت أصوله ، فسبحان الذى ألهم هذه الكائنات ، أسرار وجودها ، وطريقة حياتها ، ونظام معيشتها ، بما يفيد أن

وراء هذا الكون البديع ، يدًا حانية تحفظ وجوده ، وتدعّم تماسكه ، وتقدّر أقواته ، وانظر إلى قوله تعالى : قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ . (طه : ٤٩ ، ٥٠) .

وقال تعالى : وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ . (فصلت : ١٠) .

قصة النملة

١٨ - حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

سار سليمان في موكبه وجيوشه ، حتى اقترب من منطقة بها نمل كثير ، تسمى وادى النمل ، يقول بعض المفسرين : إنها قرية في بلاد الشام ، ولهذه الأمة من النمل ملكة ترعى شئون النمل ، فأمرت النمل أن يدخلوا مساكنهم ، حتى لا يتعرضوا للهلاك ، والدّهس والتحطيم والموت ، إذا مرّ عليهم سليمان وجنوده، فتقتل النمل ، دون أن يشعر سليمان وجنوده بذلك ، وقد أدرك سليمان هذا الأمر ، حيث شاهد أمة من النمل، تعرف بحسّها أن موكب سليمان قد اقترب ، فتأمر النمل أمرًا ، ثم تحذرهم من الهلاك إذا تأخروا ، والآية فيها أمر ، وتحذير أو نهى ، واحتراس :

فالأمر : ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ .

والتحذير أو النهى : لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ .

والاحتراس : وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

ثم كيف عرفت النملة أن هذا جيش سليمان ، وكيف كانت حازمة واضحة محذرة ، ذلك فضل الله ، ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ . (طه : ٥٠) .

١٩ - فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ .

التبسم : مبدأ الضحك من غير صوت ، والضحك : انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفى ، فإن كان فيه صوت يسمع من بعيد فهو القهقهة .

ومعنى الآية :

فتبسم سليمانُ مسرورًا ضاحكًا راضيًا من كلام النملة ، ومن نعمة الله عليه فى فهم كلامها ، ومن شدَّة حسمها ، وقيامها بواجبها ، وتوضيح مقاصدها لطائفة النمل ، واحتراسها .

حين قالت : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

ولما رأى سليمان ذلك رضى وشمله السرور والرضا ، وأخذ فى دعاء الله قائلاً :

رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ .

أى : قال : يارب تفضلت علىَّ بنعم كثيرة ، فألهمنى وسخِّرنى ووفقنى أن أقوم بشكر نعمك ، والثناء عليك ، والاعتراف لك بالفضل والمنة ، جزاء ما أنعمت به علىَّ وعلى والدىَّ ، وزدنى توفيقًا ، حتى أعمل العمل الصالح الذى ترضاه وتقبله ، واجعلنى ممن تشمله رحمتك وفضلك ، حتى أكون فى جملة عبادك الصالحين ، الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .

ومن هذه الآية ، نُدرك قيمة الصلاح وأنه غاية سامية يتطلع إليها الأنبياء والمرسلون ، حتى قال تعالى : وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ . (آل عمران : ٣٩) . فالعبد الصالح قدر الله فى الأرض ، تدعو له الملائكة ، ويتجاوب معه الكون ، ويصله السلام من ملايين المسلمين فى كل صلاة ، ففى قراءة التشهد : (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) .

وقد كان هذا الدعاء من سليمان من تواضع الكاملين ، فأبوه رسول أعطاه الله الفضل ، وأمّه زوجة نبى وأم نبى ، وهو رسول أكرمه الله ، لكن الهدف الأصيل عنده هو الوصول إلى رضا الله ، والقيام بشكره ، والتوفيق لأن يعمل عملاً صالحًا مخلصًا يرضاه الله ، وأن ينتظم فى سلك العباد الصالحين ، فما أجلها من نعم ، وما أفضلها من أدعية .

رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ .

★ ★ ★

قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾

المفردات :

تفقد الطير : تعرف موجوده من مفقوده .

الهدهد : طائر معروف ، ويكنى بأبى الأخبار .

بسلطان مبين : بحجة واضحة تبيِّن عذره .

غير بعيد : زمانًا غير مديد .

سبأ : هو سبأ بن يعرب بن قحطان أبو قبيلة باليمن .

نبأ : خبر عظيم .

العرش : سرير الملك .

عن السبيل : عن سبيل الحق والصواب .

الخبء : المخبوء من كل شيء كالمطر وغيره من شئون الغيب .

التفسير :

٢٠ – وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ .

ملَّك الله سليمان الريح والطير والجن ، أى : سخر له هذه المخلوقات، ومن شأن الملك الحاذق أن يتفقد رعيته ، ويتعرف على أحوالها ، ويقال : إن سليمان عليه السلام سار فى جيشه ، وأثناء الرحلة احتاج إلى

الماء ، وكان الهدهد يرشده إلى الأرض التى بها ماء قريب ، والتى بها ماء بعيد ، فإذا أرشده الهدهد إلى أرض قريبة الماء ، أمر الجن أن تعمل فيها لتستخرج الماء فيشرب الجيش والدواب ، ويستفيد سائر الناس ، ولما احتاج سليمان إلى الهدهد لم يجده ، فقال :

مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ...

هل هو موجود ولكن ستره ساتر فلا أراه ، ثم عرف أنه غير موجود ؛ فقال : أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ . وأم للإضراب ، والمعنى : بل هو من الغائبين .

قال مجاهد : قيل لابن عباس : كيف تفقد الهدهد من الطير ؟ قال : نزل سليمان منزلاً ولم يدر ما بعد الماء ، وكان الهدهد مهتديا إليه ، فأراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت : كيف يهتدى الهدهد إلى الماء ، والصبى يضع له الحبالة فيصيده ؟ فقال ابن عباس : إذا جاء القدر عمى البصر .

ونحن نقول : إدراك الهدهد لمكان الماء ، هذه فراسة بحسب تكوين الله للهدهد ، أما وقوعه حبيسًا فى الفخ فلأنه لا يعلم الغيب ، كالكلاب تدرك الزلازل بأسباب تحسُّها داخليًا ، ولكنها لا تدرى أن الطعام الذى قدّمه الصياد مسموم ليقتلها به ، وبالجملة فمناهج التكوين الإلهى لخليقته عجيبة ، فسبحان الذى أعطى كلَّ شىء خلقه ثم هدى[٦٥] .

٢١ - لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ .

كان هدهدًا ذكيًا بارعًا متفوقًا ، سخره الله لسليمان مع مجموعة خاصة من الطير ، وكان الهدهد صاحب النوبة ، فلما تخلف عن الحضور ، وتأكد الملك من غيابه ، أقسم ليعذبنَّه عذابًا شديدًا ، مثل نتف ريشه ، أو ليقتلنّه ، إلا إذا جاء بحجة واضحة تدل على أنه كان معذورًا فى غيابه .

٢٢ - فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ .

مكث الهدهد وقتًا قصيرًا ليس بالطويل ، وجاء متواضعًا أمام سليمان ، وقال :

أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ...

لقد اكتشف مملكة وملكة وقومًا يعبدون الشمس ، وذكر ذلك فى إجمال ، ليفتح شهية الملك فى الإحاطة بهذا الكشف الجديد ، الذى اهتدى إليه الهدهد .

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ .

أتيتك من مدينة سبأ بخبر حقيقى مؤكد لا ريب فيه ، وسبأ فى الأصل اسم لسبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان ، ثم أطلق على حىّ من الناس سُمّوا باسم أبيهم سبأ ، وأطلق على المدينة التى يقيم فيها هؤلاء الناس ، فقيل : مدينة سبأ .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

ألهم الله الهدهد ، فأخبر سليمان بهذا الكلام ، على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمَّة ، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له فى علمه ، وتنبيها على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفًا له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء ، وأعظم بها فتنة. ا هـ .

٢٣ - إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

اشتمل كلام الهدهد على صفات القوم وحالتهم الدنيوية ، وذكر منها ثلاثة أمور :

١ - أن ملكتهم امرأة ، هى بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها من قبلها ملكًا جليل القدر واسع الملك، ولما مات لم يترك عقبًا من الذكور فتولت الملك ابنته .

٢ - إن المرأة قد أوتيت من كل شىء يفيد أمثالها ، من عظمة الملك واتساعه ، وعظمة الجيش ونظامه، واتساع الثراء ، وكثرة الأسلحة وأدوات الحرب ، مما لا يوجد مثله إلا فى الدول العظمى .

٣ - إن لها سريرًا عظيمًا تجلس عليه عند اجتماعها مع القادة والوزراء ، مرصعًا بالذهب والياقوت واللؤلؤ ، ومن أفخم العروش فى زمانها .

٢٤ - وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ .

وجدت هذه الملكة وقومها يعبدون الشمس من دون الله ، ويسجدون لها سجود عبادة وتعظيم ، وقد زين لهم الشيطان قبيح أعمالهم ، فرأوه حسنًا ، وصدهم الشيطان عن الطريق الحق ، والسبيل الواضح ، وهو عبادة الله تعالى ، فهم لا يهتدون إلى الهدى ، ولا يرغبون فى الإيمان بالله .

٢٥ - أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ .

هلا سجدوا لله ، الإله الحق ، الذى سخر الشمس والقمر ، والليل والنهار ، ورفع السماء وبسط الأرض ، وأرسى الجبال ، وهو سبحانه يحفظ هذا الكون ، ويخرج المخبوء مثل المطر من السماء ، والشمس تختفى ليلاً وتظهر نهارًا ، والنجوم تختفى نهارًا وتظهر ليلاً ، وكذلك القمر ، وقل مثل ذلك فى خلق الإنسان وولادة الجنين ، وإنبات النبات ، وظهور المختبئ من المعادن والبترول ، والكنوز التى لا تحصى أنواعها ، وهو سبحانه يعلم ما يخفيه هؤلاء الذين يعبدون الشمس وما يظهرونه ، وليس الشمس شيء من ذلك ، فهى مسخرة لله تعالى ، فكيف ينصرفون عن عبادة الله إلى عبادة الشمس .

قال تعالى : **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** . (فصلت : ٣٧) .

وقال عز شأنه : **سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ** . (الرعد : ١٠) .

٢٦ - اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

الله جل جلاله لا معبود بحق إلا هو ، صاحب الملك العظيم فى السماء والأرض ، والفضاء والهواء، والليل والنهار ، فهو المستحق للعبادة فعلاً ، وهو أهل لأن يُعبد لأنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل ، وهو المالك للكون ، وقد وسع كرسيه السماوات والأرض ، والكرسى بالنسبة للعرش كحلقة فى فلاة كما ورد فى السنة .

ويقف الإنسان مبهورًا أمام هذا الهدهد الذكى الأريب ، الذى اهتدى إلى اكتشاف أمّة من البشر ، والتعريف بملكتها وشئونها الدنيوية والدينية ، لعله رئيس مجموعة الهداهد، وقد ذكر الهدهد أن الملكة قد أوتيت من كل شيء يحتاج إليه ملكها ، ويجعله ملكًا متفوقًا ، ووصف عرشها بأنه عظيم ، بالنسبة إلى عروش ملوك الدنيا .

ثم نلاحظ رقىّ الحاسة الدينية عند الهدهد ، واعتراضه على عبادة سبأ للشمس ، ورغبته فى أن يعبدوا الله الخالق الرازق ، صاحب العرش العظيم ، الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه ، فكل عرش مهما عظم فهو دونه ، فكان الواجب إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة .

تعليق

فى قصة سليمان مع الهدهد دليل على مسئولية الحاكم عن تفقد الرعية ، والمحافظة عليها ، ومحاولة الرقىّ بها ، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخْفَ على سليمان حاله ، فكيف بعظائم الأمور ،

وقد ذكر القرطبى هذا المعنى ثم قال : ويرحم الله عمر بن الخطاب ، فإنه كان على سيرته ، قال : لو أن سخلة على شاطىء الفرات أخذها الذئب ، ليُسأل عنها عمر .

والخلاصة : استنبط العلماء من الآيات السابقة ، استحباب تفقد الحاكم أحوال الرعية ، وكذلك تفقد الأصدقاء والأقارب .

★ ★ ★

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

المفردات :

تولّ عنهم : تنحّ عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ، ليكون ما يقولونه بمسمع منك .

فانظر : تأمل وفكر .

يرجعون : يرجع بعضهم إلى بعض من القول ، ويدور بينهم بشأنه .

الملأ : أشراف القوم ، خاصة الملك .

ألا تعلوا علىّ : لا تتكبروا ، ولا تنقادوا للنفس والهوى .

مسلمين : منقادين خاضعين .

تمهيد :

تصف الآيات موقف سليمان من كلام الهدهد ، وتكليف الهدهد برسالة إلى بلقيس ملكة سبأ ، وترصد أخبارها ، ونقل هذه الأخبار إلى سليمان عليه السلام .

التفسير :

٢٧ - قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ .

أى : قال سليمان للهدهد : سننظر وسنختبر مقالك ، ونتعرف حقيقته بالامتحان ، أصادق أنت فيما تقول أم كاذب فيه ، لتتخلص من الوعيد .

ونلحظ أن سليمان لم يقل : أصدقت أم كذبت ، بل قال : أم كنت من الكاذبين ؛ لأن تلفيق الأخبار المنمّقة ، واختيار الأسلوب الذي يستهوى السامع – من غير أن يكون للأخبار حقيقة تعبر عنها – لا يصدر إلا ممن مرن على الكذب ، وصار سجية له ، حتى لا يجد وسيلة للبعد عنه ، وهذا يفيد أنه كاذب على أتمّ وجه، ومن كان كذلك لا يوثق به .

والخلاصة : سأرى هل أنت صادق ، أم سجيتك الكذب .

٢٨ – ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ .

كان سليمان قد أعدَّ كتابًا لهذه الملكة ، ثم أمر الهدهد أن يحمله إليها فحمله الهدهد ، وألقاه من كوة فى قصرها تدخل منها الشمس ، فوقع على حجرها ، ثم اختفى الهدهد فى مكان لا يشاهدونه فيه ، وانشغل بمراقبة أحوالهم ومناقشاتهم ومراجعاتهم .

٢٩ – قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ .

يترك القرآن الكريم مساحة من القول ، يدركها السامع ويستنبطها .

أى : ذهب الهدهد فألقى الخطاب إلى الملكة ، فى نظام عجيب لم تشاهد أمثاله الملوك ، فالرسول حامل الخطاب هدهد يتطامن ويتسلل إلى مخدع الملكة ، ويلقى إليها الخطاب ، ثم ينصرف فى أدب ، ليترك لها فرصة المحاورة مع أهل الحل والعقد من حاشيتها .

ومعنى الآية :

جمعت المرأة حاشيتها ، وأخبرتهم بأن كتابًا كريمًا قد ألقى إليها ، وطلبت المشورة فى هذا الخطب الذى نزل بها .

وفى الآية إيماء إلى الأمور الآتية :

١ – سرعة الهدهد فى إيصال الكتاب إليهم .

٢ – أنه أوتى قوة المعرفة فاستطاع أن يفهم بالسمع كلامهم .

٣ – أنها ترجمت ذلك الكتاب فورًا بواسطة مترجميها ، أو تعرّفت على محتواه إن كان باللغة التى تنطق بها .

٤ – أن من آداب رسل الملوك أن يتنحوا قليلاً عن المرسل إليهم بعد أداء الرسالة ، ليتشاور المرسل إليهم فيها.

٣٠ ، ٣١ – إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ .

إن هذا الخطاب من سليمان رسول الله ، وبدايته : بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ . بأمر الله الخالق الإله الواحد ٱلرَّحْمَـٰنِ . كثير الرحمة . ٱلرَّحِيمِ . الذى يتفضل برحمته على عباده ، أدعوكم ألا تتكبروا على دعوتى، وأن تدخلوا فى دينى وهو الإسلام ، والخطاب على إيجازه خطاب بارع ، مشتمل على الأمور الآتية :

١ – إثبات الألوهية والوحدانية للَّه ، وكونه رحمانًا رحيمًا .

٢ – نهيهم عن اتباع أهوائهم ، ووجوب اتباعهم للحق .

٣ – أمرهم بالمجيء إليه منقادين خاضعين ، وبهذا يكون الخطاب قد جمع كل ما لابد منه فى الدّين والدنيا.

★ ★ ★

﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

أفتونى : أشيروا علىّ بما عندكم من الرأى والتدبير فيما حدث .

قاطعة أمرا : قاضية وفاصلة فيه .

تشهدون : تحضرونى .

أولو قوة : وفرة فى العدد والآلات .

البأس : النجدة المفرطة ، والبلاء فى الحرب .

الأمر إليك : البتُّ فى الأمور موكول إليك .

دخلوا قرية : محاربين منتصرين .

أفسدوها : خرَّبوها وقلبوا أوضاعها ، وأتلفوا عمرانها .

أذلة : مهانين بالقتل والأسر ، جمع ذليل .

هدية : عطية عظيمة .

التفسير :

٣٢ - قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ .

تشهد الآية بأن الملكة جمعت حاشيتها ، وقادة جيوشها ، وكررت طلب المشورة منهم ، وقالت : أشيروا علىَّ ، وشاركونى فى الرأى فيما نزل ، فليس من شأنى أن أحسم الأمور وأبدى الرأى فيها قبل مشورتكم .

ومثل هذا السير ، واستشارة الحاكم لأهل الحل والعقد فى أمور مملكته ، أمر حكيم ، حث عليه الإسلام وأمر به القرآن المكىّ والمدنى قال تعالى : **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ... (الشورى : ٣٨) .

وقال سبحانه : **وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ** ... (آل عمران : ١٥٩) .

وكان النبى ﷺ أكثر الناس مشورة لأصحابه مع أن الوحى ينزل عليه ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون ، ومن سار على نهجهم .

٣٣ - قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ .

قال أهل مشورتها ، وقادة جيوشها ، وقد أحسُّوا رغبة الملكة فى التعرف على رأيهم ، ومدى مناصرتهم لها فى مقاومة سليمان :

نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ...

أصحاب خبرة فى الحرب ، والكر والفر ، مع وفرة فى العدد والآلات ، والاستعداد للحروب ، والمقاومة للغزاة ، لا ترهبنا قوة ، ولا ينهنهنا وعيد ، وهذا دورنا وهذه مهمتنا ، وأمّا البتُّ فى الأمور فهو موكول إليك ، تقضين فيه بما تشائين ، سلمًا وحربًا .

قال القرطبى : أخذت فى حسن الأدب مع قومها ، ومشاورتهم فى أمرها فى كل ما يعرض لها ، فراجعها الملأ بما يُقر عينها ، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ، ثمّ سلموا الأمر إلى نظرها ، وهذه محاورة حسنة من الجميع .

ونقل ابن كثير عن الحسن البصرى أنه قال : فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا ، كانت هى أحزم رأيا منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه ، وما سُخر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرًا عجيبًا بديعًا فخافت أن ينتصر سليمان عليها وعلى قومها .

٣٤ - قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ .

قالت بلقيس للملأ من قومها ، وقد أحسَّت منهم الرغبة فى الحرب : لا طاقة لنا بحرب سليمان الملك ، فالملوك عادة إذا دخلوا بلدًا فاتحين منتصرين ، أو غزاة قاهرين ، فإنهم يفسدون هذا البلد ، بقتل الملوك والقادة وأسرهم ، أو نفيهم وإخراجهم من البلد .

وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ... أنزلوا الملوك والقادة والوزراء والأمراء من منازلهم ، وحوَّلوهم إلى مشردين مأسورين مطرودين . فإهانة الأشراف وتبديل القيادات ، أمر مستمر لهم ليضمنوا استمرار سيطرتهم على البلد ، وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ . وهذا شأنهم وديدنهم ، فى كل وقت وحين .

٣٥ - وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ .

كانت ملكة أريبة عاقلة ، داهية ذكية ، فإذا كانت لا تطيق حرب سليمان ، فلتشتر مودته ، فقررت أن ترسل إليه هدية عظيمة ، تليق بأمثاله ، من الذهب واللؤلؤ والدُّر ، والغلمان والوصيفات .

قال قتادة : ما كان أعقلها فى إسلامها وشركها !! علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس .

وقال ابن عباس : قالت لقومها : إن قَبِل الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى صادق فاتبعوه[٦٦] .

فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ .

سأرى وأشاهد ما تشاهده الرسل ، الذين أُرسلهم بالهدية لمشاهدته ومقابلته ، وتعرُّف أحواله ، ثم أقرر ما يقتضيه المقام .

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

المفردات :

أتمدونن : تساعدوننى .

لا قبل لهم بها : لا طاقة لهم بلقائها ، وأصل القِبَل : المقابلة ، ثم جُعل فى الطاقة.

صــاغـــرون : مهانون أذلة .

التفسير :

٣٦ – فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِ ۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ .

ذكر غير واحد من المفسرين : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة ، من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك .

قال ابن كثير : والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب ، فلم ينظر سليمان إلى ما جاءوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكرًا عليهم : **أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ؟**

أى : أتصانعوننى لأترككم على شرككم وملككم ؟

فَمَآ ءَاتَـٰنِ ۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم ...

أى : ما أعطانى الله من الملك والنبوة والرسالة ، ومحبة الآخرة ، وإيثار ما يرضى الله ، خير مما أنتم فيه.

بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ .

أى : أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة فى الدنيا .

٣٧ – ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ .

أى : قال لرئيس الوفد : ارجع إليهم بالهدية ، فلن أقبلها ، ولا أقبل إلا الإسلام أو السيف ، ولدىّ جنود لا طاقة لهم بقتالهم ، وسنخرجهم من بلدهم أذلاء حقراء إن لم يأتونى مسلمين .

جاء فى حاشية زاده على البيضاوى : قال ابن عباس : لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان ، وأخبروها الخبر ، قالت : قد عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وبَعثَتْ إلى سليمان إنى قادمة إليك بملوك قومى ، حتى أنظر ما أمرك ، وما تدعو إليه من دينك ، ثم ارتحلت إليه فى اثنى عشر ألف قائد .

وقال ابن كثير : فلما رجعت رسلها بهديتها ، وبما قال سليمان ، سمعت وأطاعت هى وقومها ، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، ناوية متابعته فى الإسلام ، ولما تحقق سليمان عليه السلام من قدومها عليه ، فرح بذلك وسَرَّه .

★ ★ ★

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ
ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ
لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ
قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا
كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ
قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ
لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

العرش : سرير الملك .

مسلمين : خاضعين منقادين .

عفريت : مارد خبيث .

لقوى : لقادر عليه لا يثقلني حمله .

أمين : لا أختلس منه ولا أغير فيه .

من مقامك : من مجلسك الذى تجلس فيه للقضاء ، أو من جلستك .

الذى عنده علم : سليمان ، أو آصف بن برخيا وزير سليمان ، وقيل : الخضر ، وقيل : ملك أيده الله به .

يرتد : يرجع .

الطرف : تحريك الأجفان ، والمراد بذلك : السرعة العظيمة .

مستقرا : ساكنًا قارًا على حاله التى كان عليها .

الفضل : التفضل والإحسان .

ليبلونى : ليختبرنى .

أم أكفر : أقصر فى أداء واجب الشكر .

تمهيد :

رفض سليمان هدية بلقيس ، حيث إنه دعاها إلى الإسلام هى وقومها ، فرغبت فى مهادنته ، بإرسال هدية أشبه برشوة ، للمهادنة والسكوت عنهم ، فرفض سليمان الهدية ، وأنذرهم بالحرب ، وكان لهذا الإنذار أثره ، وقد تأكد لدى الملكة أن سليمان صادق فى دعوته ، ولديه من وسائل القوة ما يكفى للنصر ، وقتل أعدائه وأسرهم ، فأرسلت إليه تخبره بقدومها ، مع أشراف قومها ورؤسائهم ، وكانت الجن تخدم سليمان ، وتخبره بتحرك بلقيس مع رؤساء قومها ، فرغب سليمان أن يُحضر عرش بلقيس ، قبل أن تأتى وتظهر إسلامها .

التفسير :

٣٨ – قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ .

قال سليمان : أيها السادة الأعوان ، أريد إحضار عرش الملكة من اليمن إلى الشام ، فى وقت وجيز قبل قدومها مسلمة ، ليتأكد لديهم ما منحنى الله من العناية والتأييد، وتسخير القوى الخارقة لخدمتى، وتأييدى بالمعجزات ، فيكون لذلك أثره فى تعميق الإيمان فى قلوبهم .

وذكر بعض المفسرين أنه أراد إحضار العرش قبل أن يأتوه مسلمين ، لأنه بعد إسلامهم لا يحل له الاستيلاء على العرش ، والظاهر : أن نبى الله سليمان كان زاهدا فى الهدايا ، راغبًا فى ثواب الله ، وقيل : أراد أن يختبر ذكاء الملكة ، عند تنكير العرش وتبديل بعض صفاته .

٣٩ – قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ .

أى : قال شيطان مارد من الجن : أنا أستطيع إحضاره فى فترة مجلسك للقضاء ، وكان يمتد قرابة نصف نهار ، من الضحى إلى الظهيرة ، وإنى على هذا العمل قوى متمكن منه ، أمين على ما به من الجواهر الثمينة . فقال سليمان : أريد من ينقله فى فترة أقلّ من هذه الفترة .

٤٠ – قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ... الآية .

أى : قال شخص عنده علم بأسرار الكتاب الإلهى ، والتشريع وألوان الهدايات : أنا أحضره لك فى لمح البصر ، قبل أن تغمض عينيك ، وقبل أن يرجع إليك نظرك ، وهذا العالِم ، قيل : كان من الملائكة ، إما جبريل وإما غيره من الملائكة ، أيَّد الله تعالى به سليمان عليه السلام . وقيل : كان من الإنس ، وهو آصف بن برخيا

وزير سليمان ، وهو المشهور من قول ابن عباس ، وكان يعلم الاسم الأعظم الذى إذا دُعى به أُجيب ، وقيل : ياحىّ يا قيوم . هو الاسم الأعظم ، وقيل : الذى عنده علم من الكتاب هو الخضر عليه السلام .

والرابع فى رأى الرازى أنه سليمان عليه السلام ؛ لأنه أعرف بالكتاب من غيره، لأنه هو النبىّ .

وقال أبو حيان : ومن أغرب الأقوال : أنه سليمان عليه السلام ، كأنه يقول لنفسه : أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك . والمهم أنه حدث ما وعد به هذا العالم ، والله أعلم به ؛ والأوفق أن يقال : عبد صالح عالم بكتاب الله وشرائعه ، أو أسرار أسمائه الحسنى ، أحضر العرش فى طرفة عين ، وكان ما عنده من علم بالكتاب باعثًا له على الترقى الروحى والسمو النفسى ، واستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار .

فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ...

لمست هذه النعمة قلب سليمان ، حين رأى العرش مستقرًا وموجودا فى مكان يجاوره ، فى سرعة لمح البصر ، فأرجع النعمة إلى المنعم ، وقال : هذا من فضل الله ومعونته ؛ ليختبرنى هل أشكر النعمة فأنسبها إلى صاحبها وهو الله ، أم أجحد وأقول إن ذلك بحُسْن تقديرى وقدرتى .

وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ .

من شكر الله تعالى فإن الله يزيده من نعمائه ، ويعطيه المعونة والتوفيق والبركة ، ومن كفر فإن الله غنى عنه، كريم متفضل يعطى العباد ولا ينتظر الجزاء .

قال تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : «يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنّكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلاّ نفسه» .

ثم أراد سليمان أن يختبر بلقيس ، كما حكى تعالى :

٤١ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ .

قال سليمان : غيرّوا فى صفات العرش بالزيادة والنقصان مثلا ، أو جعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه؛ لنختبر ذكاءها وقدرتها على الإجابة فى أحداث غريبة .

فقد تركت عرشها فى اليمن وحوله أبنية ضخمة وحراس أقوياء ، وهى تراه مستقرا فى بيت المقدس على مسافة بعيدة ، لكنها كانت فى غاية الذكاء ، واهتدت إلى إجابة مناسبة .

٤٢ - فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ...

أقبلت بلقيس من اليمن ، وشاهدت عرشها وفيه بعض التغيير ، وأمام هذه الدهشة المحيرة أجابت إجابة مناسبة .

قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ...

هو يشبهه إلى درجة بعيدة ، فلم تثبت ولم تنف .

واستطردت بلقيس فقالت :

وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ .

أى : أدركنا عظمة الله وفضله ، وعلمنا قدرته وسلطانه العظيم ، وعلمنا أن فضل الله على سليمان كان عظيما ، حيث سخر له الطير والجن وقوىً كونية ؛ فأسلمنا وآمنا بالله تعالى ربا ، وبسليمان رسولا .

والخلاصة : علمنا بالله ربا ، وبسليمان رسولا ، من قبل مشاهدة نقل هذا العرش أو تغيير أوصافه ، وهذا رأى جمهور المفسرين ، وبعضهم رأى أن الجملة من كلام سليمان ، وتفيد أن الله أعطاه العلم والإسلام والنبوة ، والفضل العظيم فى تسخير قوى الكون ، والرأى الأول أرجح .

٤٣ - وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ .

أى : منعها عن الإيمان بالله عبادتها القديمة للشمس والقمر .

إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ . أى : بسبب كفرها ونشوئها بين قوم مشركين .

وقال ابن كثير :

وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ . هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام فى قول مجاهد ، أى : قال سليمان : وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ .

وهى كانت قد صدّها ، أى : منعها من عبادة الله وحده . مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ .

وهذا الذى قاله مجاهد ، هو قول سعيد بن جبير ، وقد اختاره ابن جرير ، وابن كثير .

٤٤ – قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

كان سليمان عليه السلام قد بنى قصرا من البلور ، أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة .

فلما قيل : ادخلى قصر سليمان عليه السلام، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة من الماء ؛ فكشفت عن ساقيها ، لتمنع ثيابها من البلل . فقال سليمان عليه السلام : إنه قصر مملّس من الزجاج الصافى .

وهنا نجد الملكة تتابع أمامها مشاهد المفاجآت ، واحدة وراء الأخرى ، وتشاهد هنا عظمة بالغة فى بناء القصر ، والصرح العظيم ، والمياه المتدفقة ، والزجاج المموج ، وألوان التقدم العلمى والتقنى والفنى ، مع العظمة الباهرة فى الجنود والأتباع ، والقصور والقوى العجيبة المسخرة ، فأعلنت ندمها على عبادة الشمس من دون الله ، وتأخير إسلامها وإيمانها بالله رب العالمين . قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ... بالشرك وعبادة الشمس .

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

وتابعت سليمان فى دينه ، والإيمان والانقياد لله رب العالمين ، وخالق الأكوان من الأزل إلى الأبد .

قال ابن كثير : والغرض أن سليمان عليه السلام ، اتخذ قصرًا عظيمًا ، منيفًا من زجاج لهذه الملكة ، ليريها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله ، وعظمة ما هو فيه ، وتبصرت فى أمره ، انقادت لأمر الله تعالى ، وعرفت أنه نبى كريم ، ومليك عظيم ، وأسلمت لله عز وجل .

لطيفة : أخذ بعض العلماء من قوله تعالى : وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ... استحباب تفقد الملك لأحوال الرعية ، وكذلك تفقد الأصدقاء ، والإخوان ، والخلان ، وأنشد بعضهم :

سنّ سليمان لنا سُنّةً		وكان فيما سنّه مُقتدى
تفقد الطير على ملكه		فقال : مالىَ لا أرى الهدهدا

خاتمة

تبلورت قصة سليمان مع بلقيس فى تلك الخاتمة المشرقة ، وهى تبرّؤ بلقيس من الشرك الذى كانت عليه ، وإعلان إيمانها بالله الواحد الأحد ، وإظهار إسلامها كإسلام سليمان ، وخضوعها لله رب العالمين .

هل تزوج سليمان بلقيس ؟

يستطرد المفسرون فى نهاية هذه القصة إلى قضية زواج سليمان عليه السلام من بلقيس ، قال الرازى : والأظهر فى كلام الناس أنه تزوجها ، وليس لذلك ذكر فى الكتاب ، ولا فى خبر مقطوع بصحته.

وذكر الرازى فى تفسيره عن ابن عباس : أنها لما أسلمت قال لها سليمان : اختارى من قومك من أزوجك منه ، فقالت : مثلى لا ينكح الرجال مع سلطانى ، فقال : النكاح من الإسلام ، فقالت : إن كان كذلك فزوجنى ذا تبع ، ملك همدان ، فزوجها إياه ثم ردهما إلى اليمن ، ولم يزل بها ملكًا ، والله أعلم .

خلاصة نعم الله على سليمان عليه السلام

ذُكر سليمان عليه السلام فى القرآن الكريم ست عشرة مرة فى سور: البقرة، والنساء، والأنعام، والأنبياء، والنمل، وسبأ ، وقد بين القرآن نعم الله الكثيرة عليه ومن بينها ما يأتى .

١ – ذكاؤه وفراسته فى القضاء ، فقد منح الله سليمان ذكاء نادرًا ، وإصابة فى القضاء والحكم ، وكان حكمه أصوب من حكم أبيه داود عليه السلام .

قال تعالى : ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ۞ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ . (الأنبياء : ٧٨ – ٧٩) .

وقد روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «سارت امرأتان ومع كل واحدة ولدها، واستراحتا فى الطريق فالتقم الذئب ابن إحداهما، فجاءتا إلى نبى الله داود ، الكبرى معها الولد وتقول : هو ولدى ، والصغرى تقول : بل هو ولدى ؛ فقضى داود بالولد للكبرى ، وسارتا عائدتين فوجدتا نبى الله سليمان ، فقال لهما : بم قضى الملك ؟ قالتا : قضى بالولد للكبرى . فقال سليمان : عدل الملك ، وغير ذلك كان أوفق ، فبلغ ذلك داود ، فأرسل إليه وسأله عن رأيه فقال : أرى أن نقسم الولد نصفين ، ونُعطى لكل واحدة نصفا ، فليست إحداهما أحق به من الأخرى ، فأحضر الملك سيَّافًا ماهرًا وأحضر الصبىّ ، ووضع السيَّاف السيف على رأس الصبىّ ، ليقسمه نصفين ، فصرخت الصغرى وقالت : هو ولدها فلتأخذه كله ، فقضى سليمان بالولد للصغرى»[٦٧] .

٢ – تعليم الله له منطق الطير ، فكان يفهم مراد الطيور من أصواتها ، قال تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النمل : ١٦) .

٣ - تسخير الرياح له تنقله من مكان إلى آخر بعيد ، ويوجه الرياح حيث يشاء ، قال تعالى : وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ... (الأنبياء : ٨١) .

وقال تعالى : فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ . (ص : ٣٦) .

وقال تعالى : وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ... (سبأ : ١٢) .

٤ - تربية الخيول : وهى الصافنات الجياد للجهاد ، وكان رباط الخيل مندوبًا إليه فى ملة سليمان عليه السلام ، كما هو مندوب فى شرعنا .

روى البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذى ، والنسائى : أن رسول الله ﷺ قال : «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم»[٦٨] .

وكان سليمان يستعرضها مسرورًا بها ويمسح بناصيتها وسوقها وأعناقها ، تشريفًا لها وإعزازًا لنعمتها فى جهاد العدو ، وتفقدًا لأحوالها وأمراضها وعيوبها ، قال تعالى : وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ . (ص : ٣٠ - ٣٣)

وأما تفسير الآيات بما يفيد أن سليمان انشغل بالخيل عن صلاة العصر حتى غربت الشمس ، فطلب إعادة الخيل عليه فقطع أعناقها وسوقها فمما يتنافى مع منصب النبوة ، كما ذكره الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير .

٥ - فتنة سليمان ، وإلقاء الجسد على كرسيه ، وقد اختار العلامة أبو السعود والآلوسى فى هذا الموضوع ما ورد فى الصحيحين مرفوعًا : «أن سليمان قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة من زوجاتى، تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل ، والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون»[٦٩] .

قال تعالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ . (ص : ٣٤ - ٣٧)

وأما التفاسير الأخرى المشوبة بالأخلاط والروايات الإسرائيلية ، فلم تصحّ ولا يعوّل عليها .

٦ – إسالة عين القطر (النحاس المذاب) له : أنعم الله على سليمان عليه السلام بتطويع النحاس المذاب له ، لاستخدامه لتوثيق المبانى العظيمة الضخمة ، ذات الحجارة الكبيرة ، مثل الهيكل المعروف بهيكل سليمان ، كما ذكر تعالى : وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ... (سبأ : ١٢).

٧ – تسخير الجن لسليمان، تبنى له المحاريب والقصاع الكبيرة، والقدور الراسيات والتماثيل ، وكانت التماثيل جائزة الصنع عندهم، قال تعالى : وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ... (سبأ : ١٢ ، ١٣)

وقال سبحانه : فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (ص : ٣٦ – ٣٩) .

ومن هذه الآيات يتبين أن العصاة والمردة من الجن ، يسر الله له عقوبتهم ، وتقييدهم فى السلاسل والأغلال، وظل الجن يخدمون سليمان ، ويلبون أوامره ومن تمرّد على طاعته عاقبه وسجنه وقيده بالسلاسل.

٨ – إسلام ملكة سبأ على يديه ، فقد علم من الهدهد قصتها فأرسل لها رسالة يدعوها للإسلام ، ورغبت الملكة فى مجاملته ومصانعته ، فأرسلت له هدية فرفضها ، وهددها بالحرب ، فخشيت الملكة عاقبة الحرب ، ليقينها بأن الله سخر له الجن والطير والإنس ، وقوى عظيمة تساعده ، فجاءت بلقيس مع قومها ، وأعلنت إسلامها ، وعرض عليها سليمان مقدرته وتفوقه ، فنقل عرشها فى طرفة عين، وبنى لها قصرًا عظيمًا ، ومرّد أرضه بالزجاج ، وهذا فن مستحدث لا عهد لأهل اليمن به ، ثم لما دخلته حسبته ماءً ، فكشفت عن ساقيها لتخوضه ، فقال لها سليمان : إنه صرح أملس من الزجاج ، مموه بألوان المياه ، يُهيأ لمن شاهده أنه لجة الماء ولكنه زجاج فوق الماء ، عندئذ أحسَّت الملكة أنها أمام مشاهد عجيبة ، تعجز عن تفسيرها ، وكلها تدل على أن سليمان رسول مؤيد بالمعجزات ، ومعونة الله رب العالمين ، فأعلنت إسلامها وقالت : رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

٩ – قصة النملة التى أحست بقدوم سليمان وجنوده ، فأمرت قومها بدخول مساكنهم ، وفهم سليمان لغتها ، وشكر الله على نعمه ، قال تعالى : وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ . (النمل : ١٧ – ١٩) .

١٠ – موت سليمان : عندما مات سليمان أخفى الله موته على الجن مدة طويلة ، قيل : إنها قرابة عام ، فظلت الجن مسخرة فى البناء والأعمال الصعبة ، حتى لا تدَّعى الجن أنها تعرف الغيب ، قال تعالى : فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ . (سبأ : ١٤) .

إن هذا الملك والتسخير والمقدرة ، وتذليل الرياح والطير والجن ، وعين القطر والتشييد والإعمار ، لابد له من نهاية محتومة هى الموت ، كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . (الأنبياء : ٣٥).

★ ★ ★

قصة صالح مع قومه ثمود

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

المفردات :

فريقان : طائفتان : طائفة مؤمنة ، وأخرى كافرة .

يختصمون : يتنازعون .

اطيرنا : تشاءمنا بك .

طائركم : ما يصيبكم من الخير والشر ، والطيرة : تعليق الخير او الشر على طيران الطائر يمينًا أو شمالاً .

تفتنون : تختبرون بتعاقب السرّاء والضرّاء

المدينة : المراد بها : الحِجْر .

الرهط : النفر من الثلاثة إلى التسعة .

تقاسموا : احلفوا .

البيات : مباغتة العدو ، ومفاجأته بالإيقاع به ليلاً

وليّه : .من له حق القصاص من ذوى قرابته إذا قتل .

المهلك : الهلاك .

المكر : التدبير الخفى لعمل الشرّ .

دمرناهم : أهلكناهم .

خاوية : خالية :

لآية : لعبرة وعظة .

تمهيد :

فى سورة النمل نجد طرفًا من قصة موسى تحكى أفضال الله عليه ، ثم جانبًا محدودًا من قصة داود عليه السلام ، ثم حديثًا موسَّعًا عن قصة سليمان مع النملة ومع الهدهد ، ومع بلقيس التى أسلمت مع سليمان لله رب العالمين ، ونجد طرفًا من قصة نبى الله صالح مع قومه ثمود ، وكثيرًا ما كانت تذكر مع قصة عاد ونبيهم هود ، فى سياق قصص عام ، مع نوح ولوط وشعيب ، وأحيانًا تجىء قصة إبراهيم فى هذا السياق أو لا تجىء .

أما فى هذه السورة – سورة النمل – فقد كان التركيز فيها على قصص بنى إسرائيل ، فقد جاءت قصة موسى ، وقصة داود وسليمان ، ثم جاءت قصة صالح مع ثمود ، ولم تذكر قصة الناقة ، إنما يذكر فيها تبييت الرهط التسعة المفسدين لصالح وأهله ، ومكرهم به وهو لا يشعر ، فمكر الله بالمفسدين وهم لا يشعرون ، ودمَّرهم وقومهم أجمعين ، وترك بيوتهم خاوية ، وجعلها لمن بعدهم آية ، والمشركون فى مكة يمرون بهذه البيوت المدمَّرة الخاوية ولكنهم لا يعتبرون .

التفسير :

٤٥ – وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ .

فى أعقاب قصة سليمان وإيمان بلقيس ملكة سبأ ، يذكر الله تعالى جانبًا من قصة صالح مع قومه ثمود.

المعنى :

والله لقد أرسلنا رسولنا صالحًا إلى قومه ثمود ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فآمن به فريق من المؤمنين ، وكفر به فريق من الكافرين ، وكان الفريق الجاحد الكافر أكثر عددًا ، وأكثر قوة ، وقد أشارت إلى هذا المعنى سورة الأعراف فى قوله تعالى : قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ . (الأعراف : ٧٥ ، ٧٦) .

٤٦ - قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

أى : قال صالح لقومه مستميلاً لهم : لم تعاجلون بالتكذيب والجحود والنكران قبل الإيمان والتوبة والإنابة .

لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

هلا تبتم إلى الله ، وآمنتم به رجاء أن ينزل بكم رحمته وفضله ومعونته .

٤٧ - قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ .

أى : قالوا : تشاءمنا بك وبمن معك من المؤمنين ، فمنذ قدمت بدعوتك أصابنا القحط ، وشاعت فينا الفرقة واشتد الخلاف ، وهكذا نجد من دسَّى نفسه وغلب عليه الكفر والضلال ، ينسب الشر إلى رسول الله والمؤمنين به ، والحقيقة أن الله تعالى قد قسَّم لكل إنسان رزقه وعمره وأجله ، وشقاءه أو سعادته حسب اختياره ، بعد أن أعطاه العقل والفكر ومنحه الرأى والاختيار .

قال صاحب الظلال ما ملخَّصه :

قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ...

حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله ، والله قد سنّ سننًا ، وأمر الناس بأمور ، وبين لهم الطريق المستنير ، فمن اتبع سنة الله وسار على هداه فهناك الخير ، ومن انحرف عن سنة الله فهناك الشر . ا هـ .

وسمى التشاؤم تطيرًا من عادة العرب بزجر الطير ، أى : رميه بحجر ونحوه ، فإن تحوّل يمينًا تفاءلوا، وسمّوه السانح ، وإن اتجه يسارًا تشاءموا وسمّوه البارح .

بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ .

يختبركم الله بإرسال الرسول وإنزال هداية السماء ، ليرى مَن المؤمن المستحق للنجاة ، ومَن الكافر الجاحد المستحق للعقوبة .

والبشرية دُعيت إلى الإيمان بالله تعالى ربا ، والإيمان برسالة الرسل ، ولكن التكذيب لازم المكذبين ، والتطيُّر لازم أعداء الدين سابقًا ولاحقًا ، فنرى بعض الناس يعلِّقون أهمية ضخمة على رقم ١٣، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم ، وعلى إشعال أكثر من لفافتين بعود ثقاب واحد ، إلى آخر هذه الخرافات الساذجة ، ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة ، وهى جوعتها إلى الإيمان وعدم استغنائها عنه ، وبهذا الإيمان توجد العقيدة السليمة والسلوك السوى والتوفيق الإلهى ، قال تعالى : وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (هود : ٨٨)

٤٨ - وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ .

وكان فى مدينة ثمود - وهى الحجر - تسعة رجال من أشراف قومها وسادتها ، وقيل : كانوا رؤساء، وراء كل واحد منهم جنوده وأتباعه ، منهم قدار بن سالف عاقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وقادة الشرّ فيهم، يفسدون فى الأرض ، ويتتبعون عورات الناس ومعايبهم ، يظلمون الناس ولا يمنعون الظالم عن ظلمه، ولا يعملون صالحًا ، ولا يدعون إليه ولا يعرفون طريقه ، فعادتهم الدائمة المستمرة الإفساد البحت الذى لا يخالطه الصلاح فى عمل أو قول ، وهم الذين تواطأوا على عقر الناقة ، وعلى قتل صالح ومن آمن به .

٤٩ - قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ .

أى : قال بعضهم لبعض أثناء المشاورة فى قتل صالح ومن آمن به : احلفوا لنباغتنّه وأهله بالهلاك ليلاً ، ثم لنقولن لأولياء الدم ما حضرنا هلاكهم ، ولا ندرى من قتل صالحًا ولا من قتل أهله ، ونحلف إنا لصادقون فى قولنا .

قال الزجاج : كان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيّتوا صالحًا وأهله ، ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك ولا رأوه ، وكان هذا مكرًا منهم .

٥٠ - وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

دبَّروا أمرًا خفيًا فى قتل صالح ومن آمن به ليلاً ، ثم الحلف بعد ذلك أنهم ما فعلوا هذا ولا شهدوه ، والحلف أنهم صادقون . دبَّروا ذلك ، فدبّر الله إهلاكهم فى الشِّعب ، من حيث لا يشعرون أن الله يستدرجهم إلى الإهلاك .

٥١ – فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ .

فتأمل يا محمد ، وتأمل يا كلَّ من يتأتى منه النظر والتفكر ، كيف كان مصير تآمرهم ، أنا أهلكناهم وقومهم جميعًا ، ولم نبق أحدًا منهم ، إلا الذين آمنوا بصالح عليه السلام .

ملاحظة : المكر هنا تدبير الفتك بصالح وأهله ، ومكر الله مجازاتهم وإهلاكهم ، وسميت المجازاة مكرًا للمشاكلة ، كما فى قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ ... (النساء : ١٤٢) . وكما فى قوله تعالى : وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ . (آل عمران : ٥٤) .

وكان صالح – عليه السلام – قد توعدهم بالهلاك خلال ثلاث ليال ، فقالوا : تعالوا نهلكه قبل أن يهلكنا ، فأرسل الله صخرة أهلكت هؤلاء التسعة ، ثم صاح بهم جبريل صيحة مدمرة ، وأمطرت السماء حجارة قاتلة ، قتلت جميع الكافرين .

قال القرطبى : والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد ، ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة .

٥٢ – فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

هذه مساكنهم خاوية خربة مظلمة ، بسبب ظلمهم وكفرهم وعنادهم ، إن فى ذلك لبينة ودليلاً وموعظة لأناس أهل معرفة وعلم ، يعلمون سنّة الله فى خلقه ، وأن النتائج مرتبطة بالأسباب ، وأن الظلم مؤذن بالخراب والهلاك ، وأن الله تعالى بالمرصاد لكل ظالم ، قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ * إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا . (الشمس : ١١ – ١٥) .

٥٣ – وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ .

أنجينا المؤمنين الذين آمنوا بصالح ، وكانوا يتقون الله ويبتعدون عن المعاصى ، قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل ، حيث خرج بهم إلى أطراف الشام ، ونزل رمْلة وفلسطين .[٧٠] والله أعلم بصحة ذلك .

اللهم ثبتنا على الإيمان ، اللهم لا تهلكنا بعذابك ونجّنا قبل ذلك ، اللهم وفقنا للصالحات ، وأمدنا بمعونتك ، وعنايتك وفضلك وهدايتك ورحمتك ، يا أرحم الراحمين .

★ ★ ★

قصة لوط مع قومه

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

المفردات :

الفاحشة : الفعلة الشنيعة المتناهية فى القبح .

تبصرون : تعلمون عاقبة فعلها ببصيرتكم ، أو يبصر بعضكم بعضًا علانية أثناء الفاحشة .

تمهيد :

هذه هى القصة الرابعة فى هذا الجزء التاسع عشر ، وتتمتها فى الجزء العشرين ، فقد قسم العلماء القرآن إلى ٣٠ جزءًا ، والجزء إلى حزبين ، والحزب إلى أربعة أرباع . وكان القصد من ذلك تيسير الحفظ والقراءة ، وتمّ هذا التقسيم من ناحية الكمّ ، ولو رُوعى فيه ناحية الكيف لتمت القصة فى الجزء التاسع عشر ، أو ابتدأ بها الجزء العشرون ، لكنهم التزموا بعدد الآيات وكميتها ، ونلتمس لهم العذر فى ذلك .

التفسير :

٥٤ - وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ .

أى : واذكر لوطًا حين حذَّر قومه من المثلية الجنسية ، وعاقبة اللواط ، واستغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، فقال لوط لقومه : أترتكبون المنكر الغليظ ، وتفعلون فاحشة لم يسبقكم إليها أحد من العالمين ، وأنتم تعلمون مبلغ قبحها وشناعة جرمها ، ففيها ضرر شديد للمفعول به ، وضرر شديد للفاعل ، وقيل : كانوا يأتون المنكر فى مجتمع ويشاهد بعضهم بعضًا ، فأنكر لوط عليهم هذه الأفعال ، والاستفهام هنا استفهام إنكارى .

٥٥ - أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ .

صرح هنا بعملهم منكرًا عليهم ، حيث قال لهم : والله إنكم لتجامعون الرجال فى أدبارهم ، وتقودكم الشهوة إلى هذه الفعلة الشنعاء ، وتذرون النساء التى خلقت لهذه الشهوة حيث فيهن الجمال والمتعة واستكمال الاستمتاع بين الذكر والأنثى ، حيث خلق الله الرجل مجهزًا لاستقبال الأنثى ، وألهم كل طرف كيف

يأتى الطرف الآخر ، حتى الحيوان الأعجم لا يفعل مثل أفعالكم ، كما قال سبحانه وتعالى فى موضع آخر : أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ . (الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦) .

فهم قوم خارجون على الفطرة ، وقد وضح لهم لوط سوء عملهم فى ثلاثة أمور هى :

١ – إتيان الرجال فى مكان الغائط .

٢ – ترك النساء ، ولهن حق الاستمتاع والإمتاع من زوج كريم مستقيم .

٣ – أن هذا عمل الجهلاء الذين لا عقول لهم ، ولا يدركون قبح ما يفعلون ، فقال :

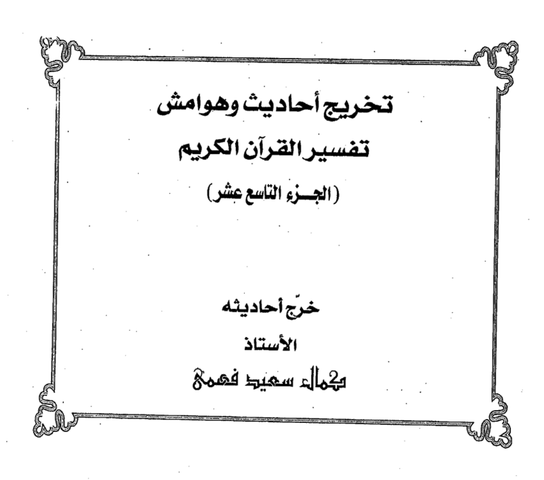
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ .

تفعلون فعل السفهاء الممعنين فى الفحش ، وعدم تقدير العاقبة ، وما يترتب على ذلك من أمراض حسية وسلوكية ، فعملكم هذا عمل الجهلاء الذين لا يميِّزون ولا يعقلون الفرق بين الحسن والقبيح ، وإزاء كل ذلك أجابوه بما لا يصلح أن يكون جوابًا مقبولاً ولا معقولاً فى ميزان العقلاء ، وهو ما سيأتى فى مطلع الجزء التالى إن شاء الله ، والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★

تم الجزء التاسع عشر

ويليه الجزء العشرون إن شاء الله تعالى



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجــزء التاسع عشر)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٣١٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٣١٤ .

(٣) نقلا عن تفسير ابن كثير ٣ / ٣١٥ .

(٤) الملك : مبتدأ . يومئذ : ظرف للمبتدأ . الحق : نعت له . للرحمان : خبره .

(٥) إن الله تعالى يطوى السماء :

رواه مسلم فى صفة القيامة ح ٤٩٩٥ ، وأبو داود فى السنة ح ٤١٧٠ .

(٦) كان خلقه القرآن :

رواه مسلم فى أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المسافرين ح ١٢٣٣، وأحمد مختصرًا ح ٢٣٤٦٠، ٢٤١٣٩، ٢٤٦٢٩ .

(٧) إن الذى أمشاه على رجليه :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٣٠٦٧ ، وأحمد فى مسنده ح ٨٢٩٣ ، ٨٤٠٠ ، ١٢٢٤٧ من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن .

(٨) يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٧٧ ، وأحمد ٥ / ١٥٤، ١٦٠ ، ١٧٧ ، والترمذى ح ٢٤٩٥ ، وابن ماجة ح ٤٢٧٥ ، وعبد الرزاق ح ٢٠٢٧٢ من حديث أبى ذر .

(٩) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم :

رواه البخارى فى الصلاة ح ٤١٥ ، وفى أحاديث الأنبياء ح ٣١٢ ، ٣١٣ ، وفى المغازى ح ٤٠٧٦ ، ٤٠٨٦ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٣٣٣ ، ومسلم فى الزهدح ٥٢٩٢ ، ٥٢٩٣ ، وأحمد ٤٣٣٣ ، ٤٩٧٤، ٥٠٩٠ . من حديث عبد الله بن عمر بلفظ : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ....» الحديث .

(١٠) خير القرون قرنى :

رواه البخارى فى الشهادات ح ٢٤٥٨ ، ومسلم فى فضائل الصحابة ح ٤٦٠١ ، وأحمد فى مسنده ح ٣٤١٣ ، ٣٧٦٧ ، والترمذى فى المناقب ح ٣٧٩٤ ، وابن ماجة فى الأحكام ح ٢٣٥٣ ، من حديث عبد الله بن مسعود . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(١١) لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى :

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٣٩٧ ، ومسلم فى الإيمان ح ٣٠٧ ، وأحمد فى مسنده ح ٢٤١٣ ، والترمذى فى تفسير القرآن ح ٣٢٨٦ ، من حديث ابن عباس . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(١٢) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، طباعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، بوزارة الأوقاف بمصر ص ٥٣٧ .

(١٣) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، دار الشروق ٥ / ٢٥٦٩ .

(١٤) ذهبت النبوات وبقيت المبشرات ... الرؤيا يراها الرجل :

رواه مسلم فى الصلاة ح ٧٣٨ ، وأحمد ح ١٨١ ، والنسائى فى التطبيق ح ١٠٣٥ ، ١١٠٨ ، وأبو داود فى الصلاة ح ٧٤٢ ، وابن ماجة فى تعبير الرؤيا ح ٣٨٨٩ ، والدارمى فى الصلاة ح ١٢٩١ ، ١٢٩٢.

(١٥) فى رحاب التفسير : عبد الحميد كشك ٤ / ٢٢١٤ الناشر : المكتب المصرى الحديث .

(١٦) فى رحاب التفسير : عبدالحميد كشك ، المجلد الرابع ، نشر المكتب المصرى الحديث ، ٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة ت ٣٩٣٤١٢٧ .

(١٧) أتدرون ماذا قال ربكم ... أصبح من عبادى مؤمن وكافر :

رواه البخارى فى الأذان ح ٨٠١ ، وفى الجمعة ح ٩٨٠ ، وفى المغازى ح ٣٨٣٢ ، وفى التوحيد ح ٦٩٤٩، ومسلم فى الإيمان ح ١٠٤ ، وأحمد فى مسنده ح ١٦٤٤٤ ، وأبو داود فى الطب ح ٣٤٠٧ ، ومالك فى النداء للصلاة ح ٤٠٥ .

(١٨) أعطيت خمسا لم يعطهن نبى :

رواه البخارى فى التيمم ح ٣٢٣ ، وفى الصلاة ح ٤١٩ ، ومسلم فى المساجد ح ٨١٠ ، وأحمد ح ٢٦٠٦ ، والنسائى فى الغسل والتيمم ح ٤٢٩ ، والدارمى فى الصلاة ح ١٣٥٣ ، وفى السير ح ٢٣٥٨ .

(١٩) بعثت إلى الأحمر والأسود :

رواه أحمد فى مسنده ح ١٣٧٤٥ ، ١٨٩٠٢ ، ٢٠٣٣٧ ، ٢٠٣٥٢ ، والدارمى فى السير ح ٢٣٥٨ .

(٢٠) فى ظلال القرآن ١٩ / ٤٨ ، طبعة دار إحياء الكتب العربية .

(٢١) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ١٩ / ٣٢ .

(٢٢) إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه :

رواه البخارى فى بدء الخلق ح ٢٩٦٩ ، ومسلم فى القدر ح ٤٧٨١ ، وأحمد ح ٣٤٤١ ، ٣٨٨٢ ، والترمذى فى القدر ح ٢٠٦٣ .

(٢٣) سبحانك اللهم ربنا وبحمدك :

رواه مسلم فى الصلاة ح ٦٠٦ والترمذى فى الصلاة ح ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٤٤٣ ، وفى الدعوات ح ٣٣٥٥ ، والنسائى فى الافتتاح ح ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، وفى التطبيق ح ١١١٩ ، وفى السهو ح ١٣٢٧ ، وأبو داود فى الصلاة ح ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، وفى الأدب ح ٤٢١٦ ، ٤٢١٧ ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة ح ٧٩٦ ، ٧٩٨ ، ٨٧٩ ، وأحمد فى مسنده ح ٣٦٩٦ ، ٣٩٢٦ ، والدارمى فى الصلاة ح ١٢١١ ، وفى الاستئذان ح ٢٥٤٣ .

(٢٤) إن الله عز وجل يبسط يده بالليل :

رواه مسلم فى التوبة ح ٤٩٥٤ ، وأحمد ح ١٨٧٠٨ ، ١٨٧٩٣ .

(٢٥) إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق :

رواه أحمد فى مسنده ح ٨٥٩٥ من حديث أبى هريرة .

(٢٦) إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون :

رواه مسلم فى المساجد ح ٩٤٥ ، وأحمد ح ٦٩٥٢ ، ٩٥٥٠ ، ١٠٤٢٧ ، والترمذى فى الصلاة ح ٣٠١ ، والنسائى فى الإمامة ح ٨٥٢ ، وابن ماجة فى المساجد ح ٧٦٧ ، ومالك فى النداء للصلاة ح ١٣٧ . ورواه البخارى فى الأذان ح ٦٣٦، بنحوه .

(٢٧) انظر تفسير ابن كثير ، وفى رحاب التفسير للشيخ عبدالحميد كشك ٤ / ٢٢٩٥ .

(٢٨) لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث :

رواه البخارى فى الديات ح ٦٣٧٠، ومسلم فى القسامة ٣١٥٧ ، ٣١٦٧ ، والترمذى فى الديات ح ١٣٢٢ ، وفى الحدود ح ١٣٦٤ ، والنسائى فى تحريم الدم ح ٣٩٥١ ، وفى القسامة ح ٤٦٤٢ ، وأبو داود فى الحدود ح ٣٧٨٨ ، وابن ماجة فى الحدود ح ٢٥٢٥ ، وأحمد ح ٣٤٣٨، ٣٨٥٩ ، ٤٠٢٤ ، والدارمى فى الحدود ح ٢١٩٦ .

(٢٩) إنما الأعمال بالنيات :

رواه البخارى فى بدء الوحى ح ١ ، وأطرافه عنده : ٥٤ ، ٢٥٢٩ ، ٣٨٩٨ ، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩ ، ٦٩٥٣ ، ومسلم ح ١٩٠٧ ، وأحمد ١ / ٢٥ ، ٤٣ ، وأبو داود فى الطلاق ح ١٨٨٢ ، ٢٢٠١ ، والترمذى ح ١٦٧٤ ، وابن ماجة فى الزهد ح ٤٢١٧ .

(٣٠) إنى لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار :

رواه مسلم فى الإيمان ح ٢٧٣ ، ٢٨٨ ، والترمذى فى صفة جهنم ح ٢٥٢٠ ، وأحمد ح ٣٤١٤ ، ٧٧٦٢ ، ١٠٧٧٠ ، ١٤٤٢٠ .

(٣١) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر :

رواه البخارى فى الشهادات ح ٢٤٦٠ ، وفى الأدب ح ٥٥١٩ ، ٥٥٢٠ ، ومسلم فى الإيمان ح ١٢٦ ، ١٢٨ ، وأحمد ح ١١٨٨٦ ، ١٩٤٩١ ، ١٩٤٩٩ .

(٣٢) إذا مات ابن آدم انقطع عمله :

رواه مسلم فى الوصية ح ٣٠٨٤ ، والترمذى فى الأحكام ح ١٢٩٧ ، والنسائى فى الوصايا ح ٣٥٩١ ، وابن ماجة فى المقدمة ح ٢٣٨ ، وأحمد ح ٨٤٨٩ ، والدارمى فى المقدمة ح ٥٥٨ . وهو بلفظ : «إذا مات الإنسان ....» الحديث . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٣٣) تفسير النيسابورى (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) على مصحف التهجد ، ٣ / ٢٥٣٠ دار الصفوة .

٣٤) قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمان :

رواه مسلم فى القدر ح ٤٧٩٨ ، وأحمد ح ٦٢٨١ ، ٦٣٢١ .

٣٥) رواه مسلم فى الإيمان ح ٢١٤ ، وأحمد ح ٢٤١٠٠ .

٣٦) أفضله لسان ذاكر :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٣٠١٩ ، وأحمد ح ٢١٣٥٨ ، ٢٢٠٢٢ ، وقال أبو عيسى : حديث حسن . قلت : وهو كما قال ، إلا أن سالم بن أبى الجعد لم يسمع من ثوبان – راوى الحديث – فهو مرسل .

٣٧) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم :

سبق تخريجه ، انظر هامش (٩) .

٣٨) قيل : ﴿من المسحَّرين﴾ أى : من المعللين بالطعام والشراب ، مأخوذ من السَّحر وهو الرئة ، يعنون : أنه بشر له رئة يأكل ويشرب مثل الناس .

٣٩) تفسير القرطبى ٦ / ٤٩٨٥ مطابع دار الغد العربى ، العباسية – القاهرة .

وهذا الكلام ننقله لمجرد الإحاطة ، ومثل هذه الأخبار تحتاج إلى توثيق ، وفى القرآن الكريم ما يكفى للعظة والاعتبار.

٤٠) تفسير المراغى ١٩ / ٩٦ ، وقد نقل عن رجال الآثار الإفادة بوجود خمس مدن تحت البحر الميت ، وهى التى كانت فى منطقة الأردن ، ثم طفا عليها البحر الميت ، ثم قال : والخلاصة أن هذه المدن كانت قاعدة لملوك جبارين انتقم الله منهم ، فأمطر عليهم نارًا وكبريتًا من السماء ، فألهب البراكين النارية التى فيها ، فعجلت دمارهم ، وخسفت الأرض بهم، وظهرت البحيرة على ما نراه الآن .

٤١) تفسير القرطبى ٦ / ٤٩٩٠ دار الغد العربى ، العباسية – القاهرة .

٤٢) أخرجه ابن جرير ، وابن أبى حاتم وغيرهما ، عن ابن عباس ، وانظر تفسير ابن كثير .

٤٣) ألا وإن فى الجسد مضغة :

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٠ ، ومسلم فى المساقاة ح ٢٩٩٦ ، وابن ماجة فى الفتن ح ٣٩٧٤ ، والدارمى فى البيوع ح ٢٤١٩ .

٤٤) قال القرطبى : قرأ ابن عامر ﴿أو لم تكن لهم آيةٌ﴾ برفع آية على أنها اسم كان ، والخبر ﴿أن يعلمه علماء بنى إسرائيل﴾ . وقرأ الباقون بالنصب ﴿أو لم يكن لهم آيةً﴾ بنصب آية على أنها خبر يكن ، والاسم مصدر مؤول من ﴿أن يعلمه ...﴾ والتقدير : أو لم يكن لهم علم علماء بنى إسرائيل آيةً واضحة . وقرأ عاصم الجحدرى ﴿أن تعلمه علماءُ بنى إسرائيل﴾ .

٤٥) فى ظلال القرآن ١٩ / ١١٥ .

(٤٦) يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة :

رواه مسلم فى صفة القيامة ح ٥٠٢١ ، وأحمد ح ١١٣٤٢ ، ١٢٦٣٨ ، ١٣١٦٧ . ولفظه : «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار .....» الحديث .

(٤٧) قال القرطبي في تفسيره : قال الكسائى : ﴿ذكرى﴾ فى موضع نصب على الحال . ويجوز أن تكون ﴿ذكرى﴾ فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أى : ذلك ذكرى ، أو تلك ذكرى . ا هـ .

والخلاصة : أنه يجوز إعرابها حالاً أو مصدرًا أو خبرًا .

(٤٨) يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار :

رواه مسلم فى الإيمان ح ٣٠٣ ، والترمذى فى تفسير القرآن ح ٣١٠٩ ، والنسائى فى الوصايا ح ٣٥٨٤ ، وأحمد ح ٨٠٥١ ، ٨٣٧٢ ، ١٠٣٠٧ .

(٤٩) إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى منازل :

رواه البخارى فى الأدب ح ٥٥٧٥ ، ومسلم فى الفضائل ح ٤٢٨٥ ، والترمذى فى البر ح ١٨٩٨ ، ١٩٤١ ، واللفظ له ، وابن ماجة فى الأحكام ح ٢٤١٤ ، وأحمد ح ٦٢١٥ ، ٦٥٢٦ .

(٥٠) كان خلقه القرآن :

سبق تخريجه ، انظر هامش (٦).

(٥١) هل معك من شعر :

رواه مسلم فى الشعر ح ٢٢٥٥ ، وابن ماجة فى الأدب ح ٣٧٥٨ ، وأحمد ح ١٨٩٦٣ ، ١٨٩٧ ، ١٨٩٨٢ . كاد أمية بن الصلت أن يسلم .

(٥٢) ورى القيح جوفه ، يريه وريا : أكله ، والقيح : المدة يخالطها دمّ .

(٥٣) لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا :

البخارى فى الأدب ح ٦١٥٤ ، ومسلم فى الشعر ح ٢٢٥٨ ، والترمذى فى الأدب ح ٢٨٥١ ، ٢٨٥٢ ، وأبو داود فى الأدب ح ٥٠٠٩ ، وابن ماجة فى الأدب ح ٣٧٦٠ ، وأحمد ح ١٥٠٩ ، ١٥٠١٠ ، والدارمى فى الاستئذان ح ٢٧٠٥ .

(٥٤) إن من البيان سحرا :

رواه أبو داود في الأدب ٥٠١١ ، والترمذى فى الأدب ح ٢٨٥٤ ، وأحمد ح ٢٤٢٠، ٢٤٦٩ ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس . ورواه البخارى فى النكاح ح ٥١٤٦ ، وأبو داود فى الأدب ح ٥٠٠٧ ، وأحمد ٤٦٣٧ ، ومالك فى الجامع ح ١٨٥٠ ، من حديث ابن عمر بلفظ : «إن من البيان لسحرًا» . هكذا مختصرًا .

ورواه مسلم فى الجمعة ح ٨٦٩ ، وأحمد ح ١٧٨٥٣ ، ١٨٤١٠ ، والدارمى فى الصلاة ح ١٥٥٦ ، من حديث عمار بن ياسر بلفظ : «إن طول صلاة الرجل ..... وإن من البيان سحرًا» .

٥٥) انظر التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ١٩ / ٢٤٨ .

٥٦) تفسير القرطبي ٦ / ٥٠٠٦ ، قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ في هذه الآية ست مسائل، وتحدث عنها من صفحة ٤٩٩٩ إلى ٥٠٠٦ .

٥٧) اهجهم وجبريل معك :

رواه البخاري في بدء الخلق ح ٣٢١٣ ، وفي المغازي ح ٤١٢٤، وفي الأدب ح ٦١٥٣ ، ومسلم في فضائل الصحابة ح ٢٤٨٦ ، وأحمد ح ١٨١٧٦ ، ١٨٢١٤ ، ١٨٢١٥ ، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

٥٨) إن المؤمن يجاهد بسيفه :

رواه أحمد في مسنده ح ٢٦٦٣٣ .

٥٩) هجوت محمدًا فأجبت عنه :

هذه الأبيات الشعرية ذكرها مسلم في فضائل الصحابة ح ٢٤٨٩ ، ٢٤٩٠ .

٦٠) قال القرطبي : قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿بشهابٍ قبس﴾ بتنوين شهاب ، وقرأ الباقون ﴿بشهابِ قبس﴾ على الإضافة ، أي : بشعلة نار ، من إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة ، والشهاب كل ذي نور ، نحو الكواكب والعود الموقد، والقبس اسم لما يقتبس من حجر وما أشبهه ، فالمعنى بشهاب من قبس . ومن قرأ ﴿بشهابٍ قبس﴾ بالتنوين ، جعله بدلا منه أو صفة له ، وتأويله بمعنى المقبوس .

٦١) إن الله لا ينام :

رواه مسلم في الإيمان ح ١٧٩ ، وابن ماجة في المقدمة ح ١٩٥ ، ١٩٦ . واللفظ لابن ماجة

٦٢) الجيب : فتحة الثوب التي يدخل منها الرأس ، قال تعالى : ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ (النور : ٣١) . أي : تسدل الخمار على فتحة الصدر حتى تستر صدرها .

٦٣) لا نورث ما تركناه صدقة :

رواه البخاري في فرض الخمس ح ٣٠٩٣ ، ٣٠٩٤ ، وفي المغازي ٤٠٣٤، ٤٠٦٣ ، ٤٢٤١ ، وفي النفقات ح ٥٣٥٨ ، وفي الفرائض ح ٦٧٢٥ ، ٦٧٢٨ ، ٦٧٣٠ ، وفي الاعتصام ح ٧٣٠٥ ، ١٧٥٧ ، ومسلم في الجهاد ١٧٥٩ ، ١٧٦١ ، والترمذي في السير ١٦١٠ ، والنسائي في قسم الفيء ح ٤١٤٨ ، وأبو داود في الخراج ح ٢٩٦٣ ، ٢٩٦٨ ، وأحمد ح ١٠، ٢٦ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ١٧٣ .

٦٤) إن العلماء ورثة الأنبياء :

رواه البخاري في العلم معلقًا ، والترمذي في العلم ح ٢٦٨٢ ، وأبو داود في العلم ح ٣٦٤١ ، وابن ماجة في المقدمة ح ٢٢٣ ، وأحمد ح ٢١٢٠٨ ، والدارمي في المقدمة ح ٣٤٢ . وأوله : «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا ...» الحديث .

أنا سيد ولد آدم :

رواه مسلم فى الفضائل ح ٢٢٧٨ ، والترمذى فى التفسير ح ٣١٤٨ ، وفى المناقب ح ٣٦١٥ ، وأبو داود فى السنة ح ٤٦٧٣ ، وابن ماجة فى الزهد ح ٤٣٠٨ ، وأحمد ح ١٦ ، ٢٥٤٢ ، ٢٦٨٧ .

(٦٥) التفسير الوسيط : بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، وانظر تفسير القرطبى فقد أسهب ، وقال فيه ١٨ مسألة.

(٦٦) تفسير ابن كثير .

(٦٧) كانت امرأتان معهما ابناهما :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣١٧٣ ، وفى الرقاق ح ٦٠٠٢ ، وفى الفرائض ح ٦٢٧١ ، ومسلم فى الأقضية ح ٣٢٤٥ ، والنسائى فى آداب القضاة ح ٥٣٠٩ ، وأحمد ح ٧٩٣١ ، ٨١٢٤ ، من حديث أبى هريرة .

(٦٨) الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة :

رواه البخارى فى الجهاد ح ٢٦٣٨ ، ٢٦٤٠ ، وفى فرض الخمس ح ٢٨٨٧ ، وفى المناقب ح ٣٣٧٢ ، ومسلم فى الزكاة ح ١٦٤٨ ، وفى الإمارة ح ٣٤٧٩ ، ٣٤٨٠ ، وأبو داود فى الجهاد ح ٢٥٣٢ ، والترمذى فى فضائل الجهاد ح ١٥٦٠ ، والنسائى فى الخيل ح ٣٥٠٥ ، ٣٥٠٦ ، وابن ماجة فى الجهاد ح ٢٧٧٨ ، وأحمد ح ٤٨٥٦ ، ٤٩٥٣ ، ٥٥٠٨ ، والدارمى فى الجهاد ح ٢٣١٩ ، ٢٣٢٠ ، من حديث عروة البارقى ، وأنس ، وأبى هريرة ، وابن عمر ، وجرير .

(٦٩) لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، كل منهن تأتى بفارس :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣١٧١ ، وفى الأيمان ح ٦١٤٨ ، وفى كفارات الأيمان ح ٦٢٢٥ ، وفى التوحيد ح ٦٩١٥، ومسلم فى الأيمان ح ٣١٢٤ ، ٣١٢٦ ، والترمذى فى النذور ح ١٤٥٢ ، والنسائى فى الأيمان ح ٣٧٧١ ، ٣٧٩٦ ، من حديث أبى هريرة .

(٧٠) انظر تفسير المراغى ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ١٩ / ٣٢٢ ، وقارن بالتفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تخريج أحاديث

وهوامش الجزء (التاسع عشر)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء (التاسع عشر)

ويليه الجزء (العشرون) بإذن الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء العشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

المفردات:

أخرجوا آل لوط: المراد بهم: لوط وأهله، كما يراد من بنى آدم، آدم وبنوه.

من قريتكم: من مدينتكم سدوم.

يتطهرون: ينزهون أنفسهم عن الأقذار والأوساخ، ويتباعدون عما نفعله، ويزعمون أنه من القاذورات.

قدرنا: قضينا وحكمنا.

الغابرين: الباقين فى العذاب.

ساء: قبح

مطر المنذرين: من أهل الجرائم، وهو حجارة من سجيل.

تمهيد:

لقد ذكر القرآن الكريم قصة لوط فى عدد من السور، وشنَّع على هذه الفاحشة وحذَّر من إتيانها، وقد عاقب أصحابها بالهلاك.

ونرى المدنية الحديثة التى أباحت المثلية الجنسية، والزواج الشاذ، وأباحت إنشاء نوادٍ للعراة، ونواد للشواذ، قد فوجئت بانتشار مرض الإيدز أو نقص المناعة، وهو مرض خطير يودى بالكثير من المرضى، وقد أصيب القوم بالرعب من الإيدز؛ فمريض الإيدز قد يهرب منه الطبيب والممرضة التى تعالجه، وربما أسرته.

والنوادى الليلية التى كانت ترعى الشواذ أصيبت بالإفلاس، وأدرك الناس خطر الإيدز وخطر الشذوذ والبغاء، بعد أن شاهدوا بأعينهم هلاك أكثر من نصف المرضى بنقص المناعة؛ وكل ذلك يوضح للمتأمل أن سبب هذه الأمراض نقص الإيمان والخروج على منهج الله، ولعل فى هذا دعوة لنا جميعا إلى احترام الزواج الشرعى، باعتباره الوسيلة الممتازة لإشباع العاطفة، ورعاية الذرية وإمتاع النفس، والالتزام بمنهج الله تعالى القائل فى

كتابه الكريم: ومنْ آيَاته أنْ خَلَقَ لَكم مّنْ أنفُسكُمْ أزْوَاجًا لّتَسْكُنُوا إلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ في ذَلكَ لآيَات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. (الروم: ٢١).

التفسير:

لما أنذر لوط عليه السلام قومه، وخوفهم نقمة ربِّهم؛ هددوه بالطرد من سدوم هو ومن آمن به، قال تعالى:

٥٦ - فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلاَّ أن قَالُوا أخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ.

كأن سائلا سأل سؤالا هو: ماذا كان جواب قوم لوط؟ والجواب هو: فما كان جواب قومه على دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى، وهجر الشذوذ الجنسى، والامتناع عن إتيان الرجال فى أدبارهم؛ إلا أن رفضوا دعوة لوط، وأعلنوا هذا الرفض، حيث بيَّتوا أمرهم على إخراج لوط وأهله من المؤمنين من قرية سدوم؛ بحجة أنَّهم يبالغون فى التطهر، ولا يشاركونهم فى عمل هذه الفاحشة، وهذا إغراق فى الشذوذ والخروج على الفطرة، حيث يُعاقب المستقيم الطاهر بالطرد من البلد عقوبة له على استقامته.

٥٧ - فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (١).

أنجينا لوطا ومن آمن به، وأهلكنا المكذبين، ومعهم عجوز هى زوجة لوط، كانت تتعاطف مع الشواذ، وترشدهم إلى أضياف لوط ليفعلوا بهم الفاحشة؛ فأهلكها الله معهم، كما قال تعالى: فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ. (الشعراء: ١٧٠، ١٧١).

٥٨ - وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ.

أمطر الله عليهم مطرًا لم يعهدوا له مثيلا، حيث كان مطر عذاب ونقمة، فأرسل عليهم حجارة قوية صلبة متتابعة النزول، معلّمة بسيما تتميز بها عن حجارة الأرض، كان فيها الهلاك لهم، عقوبة رادعة لهم على شذوذهم، كما قال تعالى: وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ. (هود: ٨٢، ٨٣).

☆ ★ ★

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفردات:

اصطفى: اختار لرسالته، وهم الأنبياء عليهم السلام.

حدائق: جمع حديقة، وهى البستان عليه سور أو حائط، من أحدق بالشىء: إذا أحاط به، ثم توسع فيها فاستعملت فى كل بستان وإن لم يكن محوطا بحائط.

ذات بهجة: البهجة: حسن المنظر.

يعدلون: يميلون، يقال: عدل عنه، أى: مال عنه.

قرارا: مكانا يقر عليه الإنسان وغيره، بمعنى يستقرّ.

خلالها: بين جهاتها المختلفة.

حاجزا: مانعا بين العذب والملح حتى لا يبغى أحدهما على الآخر.

المضطر: ذو الحاجة المجهود، أو الذى أصابه الضرّ.

يكشف السوء: يرفع عنه الظلم والضرّ.

خلفاء الأرض: الذين يرثون سكناها والتصرف فيها.

يهـديكم: يرشدكم بالنجوم وغيرها.

بُشـرا: جمع بشير، والمراد: مبشرات بقدوم المطر.

تمهيد:

هذه الآيات تحكى دلائل القدرة الإلهية، وتسير على طريقة الاستفهام الذى يأخذ على النفس أقطارها، فلا تجد مناصا من التسليم، فهى تبدأ بمقدمة للخطبة تذكر الحمد لله على نعمائه، والسلام على رسله وأصفيائه، ثم تستفهم وتواجه الكافرين فتقول:

١ - من خلق السماوات والأرض وأنزل المطر المفيد النافع؟

٢ - من جعل الأرض قرارا مستقرة، وبارك فيها بالبحار والأنهار، ومنع البحرين من الالتقاء؟

٣ - من يجيب المضطر اللاجئ، ويكشف عنه السوء، وينظم حياة الناس على الأرض بالموت والحياة؟

٤ - من يهديكم فى ظلام الليل والبحر، بالنجوم وغيرها من وسائل الهداية، ومن الذي يرسل الرياح مبشرات بنزول المطر؟

٥ - من خلق الكون والإنسان، ثم يعيد خلق ذلك؟ ومن يرزقكم من السماء بالمطر والهواء والفضاء، ومن الأرض بالنبات والمعادن والبترول وغير ذلك ؟

ولا يملك أى إنسان أن يقول إن أحدًا غير الله يفعل ذلك، فإن ادعى فليأت بالدليل والبرهان، وأنى له بذلك؟

لقد سبق هذه الأدلة على وجود الله ذكر قصص موسى، وداود، وسليمان، وصالح، ولوط؛ وكلها تبين عظيم قدرة الله وجليل نعمائه، وتأخذ بيد الراغب فى الهداية إلى الإيمان بالله تعالى، ثم ساق القرآن الكريم هذه الأدلة المتتابعة، وبدأ كل دليل بهذا الاستفهام الإنكارى، وكأنه يقول لأهل مكة: تدبَّروا فى الكون حولكم، وتأملوا فى أنفسكم، وستجدون أدلة وجود الله ظاهرة أمامكم.

التفسير:

٥٩ - ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

قل يا محمد أنت وكل من يتأتى منه القول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فله الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه كما يرضى ويحب، ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾، أى: السلام على الأنبياء والرسل وكل من اصطفاهم الله من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. (الصافات: ١٨١، ١٨٢) .

﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أيهما خير، آلله الذى خلق ورزق وقدّر الأقوات وبيده الخلق والأمر، أم الأصنام التى يعبدونها ويشركونها بالله فى العبادة؟ إن الله أوجد الموجودات، وأمسك بنظام الكون، وبدأ الخلق ثم يعيده، وكان العقل أن يعبدوه وحده لا شريك له، فهل هذه الأصنام مصدر خير ومنفعة لهم حتى يتركوا عبادة الله، ويعبدوها من دون الله تعالى.

وكان النبى ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت ضياء السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، لا إله إلا أنت، وعدك حق. ولقاؤك حق، والجنة حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق»(٢).

٦٠ - أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ .

من الذى بدأ الخلق ورفع السماء وبسط الأرض، وجعل الفضاء والهواء بين السماء والأرض، وأنزل المطر من السماء لمصلحة الإنسان، فأنبت بالماء الحدائق والبساتين التى تبهج الإنسان وتسعده، وإن نظرة إلى ما حولنا، من ارتفاع السماء، واتساع الفضاء، والأرض المبسوطة، والفضاء والهواء والماء، ونزول المطر وإنبات النبات وكل زهرة فيها لمسة الإبداع، التى تعجز ريشة الفنان عن إبداعها، فضلاً عن سريان الماء فى أوراق الأشجار وأغصانها، وما كان للإنسان أن يسخر المطر أو ينبت النبات، أو يبدع جريان الماء فى داخل الشجر.

أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ . . .

أى: أكل هذه النعم الجليلة، والخلق البديع، يخلقه خالق آخر مع الله؟ أو يمكن أن يبدعه صنم أو وثن أو جن أو ملائكة، حتى تعبدوا الصنم وغيره، وتتركوا عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ .

انتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى تبكيتهم بطريق الغيبة، أى: بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ، ينصرفون عن الحق وهو التوحيد إلى الباطل وهو عبادة الأصنام.

٦١ - أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .

من الذى جعل الأرض مستقرة ليتمكن الإنسان من الحياة عليها، والاستفادة بخيراتها، إن موقع الأرض ودورانها حول نفسها، ودورانها حول الشمس، وموقعها من القمر، وحركة الشمس التى ترسل أشعتها على المحيطات فيتصاعد البخر ويتشكل السحاب والرياح، والأمطار التى تصبّ بقدرة الله فى مكان، وتُصرف عن مكان؛ كل هذا الإعمار والتقدير والتكامل فى الكون لابد أن يلفت أنظاركم وعقولكم وتأملكم لتسألوا أنفسكم: من الذي بسط الأرض وجعلها قرارًا؟ من الذى سخر خلالها أنهارًا ليشرب منها الإنسان والحيوان والنبات ؟ من الذى خلق الجبال الرواسى بحكمة عالية، ونشرها على سطح الأرض لحفظ توازنها، واحتباس الأمطار فى رءوس الجبال فى الشتاء، ليستفيد منها الإنسان فى الصيف، وللجبال منافع عدة، ففوق رءوسها هبطت الرسالات، وفيها ملجأ للهارب، وأمطارها وسيلة للسقى والريّ لوديان لا تصعد إليها المياه، وغير ذلك من المنافع.

وجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا . . .

أى: خلق المحيطات وفيها مياه مالحة لحياة السمك والمعادن واللآلئ والحيتان، وسفر البواخر والبوارج، ولو كانت مياهها عذبة لأنتنت وتلوث الهواء، وجعل أنهار النيل ودجلة والفرات وغيرها من الأنهار للسقيا ونفع البلاد والعباد.

وهناك حاجز من قدرة الله بين العذب والملح، فلا يطغى أحدهما على الآخر، بل بينهما تكامل نظمته يد القدرة الإلهية، قال تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ . (الرحمن: ١٩، ٢٠)، أى: خلق البحرين العذب والملح، وجعل بينهما حاجزًا من القدرة الإلهية، فلا يطغى أحدهما على الآخر.

أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ . . .

أى: أبعد كل هذه الأعمال الجليلة التى أبدعها الله وحده، تعتقدون أن معه آلهة أخرى كالأصنام والأوثان؟ والاستفهام هنا إنكارى لعبادتهم غير الله.

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .

أى: أكثر هؤلاء الكافرين لا يعلمون ما يتحتم عليهم معرفته من العلم الحق، الذي يوجب عليهم إخلاص عبوديتهم لله سبحانه وتعالى.

٦٢ - أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ .

من الذى يجيب المضطر الذى أحزبه أمر أو أحزنه مكروه، أو اشتدت به الكرب، أو كثرت به الظلم، أو اعتدى عليه معتد، أو ظلمه ظالم، أو كثرت به الكوارث، واكفهرت فى وجهه الحياة، من يجيب هذا البائس المشفق المكروه، سوى الله الذى تكفل بإجابة دعوة المضطر سواء أكان مسلمًا أم كافرًا، مؤمنًا أم مشركًا، حتى إذا عاد المشرك إلى شركه أمهله ولم يعاجله بالعقوبة، قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (يونس: ٢٢، ٢٣) .

وقد فتح الله بابه للقاصدين وقال سبحانه: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة: ١٨٦)، وقال سبحانه: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . . . (غافر: ٦٠)، والالتجاء إلى الله فطرة فى النفس خصوصا فى الشدائد والمحن، قال تعالى: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ . (فصلت: ٥١).

وذكر ابن كثير فى تفسيره: أن بعض الصالحين وقع فى محنة، وتعرض للقتل ظلما، فاستأذن فى صلاة ركعتين، وقرأ الفاتحة وارتج عليه فلم يجد ما يقرؤه من القرآن، فقال له الظالم: عجّل بالصلاة، فألهمه الله: أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . وما إن أتم الصلاة حتى أقبل فارس بحربة توجه بها إلى فؤاد الظالم؛ فأصابته وأردته قتيلا؛ فوقف الرجل الصالح، وقال للفارس: أسألك بالله، من أنت؟ فقال الفارس: أنا رسول من يجيب المضطر إذا دعاه. وكان الظالم قد استولى على فرس الرجل الصالح وأمتعته؛ فأخذ الرجل الصالح فرسه ومتاعه وعاد إلى أهله سليما معافى.

وَيَكْشِفُ السُّوءَ ...

أى: ويكشف الفقر أو المرض أو المحنة التى أحوجت المضطر إلى التضرع إلى الله تعالى، فإن الله يرفع عنه ما نزل به من فقر أو مرض أو خوف أو غيره.

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ...

ورثة من قبلكم من الأمم فى سكنى الأرض والديار، ومن حكمة الله أن خلق الموت والحياة، فإذا مات جيل حلّ مكانه جيل آخر، ولو استمر توالد الناس بدون موت كبار السنّ، أو موت أصحاب الحوادث والزلازل والبراكين وغير ذلك؛ لضاقت الأرض بالناس، واشتد الصراع؛ لذلك دبَّر الله الحياة قرنا بعد قرن، بالتوارث والخلافة، حتى يخلف اللاحق السابق، قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ... (الأنعام: ١٦٥).

أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . أيقدر على كلّ ما سبق إله غير الله المتفرد بهذه الأفعال، لكنكم تذكرون الله كثيرا فى الشدائد والمحن، ولا تذكرونه إلا قليلاً فى الرخاء والنعم، فما أقل تذكركم نعم الله عليكم.

٦٣ - أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

من الذى يرشد الضال فى المفازة المهلكة، بأن سخر لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرِّ والبحر، ويغيث المستغيث إذا لجأ إليه ؟

ومن مأثور الدعاء ما يأتى: «اللهم إنى أسألك بحق أنى أشهد أنك أنت الله، الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد»[٣]. «يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك»[٤]. «يا ذا الجلال والإكرام والعزة التى لا ترام، أسألك بجلالك ونور وجهك أن تنور بالقرآن وجهى، وأن تطلق به لسانى، وأن تشرح به صدرى، وأن ترزقنى تلاوته على النحو الذى يرضيك عنى فإنه لا يعيننى على الحق غيرك، ولا يهدينى إليه إلا أنت، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»[٥].

ثم تدعو بعد ذلك بما تشاء .

وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ . . .

من الذى أبدع تصميم هذا الكون، بحيث تسير الرياح قبيل نزول المطر، تبشّر به عبادًا قاحلين فى أمسّ الحاجة إلى المطر؟ لا أحد غير الله يملك التصرف فى هذا الكون.

أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أهناك إله آخر يدّعى أنه يفعل مثل هذه الأفعال؟ هل الأصنام العاجزة تستطيع أن تفعل شيئًا من ذلك.

تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تنزه الإله عن أن يكون له شريك فى ملكه أو في تصرفاته، وهو الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

٦٤ - أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.

من الذى خلق هذا الكون فرفع السماء وبسط الأرض، وأرسى الجبال وسير الهواء، وأجرى الرياح وسخر الشمس والقمر والنجوم، والبحار والأنهار، وأنبت النبات، لا أحد غير الله يقدر على خلق هذا الكون، وقد عجز الناس عن إثبات أن هذا الكون وجد بالصدفة، أو أن الكون خلق نفسه، أو أنّه يقود نفسه بنفسه، فكل هذه دعاوى لا تثبت أمام الدليل والبرهان، أو استخدام العقل والفكر والمنطق السليم، وكان كفار مكة يقرُّون بأن الله خالق الكون، وينكرون البعث والحشر والجزاء، أو يترددون ويظنون ظنًا غير مستيقن، فبين الحق أنه هو الذى يعيد خلق الكون، قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (الروم: ٢٧).

فالله تعالى خلق هذا الكون وأبدع خلقه على غير مثال سابق، وهو يعيده كما قال تعالى: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . (الأنبياء: ١٠٤).

وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . . .

ورزق السماء يتمثل فى المطر والهواء، والجاذبية والمغناطيسية، وتسخير الشمس والقمر والقوى المتعددة، ومن رزق السماء إرسال الرسل وإنزال الوحى والهداية للناس. وأمّا رزق الأرض فيتمثل فى الزرع والنبات، والبترول والمعادن والفلزات، وكنوز البحر من طعام وزينة، ومنها القوى العجيبة من مغناطيسية وكهرباء، وقوى أخرى لا يعلمها بعدُ إلا الله، ويكشف عن شيء منها لعباده آنًا بعد آن.

أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.

أهناك إله مع الله يصنع هذا؟ إذا زعمتم ذلك فقدموا الدليل عليه إن كنتم صادقين فى هذه الدعوى؟

وإنهم ليعجزون عن تقديم هذا البرهان، كما يعجز عنه من يحاوله حتى الآن، وهذه هى طريقة القرآن الكريم فى إثبات العقيدة الإلهية، يستخدم مشاهد الكون بكل ما فيه، وأغوار النفس بكل خلجاتها، ويستدل بهذا ويستخدمه لتحريك الفطرة الغافلة وإيقاظ الضمير؛ وبذلك نرى أن لله كتابين:

- كتاب مقروء، وهو القرآن الكريم.

- وكتاب مفتوح، وهو كتاب الكون الذى خلقه الله وحث الإنسان على التأمل فيه، وعلى ترديد البصر إلى السماء والجبال والأرض والبحار، والليل والنهار، والشمس والقمر، والإنسان والحيوان، والطيور وسائر المخلوقات، لينتقل من إبداع الصنعة إلى قدرة الصانع سبحانه وتعالى.

قال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.
(آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

ويقول عز شأنه: وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ.
(المؤمنون: ١١٧)

★ ★ ★

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات:

الغيب: كل ما غاب عنك، وجمعه: غيوب.

وما يشعرون: وما يعلمون به، ولا يفطنون له.

أيان: متى.

يُبعثون: يقومون من القبور للحساب والجزاء.

ادارك: تتابع علمهم بها عن طريق الأدلة، وقيل: معناه: اضمحل علمهم بالآخرة، من التدارك: وهو التتابع فى الفناء والاضمحلال.

شك: فى تردد من تحقق الآخرة نفسها.

عمون: لا يدركون دلائلها مع وضوحها، كأنهم فقدوا أبصارهم، واحدهم: عَمٍ، وهو أعمى القلب والبصيرة.

تمهيد:

بعد أن قدم الأدلة على الألوهية والوحدانية، أتبع ذلك بتفرده بعلم الغيب والساعة، وبأن الكفار فى شك من القيامة، وقد عميت بصيرتهم عن رؤية الأدلة على مجيئها.

التفسير:

٦٥ - قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ.

قيل: إن هذه الآية نزلت لما سأل الكفار الرسول ﷺ عن وقت الساعة.

قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ . . .

اختص الله تعالى بعلم الغيب لحكمة إلهية عليا، ولا يعلم الغيب من فى السماوات من الملائكة الكرام، وكذلك من فى الأرض من الرسل، ومن الجن، ومن الخلق أجمعين.

روى الشيخان، والترمذى، وأحمد، والنسائى، وجماعة من المحدِّثين، من حديث مسروق، عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: من زعم أن محمدًا يعلم ما فى غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ . . . (٦).

وقد يطلع الله بعض خلقه على الغيب ويظهرهم عليه، قال تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ . . . (الجن: ٢٦، ٢٧).

والتنبؤ بالمطر أو درجات الحرارة أو أشباه ذلك ليس من الغيب، بل هو علم ودراسة لأسباب وأمارات، «كما يحصل من علماء الفلك من الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر والكواكب، حين يخبرون بهبوب الرياح شديدة أو معتدلة، وبكسوف الشمس، وخسوف القمر» (٧).

فهذه دراسة وعلم له أسباب تؤدى دراستها إلى المعرفة أو غلبة الظن، وقد تقع هذه الأمور غالبا وقد تتخلف.

أما العرَّاف الذى يتحدث عن المستقبل، إدعاءً بأنه على علم بالغيب، كقوله لمن يستخبره عن مستقبله: ستكسب مبلغ كذا، أو ستتزوج فلانة، أو تفقد كذا فى سفرك أو نحو ذلك، فهو كافر - كما قال القرطبى - والمؤمنون منهيون عن إتيان العرافين، فقد جاء فى صحيح مسلم: «من أتى عرافا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» (٨).

إن الله تعالى استخلف الإنسان فى هذه الأرض؛ ليبحث ويعمل ويتنافس ويكشف المخبوء، ويحاول الوصول إلى معرفة أسرار هذا الكون، وعن طريق ذلك يخترع ويبتكر ويجوّد عمله، ويفيد نفسه والآخرين، وقد أخفى الله علم الغيب عن الإنسان، وعن سكان السماوات وسكان الأرض؛ فقد اختص الله نفسه بعلم الغيب، ومعرفة الساعة وهى القيامة، ونزول المطر، ونوع الجنين ومستقبل أمره وسعادته أو شقاوته، ومعرفة الأرض التى يموت فيها الإنسان، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ. (لقمان: ٣٤).

وامتدادًا لاختصاص الله تعالى نفسه بعلم الغيب قال سبحانه:

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ.

أى: هؤلاء الكفار لا يدرون متى يكون البعث، والحشر والجزاء، فلا داعى لأن يكثروا من السؤال عن الساعة، ولا داعى لأن يسألوا نبيهم من حين لآخر عن وقت نزول العذاب؛ فكل ذلك مما استأثر الله تعالى بمعرفته، قال تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. (يونس: ٤٨).

٦٦ - بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ.

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ...

تحتمل هذه الفقرة معنيين:

الأول: ضَعُف علمهم بالآخرة وذبل، فأصبح باهتا ضعيفا لا أثر له فى تحسين العمل والسعى الجميل فى الدنيا، من قولهم: (تدارك بنو فلان) إذا تتابعوا فى الهلاك.

قال صاحب القاموس: بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ. جهلوا علمها، ولا علم لهم بشىء من أمرها.

وقال ابن عباس: بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ. أى: غاب.

وقال قتادة: بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ. يعنى: بجهلهم بربهم، يقول: لم ينفذ لهم علم فى الآخرة.

المعنى الثانى: أن التدارك هنا بمعنى التكامل واليقين، أى: تكامل علمهم بشئون الآخرة، حين يعاينون ما أُعدَّ لهم فيها من العذاب. قال تعالى: وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا. (الكهف: ٥٣).

لقد تيقنوا بحقيقة الآخرة، وتكامل علمهم بها حين شاهدوها ورأوها رأى العين، قال تعالى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ. (مريم: ٣٨).

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ .

وبل هنا للإضراب؛ أى: إنهم فى الدنيا على علم باهت، يقولون: إن نظن إلا ظنًا وما نحن بمستيقنين، فهم فى الدنيا فى شك من مجيء الآخرة والحساب والجزاء.

بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ .

أى: عميت بصائرهم وأبصارهم عن توضيح حقائقها ووصف أحوالها، وقد حفل القرآن بذلك، وعُنى رسول الله ﷺ بتوضيح أمر البعث والجزاء، لكن بصيرتهم عمياء لا تهتدى إلى هذه الحقائق.

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات:

أئنا لمخرجون: إنكار لإخراجهم من قبورهم أحياء.

أساطير الأولين: أباطيل الذين سبقوهم، جمع إسطار بكسر الهمزة، وأسطورة بضمها.

ضيق: ضيق صدر.

مما يمكرون من مكرهم، أى: فإن الله يعصمك من الناس، وهذا تسلية للنبى ﷺ، أى: لا تهتم بمكرهم وتآمرهم عليك، فإنا ناصروك عليهم.

التفسير:

٦٧ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ .

تردد إنكار الكافرين للبعث والقيامة والحساب والجزاء، وادعوا أن الحياة الدنيا هى الحياة الأخيرة، وقالوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدَّهر، ولما أنكروا البعث والجزاء أخذوا فى التدليل على دعواهم فقالوا: أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ . أى: إذا متنا، وتحولت أجسامنا إلى تراب ورماد بال بعيد عن الحياة، كما لقى مثل ذلك آباؤنا السابقون؛ أنبعث ونخرج من قبورنا بعد ذلك؟ وهذا الاستفهام للاستبعاد وإنكار البعث واستبعاده.

٦٨ - لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

استئناف مسوق لتقرير الإنكار، وصدِّر بالقسم، أى: والله لقد وعدنا بهذا البعث، كما وعد به آباؤنا وأجدادنا من قبل أن يأتى به محمد، ولكنا لم نجد له أثرًا ولا واقعا، فلم نسمع أن رجلاً بُعث من بعد أن مات.

إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

أى: ما هذا البعث إلا أباطيل الأولين، وأكاذيبهم، وما سطروه من الخرافات فى كتبهم من غير أن يكون لهم بينة على إمكان تحققه ووجوده.

٦٩ - قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

أى: قل لهم يا محمد: سيروا فى أرض الحجاز والشام واليمن ومصر وغيرها، وانظروا مصير من سبقكم من المكذبين، مثل: عاد، وثمود، وقوم فرعون، وأمثالهم من الطغاة العتاة المجرمين، الذين كذبوا رسلهم، واغتروا بما هم فيه من تقدم ومتاع وزينة، ومصانع ومساكن، وكانت عاقبتهم الهلاك المروّع بالصيحة أو الصاعقة، أو الغرق أو النهاية المؤلمة، التى تركتهم أثرا بعد عين، ونجَّى الله المرسلين، وأهلك المجرمين، الذين كذبوا الرسل ولم يصدقوهم.

٧٠ - وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ .

كان النبى ﷺ حريصا على هداية قومه، حزينا لاستمرارهم فى الكفر والتكذيب، وكان القرآن يواسيه ويشد أزره، ويقول له هنا: لا تكثر أسفك وحزنك على إعراضهم، ولا تكن ضيّق الصدر حزينًا من مكرهم وتدبير السوء للدعوة الإسلامية، والمراد: طب نفسًا يا محمد فقد تكفلنا بإهلاك عدوّك، ونصرك عليهم، كما قال تعالى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا . (الفتح: ١ - ٣) .

★ ★ ★

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

المفردات:

ردف لكم: تبعكم ولحقكم.

بعض الذى تستعجلون: القتل يوم بدر، وباقى العذاب يأتيهم بعد الموت.

ما تكن صدورهم: ما تخفيه من الأسرار.

غائبة: أى شىء فى غاية الخفاء على الناس.

إلا فى كتاب مبين: اللوح المحفوظ، فكل شىء يعلمه الله قديمًا، ومنه تعذيب الكفار.

التفسير:

٧١ - وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

كان القرآن الكريم يهددهم بأن يصيبهم عذاب كما أصاب من سبقهم من الأمم، مثل: عاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وما أصاب سبأ من الهلاك والبوار، وما أصاب قوم نوح من الطوفان، وما أصاب فرعون وقومه من الغرق، وهم عصاة مكذبون فليحذروا أن يصيبهم العذاب الذى أصاب المكذبين، قال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . (الإسراء: ١٧).

وقال عز شأنه: وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت: ٣٩، ٤٠).

ومعنى الآية:

ويقول كفار مكة: متى هذا الوعد الذى تخوفوننا به؟ إن كان ما تقولونه صحيحا فهيا عجلوا لنا هذا العذاب. قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية والاستهانة.

٧٢ - قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ .

أى: عسى أن يكون عُجِّل لكم وقُرِّب لكم جانب من العذاب الذى تستعجلون وقوعه، فقد أصابهم القحط فى مكة، والقتل فى غزوة بدر، وسيصيبهم العذاب يوم القيامة.

والخلاصة:

عسى أن يكون العذاب قريبا منكم، قرب راكب الدابة من الرديف الذى أردفه خلفه، قال تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا . (الإسراء: ٥١).

وقال تعالى: يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . (العنكبوت: ٥٤).

والقرآن بذلك يثير الخوف فى قلوبهم، والقلق من شبح العذاب، فقد يكون وراءهم رديفًا لهم، كما يكون الرديف وراء الراكب فوق الدابة.

قال صاحب المصباح المنير:

والرديف: الذى تحمله خلفك على ظهر الدابة ... ومنه: ردف المرأة وهو عجزها، والجمع أرداف، وترادف القوم إذا تتابعوا، وكل شىء تبع شيئا ردفه.

والمقصود:

لا تتعجلوا نزول العذاب بكم، فقد يكون بعض هذا العذاب قد عجل لكم فى الدنيا، وبعضه فى طريقه إليكم وأنتم لا تشعرون بذلك لشدة غفلتكم، وحتى إذا أفلتُّم من عذاب الدنيا، فإن عذاب الآخرة ينتظركم، وكل آت قريب.

٧٣ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ .

إن الله تعالى متفضل على الناس فى خلقهم ومنحهم العقل والإرادة والاختيار، والتفضل عليهم بالرزق المادى والمعنوى، قال تعالى: وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... (ابراهيم: ٣٤).

لكن أكثر الناس لا يشكرون أنعم الله عليه، ولا يولونها ما تستحقه من شكر الله وطاعته.

قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ . (ابراهيم: ٣٢ - ٣٤).

وهناك القليل الذى يشكر ولا يكفر، قال تعالى: وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ . (سبأ: ١٣). وقال سبحانه: إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ... (ص: ٢٤).

٧٤ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ .

إن الله تعالى مطلع على السرائر والضمائر، وهو رقيب على كل نفس بما كسبت، وأحرى بهم أن يلزمهم الحياء والخوف من مشاهدة الله تعالى ومعرفته بما يُسرون وما يعلنون.

قال تعالى: فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . (طه: ٧).

وقال تعالى: سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . (الرعد: ١٠).

٧٥ - وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ .

إن علم الله مطلق شامل لكل ما فى السماوات من أسرار وأفلاك، وقوى وأملاك، وخفايا وخبايا، وعلم الله شامل لكل ما فى الأرض من نبات وأوراق، وظاهر وخفى، وقد سجل كل ذلك فى اللوح المحفوظ، وشمله علم الله وسطر فى كتب الغيب والقدر، قال تعالى: مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. (الحديد: ٢٢ ، ٢٣).

وقال تعالى:

وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ. (الأنعام: ٥٩).

وقال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . (الحج: ٧٠)

والمقصود: إن علم الله شامل لكل ما فى الكون فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، أى: ما غاب عن العباد وما شاهدوه، وهو مطلع على ما فى ضمائرهم، ومحيط بكل تحركاتهم المشبوهة، وأنشطتهم المريبة، فيستحيل وقوع ما يريدونه من إيذاء النبى ﷺ، أو النيل من رسالته، أو تحقيق الظفر على المسلمين.

★ ★ ★

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

المفردات:

بنى إسرائيل: المراد بهم اليهود والنصارى، وإسرائيل: يعقوب عليه السلام.

على الحق المبين: الواضح البيّن، أو الفاصل بين الحق والباطل.

ولا تسمع الصم: لا تسمع من ذهب سمعه لسبب من الأسباب؛ وفعله من باب علم، فللذكر أصمّ، وللأنثى صماء، والجمع صُمٌّ، مثل أحمر وحمراء وحُمْر، ويتعدّى بالهمزة، فيقال: أصمَّه الله.

ضلالتهم: كفرهم، يقال: ضلّ، يضلّ ضلالا وضلالة: مال عن الطريق فلم يهتد.

التفسير:

٧٦ - إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

ذكر تعالى أدلة واضحة على الألوهية، وهنا يذكر أدلة على إعجاز القرآن، وصدق نبوة محمد ﷺ؛ فهذا النبى الأمىّ أنزل عليه وحى مهيمن على الكتب السابقة، فهو يقص على اليهود والنصارى القول الفصل فى أمور كثيرة يختلفون بشأنها.

فقد اتهم اليهود مريم، وقالوا عنها بهتانًا عظيما، واختلف النصارى بشأن المسيح، منهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه أحد الأقانيم الثلاثة الأب والابن وروح القدس.

وتعددت المجامع المسيحية، واختلفت الكنيسة الغربية عن الكنسية الشرقية فيما يتعلق بطبيعة المسيح، وكان المذهب الملكانى، مذهب روما، ومذهب الحكام فى مصر يرى أن الابن متصل بالأب قبل كلّ الأزمنة والدهور؛ وهو جوهره ونوره اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم.

والمذهب اليعقوبى مذهب الشعب القبطى فى مصر يرى أن اللاهوت حلّ فى الناسوت، أى: أن الله حل فى الإنسان، فالمسيح مكون من جانب إلهى وجانب إنسانى. وكان المذهب اليعقوبى أقرب إلى روح الإسلام من المذهب الملكانى.

وكان زعماء اليعاقبة زعماء شعبيين، هم رجال دين وهم قادة لمصر فى وجه روما، فلما جاء الإسلام إلى مصر ساعد الأقباطُ الفاتحين، وقدموا للجيش الإسلامى العلوفة والمؤونة عند قدومهم، كما أن المسلمين الفاتحين أحسنوا معاملة الأقباط، وخلَّصوهم من ظلم الرومان، وقد وردت أحاديث متعددة تحث على إكرام أهل مصر لأنهم أهل كتاب، ولأن هاجر أم إسماعيل جدّ النبى ﷺ منهم، وكذلك مارية القبطية أم إبراهيم ابن النبى محمد ﷺ.

روى مسلم فى صحيحه، أن رسول الله ﷺ قال: «ستفتح عليكم بعدى مصر، وهى بلد يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما» [٩]. فالأقباط أهل كتاب، ولهم قرابة بالأنبياء.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

لقد اختلف اليهود والنصارى بشأن الخنزير، فاليهود تحرمه والنصارى تبيح أكله، وقد بين القرآن أنه حرام. كذلك موت عيسى، منهم من قال: إنه قتل، ومنهم من قال: دفن ثلاثة أيام ثم رفع إلى السماء.

وقد ذكر القرآن القول الفصل عن المسيح؛ فهو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وقد نطق المسيح بأنه عبد الله، فكان أول كلام له: قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . (مريم: ٣٠).

وقال سبحانه: وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ... (النساء: ١٥٧).

والخلاصة:

أن هذا الكتاب الذى أنزله الله على رسوله، أخبر أخبارًا صادقة، وكان حكما عادلاً بين المختلفين من أهل الكتاب، وصوّب كثيرا من الأخطاء، فقد اتهم اليهود الأنبياء بالزنا، مثل نبى الله لوط، الذى اتهموه مع ابنتيه أنه زنى بهما، وأنجب منهما، واتهموا حواء بأنها المسئولة عن الأكل من الشجرة؛ فصوب القرآن أفكارهم الخاطئة، وحكى قصة آدم وبين أن المسئولية مشتركة بين آدم وحوّاء، وتحدث القرآن عن كثير من الأنبياء والرسل، وصوب ما ورد فى التوارة والإنجيل، وكان القرآن هو الفيصل وهو القول الحق؛ فصوّب تشريعات القصاص التى حُرفت فى التوراة، قال تعالى: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ... (المائدة: ٤٥).

وقد ذكرت التوراة عن آدم وحوّاء ما يأتى:

(بينما الربّ يتمشى فى الجنة نادى: يا آدم، فقال آدم: يا رب إنى عريان، فقال الله: ما أعلمك أنك عريان، لابدّ أنك أكلت من الشجرة، ما حملك على ذلك؟ قال آدم: وسوست لى حوّاء، قال الله: يا حوّاء ما حملك على ذلك؟ قالت: وسوس لى الشيطان، قال الله: يا شيطان، كيف دخلت إلى الجنة؟ قال الشيطان: دخلتُ فى جوف الحية، فقال الله للحية: أما إذ فعلت هذا فعمياء تعيشين، وعلى بطنك تزحفين وترابا آكلين، وأجعل

عداوة بينك وبين بنى آدم فهو يرصد عقبك وأنت ترصدين عقبه. وقال الله: يا حوّاء أما إذ فعلت هذا، فإنى أكثر عليك مشقات الحمل والولادة، وأجعل الرجل سيدًا عليك إلى يوم القيامة. وقال الله: يا آدم أما إذ فعلت هذا فإنك لا تأكل رزقك إلا بعرق جبينك، وكدّ يمينك) أ . هـ.

ونلاحظ على هذا النص المنقول عن التوراة قوله: بينما الربّ يتمشى فى الجنة. والله فى الإسلام علة العلل لا يحدّه مكان، ولا يحويه زمان، فهو أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء، وليس جسما ولا حالا فى جسم، وليس جوهرًا ولا عرضا، ولا كما ولا كيفا، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. (الشورى: ١١).

فالمشى خاص بالحوادث والإله منزه عن الطول والعرض، والكم والكيف، والمشى وسائر صفات الحوادث وكان من دعاء النبى ﷺ قوله: «أنت الأوّل فليس قبلك شىء، وأنت الآخر فليس بعدك شىء، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء، وأنت الباطن فليس دونك شىء»[١٠].

فالله فى الإسلام هو القوة العظمى التى أوجدت هذا الكون، وجعلته متكاملا، وهو يمسك بزمام هذا الكون، وهو الخالق للكون وللإنسان، وللسماء والأرض، وللشمس والقمر، والبحار والأشجار، والليل والنهار، وقد كان الله ولا شىء معه، والله ليس جسمًا ولا حالا فى جسم، وليس له طول ولا عرض، ولا يحويه مكان، لأن ذلك من صفات الحوادث، والله قديم أبدى أزلى، يَخلق ولا يُخلق؛ ويجير ولا يجار عليه. وليس له مثيل أو نظير أو مكافئ، أو مساوٍ أو معادل له، قال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. (الإخلاص: ١-٤). وكفوًا أصلها: كفؤا، أى: مكافئ ومماثل، فحذفت الهمزة فصارت كُفُوًا.

كما أن القرآن الكريم أنصف حوّاء، وبين أن المسئولية مشتركة بين آدم وحواء، وأشار إلى أن المرأة تابعة للرجل فى سكنه، قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ...﴾ (الأعراف: ١٩).

وقال سبحانه:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾. (الأعراف: ٢٠ - ٢٥).

ومن هذه الآيات نرى أن الإسلام أنصف المرأة، حيث تفيد التوراة أنها سبب خطيئة آدم، بينما يفيد القرآن أنهما (آدم وحواء) يتحملان مسئولية الخطأ، وقد اعترفا بذلك وتابا إلى الله تعالى.

وصوب القرآن فكرة أن المسيح صلب لتخليص البشرية من خطيئة آدم، حيث ذكر القرآن أن باب التوبة مفتوح لجميع الناس، ولا تتحمل نفس وزر نفس أخرى، وأن العبد قريب من ربه، فالله تعالى يقول: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ. (البقرة: ١٨٦).

٧٧ - وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .

وإن هذا القرآن هدايةٌ لقلوب العباد، حيث اشتمل على العقائد وأخبار الرُّسل، ووصَفَ قدرة الله فى خلق الكون وما فيه، وتحدَّث عن رحمة الله الواسعة، فالقرآن وسيلة من وسائل رحمة الله للعباد، وفيه وسائل شِفَاء القلوب من الأمراض الظاهرة والباطنة، قال تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ. . . (الإسراء: ٨٢).

٧٨ - إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ .

أى: إن ربك يقضى يوم القيامة بين اليهود والنصارى، والمشركين والمؤمنين، وجميع الخلائق، فينصف المؤمنين، ويعاقب الكافرين المبطلين، وقيل: يقضى بينهم فى الدنيا بإظهار ما حرَّفوه، وبيان الحق فيما اختلفوا فيه.

وقيل: المراد بالآية: المشركون من أهل مكة المكذبون للرسول محمد ﷺ، أى: لا تحزن عليهم، فليس عليك إلا البلاغ، واليوم عمل ولا حساب، وغدا فى الآخرة سيحاكمهم الله تعالى، ويجازيهم على كفرهم وشركهم، وهو: الْعَزِيزُ. الغالب المقتدر، الْعَلِيمُ. بكل شىء من الأشياء فلا تخفى عليه خافية؛ فهو مطلع على ما تكنّه الصدور، ومحاسب على الفتيل والقطمير.

٧٩ - فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ .

اعتمد على الله سبحانه وتعالى، فأنت على الحق الواضح المبين الظاهر، وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية؛ فالمؤمن بالله فى سلام نفسى، لأنه متناسق مع الكون، مؤمن بوجود الله، مطيع لأمره، وقد وعد الله أن ينصر رسله والمؤمنين؛ قال تعالى: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. (غافر: ٥١).

٨٠ - إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .

الرسول ﷺ مبشر ونذير، وداع إلى الله تعالى، وهؤلاء الكفار أعرضوا عن هداية القرآن، وأغلقوا قلوبهم وآذانهم وعقولهم، وأصروا على الكفر والعناد، فصاروا أمام الدعوة كالموتى الذين فقدوا الحسَّ والشعور، أو الصمّ الذين فقدوا حاسة السمع، وحتى إذا سمعوا أدبروا وأعرضوا ولم يصيخوا السمع، فالمقبل أو المريض

بالصمم ربما سمع بعض الكلام إذا أنصت، لكنهم يُعرضون ويدبرون إدبار الحمر الوحشية إذا هجم عليها الأسد؛ فتفر فرارًا سريعًا، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. (البقرة: ٦ - ٧).

٨١ - وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ .

القرآن الكريم يرسم لوحة هادفة تصوِّر هؤلاء الكفار وقد تبلَّد إحساسهم، وانصرفوا عن الحق، فأصبحوا كالموتى أو الصمّ المعرضين المدبرين، وفى هذه الآية يصورهم بصورة الأعمى الذى لا يبصر نور الإسلام، وقد أصيب بعمى البصيرة؛ فلم يبصر هداية القرآن، ونور الإيمان، ونضارة الوحى وشرف الرسالة، بل ارتكس فى الضلالة والطغيان، قال تعالى: لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . (الأعراف: ١٧٩).

ويقول الشاعر:

وإذا كان القلب أعمى عن الرشـــ ـــد فماذا تفيده العينان

إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ .

إن رسالتك الواضحة، وصوت الوحى وشرف الرسالة، إنما يصل إلى من أنار الله قلبه بالإيمان، وهداه إلى الإسلام؛ فهو الذى يسمع القرآن سماع متدبر مهتد، فيدخل فى الإسلام دخول واثق مؤمن، مخلص وجهه لله تعالى.

قال تعالى: بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . (البقرة: ١١٢).

★ ★ ★

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)﴾

المفردات:

وقع القـــــول: قرب وقوع ما وعدوا به من العذاب بعد البعث.

دابـــــــــة: هى دابة كبيرة يخرجها الله قرب قيام الساعة.

تُكلّمـــــــهم: تُكلّم الناس، وتنطق بكلام الناس، من الكلام .

تَكلِمُـــــــهم: قراءة بفتح التاء وسكون الكاف وكسر اللام، من الكَلْم وهو الجرح.

فـــوجـــــا: جماعة من الرؤساء.

بـآيـاتـــــى: القرآن، أو سائر الآيات فى الآفاق والأنفس.

يـــوزعـــــون: يُحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة.

بما ظلمـــوا: حلّ بهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم.

تمهيد:

تختم السورة بالحديث عن الآخرة، وموقف الحساب والجزاء، ومكافأة المحسنين، ومعاقبة المسيئين، ومن علامات الساعة خروج الدابة من مكان فى مكة، تنطق بكلام مثل كلام الناس.

التفسير:

٨٢ - وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ .

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ . . .

أى: إذا اقترب قيام الساعة، وتحقيق كلمة الله فى عذاب الكافرين، والإحسان إلى المحسنين؛ أخرجنا لهم دابة عظيمة فى هيكلها تخرج من أرض مكة، وتكلّم الناس بكلام فصيح واضح مبين؛ تقول للكافرين: لقد كنتم لا تؤمنون بالقرآن، ولا بدلائل قدرة الله فى الأنفس والآفاق، وها أنتم تشاهدون القيامة وأهوالها وعلاماتها، ومن هذه العلامات ما يأتى:

١ - طلوع الشمس من مغربها.

٢ - خروج دابة من الأرض تكلم الناس بكلام واضح مفهوم، تقول: أَنَّ النَّاس كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ .

٣ - ظهور المسيخ الدَّجال، كما ورد فى الأحاديث الصحيحة، روى الإمام مسلم فى صحيحه، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت فى إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها، والدجّال، ودابة الأرض»[١١].

ما يلحق بتفسير الآية:

١ - الدابة معجزة أو آية جعلها الله من علامات قيام الساعة، وهى من العلامات الكبرى التى جعلها الله من علامات القيامة.

٢ - من عادة الناس أن الدواب لا تنطق، ولا تتكلم، فجعل الله نطقها بكلام واضح بين دليلا على نهاية الدنيا وقرب قيام الساعة.

٣ - القول فى قوله تعالى: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ... يراد به تحقيق ما وعد به الله، مثل: وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (السجدة: ١٣).

٤ - ورد فى القرآن وفى الأحاديث الصحيحة، ما يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة، وفى هذا ما يكفى المسلم للاعتقاد به، ولا يحتاج بعد ذلك إلى السؤال عن أوصاف هذه الدابة، فقد وردت آثار غير صحيحة فى وصفها لا يعوَّل عليها، وحسبنا أن نعرف أنها حيوان أعجم ضخم الجثة يتكلم قائلا: أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ . أى: لا يصدقون بعظيم آيات الله، وعظيم قدرته.

٥ - ورد فى صحيح مسلم بسنده، عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريبا»[١٢].

٦ - وروى الإمام مسلم، وأهل السنن، والإمام أحمد، عن حذيفة بن أسيد الغفارى، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، والدَّجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»[١٣]. قال الترمذى: حسن صحيح.

٧ - روى مسلم فى صحيحه، عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «بادروا بالأعمال ستا: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، وخاصة أحدكم، وأمر العامة»[١٤].

٨ - خلاصة معنى الآية، إذا قرب وقوع ما قلناه على الكافرين من قيام الساعة وعقابهم على كفرهم، أخرجنا لهم من الأرض دابة عظيمة، تكلمهم بما يفهمونه عنها، فتوبخهم على كفرهم، وتنعى عليهم أنهم كانوا لا يؤمنون بالله وآياته وبراهينه، ولا يصدقون بالبعث ولا يستيقنون به، وقد حان وقت الجزاء العادل فى القيامة، على الإحسان إحسانا وعلى السوء سوءًا.

٩ - قرأ بعض القراء: وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تَكْلِمُهُمْ... بسكون الكاف وكسر اللام من الكلْم وهو الجرح، أى: أن الدابة تجرحهم بكلام جارح؛ عتابا ولوما على عدم الإيمان، أو تجرحهم جرحًا حسيًا، وهذا أمر محتمل، لكن الآراء السابقة هى المفهوم لأول وهلة من كلام القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

٨٣ ، ٨٤ - وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

تتحدث الآيتان عن موقف من مواقف القيامة، حيث يجمع الله جماعة من رؤساء كل أمة من الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله، ويحبس أولهم على آخرهم، ليجتمعوا فى موقف الحشر والحساب، للمساءلة والعتاب، لقد أراد الله بذلك الحشر تحديد مسئولية الرؤساء والكبراء عن إضلال من خلفهم، فجمع هؤلاء الكبراء والرؤساء الجاحدين المكذبين، وحبسهم جميعًا ليشاهد بعضهم بعضا، ثم وجَّه إليهم اللوم والعتاب والنكير، فقال: حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. حتى إذا اجتمعوا جميعا، وجه اللوم لكل هذه المجموعة المكذبة، وقال لهم: أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي فى كتبى المنزلة، وفى رسالة الأنبياء والرسل، وفى الكون والآفاق وفى النفس، ولم تكلفوا أنفسكم عناء النظر المتأمل، ولم تحاولوا معرفة حقائق هذه الآيات، والتأمل فى الكون وفى النفس وفى الوحى، ولم تنظروا إلى هذه الآيات نظرًا يجعلكم تحيطون بها علما ويدفعكم إلى الإيمان بربوبيتى ووحدانيتى.

أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

وهو استفهام للتوبيخ، يقال لمن رسب فى الامتحان: ماذا كنت تعمل طول العام؟ ويقال لهؤلاء الكفار: كذبتم بآيات ربكم، ولم تبذلوا جهدًا فى العلم بها، فلم يكن لكم عمل سوى الفساد والتكذيب، والإصرار على الكفر، ولم تبذلوا جهدًا للعلم بآيات الله.

أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

أى عمل عملتموه فى الدنيا، يمكن أن ينفعكم فى هذا اليوم، ما هو كشف حساب أعمالكم؟ ولما كان كشف حساب أعمالهم كله خسائر؛ فقد سكتوا سكوت العاجز المعترف بالتقصير.

٨٥ - وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ .

ووجب عليهم العذاب الذى قلناه على ألسنة رسلنا، حيث قال تعالى: وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (السجدة: ١٣).

أي: لزمتهم مقولة العذاب، بسبب ظلمهم وتكذيبهم، ولم يجدوا حجَّة ولا وسيلة للاعتذار؛ فصاروا كالمجرم الذى تقدم للمحكمة، والأدلة كلها تؤكد ارتكابه للجريمة، فعجز عن الدفاع لوضوح الأدلة، وسكت عن النطق بما ينفى عنه التهمة.

وذكر المفسرون هنا أن القيامة فيها مواقف متعددة، فى بعض المواقف تكون المساءلة والاستجواب وسماع أقوال الناس، قال تعالى: وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . (الصافات: ٢٤).

وفى بعض المواقف تنتهى الاستجوابات، ويوقف سماع أى كلام، وهذا يشبه على نحو ما عمل المحكمة في استجواب الخصوم، وسماع أدلة الاتهام والدفاع، وإفساح صدرها لكل رأى أو شهادة أو دفاع أو كتابة مذكرات؛ ثم تحجز القضية للنطق بالحكم، فلا يقبل حينئذ سماع كلام.

قال تعالى: هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . (المرسلات: ٣٥، ٣٦).

وقال سبحانه: وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ .

ومن مأثور السابقين: الامتناع عن الكلام مع القدرة عليه كلام.

فالصمت لغة لها دلالتها ومضمونها، وعدم نطق الكفَّار يوم القيامة. معناه ما يأتى:

١ - هم لا يملكون كلاما مفيدًا ينقذهم من العذاب.

٢ - أو هم فى مرحلة لا يسمح لهم فيها بالنطق، تبكيتا وزجرًا.

وقال ابن كثير فى التفسير:

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ . أى: بُهتوا فلم يكن لهم جواب، لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد رُدّوا إلى عالِم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية.

٨٦ - أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

للقرآن الكريم طريقته الفذَّة فى عرض مشاهد القيامة، ثم الانتقال بالناس إلى الدنيا، والانتقال بالقلوب إلى التأمل، كأنما يقول: كان الأولى بهؤلاء الكافرين أن ينظروا إلى آيات الله فى الآفاق، ألم يتأملوا فى آثار قدرة

الله؛ حيث جعل الليل مظلما هادئا ساكنا، ليسكنوا فيه نائمين هادئين، تهدأ أعصابهم، وتنام أجسامهم، وتستريح أبدانهم.

وَالنَّهَارَ مُبْصِراً . . . أى: النهار مضىء، فيه الشمس والنور والحياة والحركة والسعى والعمل.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أى: فى تكامل هذا الكون بكل ما فيه، حيث جعل الليل والنهار، وجعل الليل ساعات محددة، والنهار كذلك؛ ليعمل الناس بالنهار، وليستريح الناس بالليل، ولو امتد النهار نصف عام، لأحرقت الشمس الزروع وفسدت الحياة، ولو استمر الليل نصف عام، لتجمدت الأشياء وتعطنت الأجسام، وتعطلت المصالح، وفى تتابع الليل والنهار بهذه الحكمة وتلك القدرة آيات بينات لمن أراد الإيمان بالله رب العالمين.

قال تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (القصص: ٧١ - ٧٣).

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

المفردات:

الصـــور: البوق.

فـــزع: خاف.

أتـــوه: جاءوه.

داخـــريـــن: صاغرين.

مـــرّ الســحـاب: سرعة السحاب.

التفسير:

٨٧ – وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ .

واذكر يوم ينفخ إسرافيل فى البوق أو القرن؛ فيقوم الناس من قبورهم فزعين خائفين، قال تعالى: قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . (يس: ٥٢).

وقد استثنى الله بعض مخلوقاته من هذا الفزع، قيل: الرسل والشهداء، وقيل أيضا: رؤساء الملائكة، مثل: جبريل، واسرافيل، وميكائيل، وجميع الناس جاءت للبعث والحساب صاغرين أذلاء من هول الموقف وشدة الكرب، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ . (الحج: ١، ٢).

النفخ فى الصور

ذكر القرآن الكريم النفخ فى الصور على أنه من مشاهد القيامة، كما ورد ذلك فى الحديث الصحيح، وقد أورد ابن كثير عددا من الأحاديث، منها حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم، عن عبد الله بن عمرو، وتكلم عن ذلك أبو السعود، والقرطبى وغيرهما.

وقد ذكر ابن كثير أن النفخ فى الصور ثلاث مرات:

الأولى: نفخة الفزع.

الثانية: نفخة الصعق وهو الموت.

الثالثة: نفخة البعث وقيام الناس لرب العالمين.

ورجح غيره من المفسرين أن النفخ فى الصور سوف يكون مرتين:

الأولى: تموت عندها الخلائق، ويمكن أن تشتمل على الفزع والصعق والموت.

الثانية: نفخة البعث التى يقوم النّاس عندها لرب العالمين.

قال تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ . (يس: ٥١).

وقال تعالى: ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ . (الروم: ٢٥).

وقد اختلف العلماء فيما جاء بهذه الآية رقم ٨٧ من سورة النمل، أهى النفخة الأولى أم النفخة الثانية؟ فمنهم من رجح أنها النفخة الثانية، التى يكون بعدها الجزاء والحساب، واستشهد بآخر الآية حيث يقول الله تعالى: وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ .

ورجح العلامة الطيبى وغيره من المفسِّرين أن الآية تشير إلى النفخة الأولى، والمراد بالفزع: الخوف الذى ينتهى إلى الموت لغاية شدة الهول.

قال تعالى فى الآية ٦٨ من سورة الزمر: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ .

قال العلامة الطيبى: فالآية ٨٧ من سورة النمل تشير إلى النفخة الأولى، وقوله تعالى: وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ. إشارة إلى النفخة الثانية.

من تفسير القرطبى

قال القرطبى فى تفسيره:

والصحيح فى الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل، والصحيح - أيضا - فى النفخ فى الصور أنهما نفختان وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق، لأن الأمرين لازمان لهما... والمراد هنا - النفخة الثانية - أى: يحيون فزعين يقولون: من بعثنا من مرقدنا؟ ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم . أ . هـ

وأرجح أن المراد فى الآية النفخة الأولى.

وخلاصة المعنى:

واذكر أيها المشاهد يوم ينفخ اسرافيل فى الصور، فيفزع سكان السماوات وسكان الأرض، إلا من حفظه الله من الفزع، ويعقب ذلك موت الناس وصعقهم أربعين سنة، ثم ينفخ إسرافيل مرة أخرى فيقوم الناس لرب العالمين ويحشرون جميعا أذلاء صاغرين. وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ .

٨٨ - وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ .

جمهور المفسرين على أن هذه الآية تشير إلى أهوال القيامة، ومن أهوال القيامة النفخ فى الصور مرتين:

الأولى: للصعق والفزع ويعقب ذلك الموت.

الثانية: للبعث ثم الحساب والجزاء.

أما الجبال فلها حالتان:

الحالة الأولى: أنها تنسف نسفا، وتندكُّ دكًا عند النفخة الأولى. قال تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ... (طه: ١٠٥ - ١٠٨).

الحالة الثانية للجبال: أنها تعود من ناحية الهيئة والشكل، لكنها تحوّل إلى عهن منفوش، أى: صوف منثور ثم تُسيَّر تسيير السحاب فى طريقه إلى الزوال.

والمعنى الإجمالى للآية:

وترى أيها الإنسان الجبال يوم القيامة وأنت واقف بعيد عنها، تحسبها جامدة ثابتة فى مكانها، ولكنها قد سحقت وأصبحت كالعهن المنفوش، وقد سيَّرها الله سبحانه وتعالى فوق سطح الأرض، وجعلها تمرّ فوقها فى طريقها إلى الزوال.

صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ . . .

أى: هذا الصنع العجيب من حركة الجبال وتلاشيها دليل على إتقان الصنعة، وذلك صنع الله الذى أحكم الخلق فى البدء، وأحكم أمر البعث والنهاية، حتى يكون الجزاء والثواب والعقاب.

إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ .

إنه عليم بأعمالكم فيجازيكم عليها جزاء عادلا، قال تعالى: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧، ٨).

قال تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . (إبراهيم: ٤٨ -٥١).

ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية من إبداع القرآن الكريم؛ فهو يتحدث عن الآخرة وأهوالها، ثم يعود إلى تذكير القلوب بفضل الله، بأن جعل الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرًا، ثم يتحدث عن النفخ فى الصور وأهوال البعث والحشر والجزاء.

ثم يتحدث عن عظمة الصانع فى الدنيا، حيث إن الأرض تتحرك حول نفسها، ولها حركة أخرى حول الشمس، وهذه الحركة يترتب عليها مجىء الليل والنهار بشكل متوازن يترتب عليه سعادة الناس، وانتفاعهم بالليل والنهار، ومن جملة ما يتحرك بحركة الأرض الجبال أيضا، تظنها جامدة ثابتة، لكنها تتحرك حركة يسيرة كحركة السحاب، وهى الحركة التى تتحركها مع حركة الأرض، هذه الحركة تؤدى إلى التكامل والتناغم والنظام، وعموم الفائدة فى هذا الكون، وهو سبحانه مطّلع على أعمالكم فى الدنيا وسيجازيكم عليها فى الآخرة.

جاء فى التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى رئيس قسم الفقه الإسلامى بجامعة دمشق:

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على دوران الأرض حول الشمس بسرعة فائقة، لكن الظاهر أن ذلك فى الآخرة، لأن الكلام عن يوم القيامة.

وأنا لا أستبعد أن تكون هذه الآية تلفت النظر إلى بديع صنع الله فى الدنيا، بدليل قوله سبحانه: صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ . . . فالله خلق السماء والأرض، والبحار والأنهار، والشمس والقمر، والليل والنهار، وخلق الجبال، وتحدث القرآن عن الجبال حديثا متعددًا، فهى دليل قدرة القدير، وإبداع الصانع، ولا يكاد القرآن يتحدث عن الأمطار والزراعة إلا ويتحدث عن الجبال، فالماء يتجمع فى رءوس الجبال فى الشتاء، ثم ينزل فى الصيف، والجبال لها جذور ممتدة فى أصول الأرض تمسك بها، وتحفظ توازنها، والجبال وسيلة من وسائل الاستقرار ومنع الزلازل والبراكين.

قال تعالى: أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ . (النمل: ٦١).

وقال تعالى: أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . (الغاشية: ١٧ - ٢٠).

فالقرآن الكريم تحدث عن الجبال كدليل من دلائل القدرة والعظمة والإبداع، والخلق والتكوين والتكامل، والحفظ لهذا الكون فى الدنيا، وتحدث أيضا عن الجبال وتسييرها فى الآخرة.

قال تعالى: يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا . (الطور: ٩، ١٠).

وقال تعالى: وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . (الكهف: ٤٧).

وقال تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (إبراهيم: ٤٨).

وقال تعالى: وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا . (النبأ: ٢٠).

فالكون كله بيد الله، وهو سبحانه قادر على حفظ هذا الكون فى الدنيا، وعلى نسف الجبال وتسييرها فى الآخرة.

من المنتخب فى تفسير القرآن الكريم
«لوزارة الأوقاف المصرية»

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ .

المعنى:

وترى - أيها الرسول - الجبال تظنها ثابتة لا تتحرك، ولكنها فى واقع الأمر تتحرك بسرعة كالسحاب، وهذا من صنع الله الذى خلق كل شىء وأبدعه، إنه سبحانه كامل العلم بما يفعل الناس من طاعة ومعصية ومجازيهم عليه.

تعليق بالهامش مختصرا:

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ... تقرر هذه الآية الكريمة أن جميع الأجسام التى تخضع لجاذبية الأرض، مثل الجبال والبحار والغلاف الجوى... إلخ، تشترك مع الأرض فى دورتها اليومية حول محورها، ودورتها السنوية حول الشمس، لكن هذه الدورة لا تدرك، فهى مثل حركة السحاب فى الجو، يراها الناظرون بعيونهم، ولكن لا يسمعون صوتها أو يلمسونها، وتبين هذه الآية الكريمة أن الله عز وجل: خلق الكون والقوانين التى تنظمه، وهو قادر على أن يجعل الأرض ساكنة لا تدور حول محورها، أو يجعل فترة دورانها حول محورها تساوى فترة دورانها حول الشمس، وبذلك يصبح نصف وجه الأرض فى ظلام دامس لمدة ستة أشهر، والنصف الآخر فى نهار ساطع الضوء لمدة ستة أشهر، مما يؤدى إلى اختلال التوازن الحرارى على الأرض كلها، وفى هذا فناء الأحياء التى عليها، والله سبحانه وتعالى هو الذى وضع هذا النظام المحكم رحمة ورأفة بعباده.

وبالرغم من أن (أريستاخورس) الفلكى السكندرى ٣١٠ - ٢٣٠ ق. م، كتب فى موضوع دوران الأرض حول نفسها، فإن هذه الكتابات العلمية القديمة لم تصل إلى العرب وقت محمد ﷺ أو قبله؛ بل إن أوّل من أشار إلى هذه المعلومات هو البيرونى عام ألف للميلاد بعد حركة الترجمة فى الدولة العباسية، فإن إيراد هذه الحقائق العلمية على لسان النبى ﷺ - التى لم تكن قد وصلت إلى علمه - دليل على أنها موحى بها من عند الله [١٥].

من تفسير القرطبى:

يقال: إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة، ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها، وإبراز ما كانت تواريه، فأولى الصفات: الاندكاك، وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعهن المنفوش، وذلك إذا صارت السماء كالمهل (أى: الزيت المذاب)، وقد جمع الله بينهما، فقال تعالى: يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ. (المعارج: ٨، ٩).

والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن.

والحالة الرابعة: أن تنسف.

والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها على وجه الأرض، فتظهرها شعاعًا فى الهواء كأنها غبار.

والحالة السادسة: أن تكون سرابًا.

★ ★ ★

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

المفردات:

من جاء بالحسنة: الإيمان والعمل الصالح.

الفـزع: الخوف من العذاب.

بالسيئة: الإشراك بالله، أو المعاصى.

كُبَّت: ألقيت وجوههم فى النار منكوسة، أو هى كناية عن الأنفس، وكبُّها: إلقاؤها.

التفسير:

٨٩ - مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ .

من جاء بالصلاة والصيام والإيمان، وما يتصل بذلك من الحسنات كذكر الله وطاعته، فله جزاء أفضل وثواب أعظم مما عمل، إلى جوار الأمن النفسى وعدم الخوف، قال تعالى: لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. (الأنبياء: ١٠٣).

وفسر ابن عباس، وابن مسعود وغيرهما من السلف الحسنة فى الآية بشهادة التوحيد، وهذا لا ينافى أن كل حسنة لها جزاء خير منها، أو يقال: إن الحسنة تشمل كلمة التوحيد، وتشمل كل حسنة يعملها الإنسان، قال تعالى: مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ. (الأنعام: ١٦٠).

٩٠ - وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

المراد بالسيئة هنا: الشرك أو الكفر، ويمكن أن يراد بها: المعاصى والسيئات والذنوب.

والمعنى:

ومن جاء بالكفر أو الشرك؛ فإنه يلقى فى النار على وجهه منكوسًا، لأن الوجه أغلى شىء فى الإنسان، فإذا ألقى الوجه فى النار، كان دليلا على إصابة العذاب للجسم كله.

قال تعالى: أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... (الزمر: ٢٤).

كما تشمل الآيات مرتكب السيئات من الفسوق والعصيان والذنوب، كالزنا والسرقة والقتل، وترك الفرائض وإهمال الواجبات، هؤلاء جميعًا يلقون فى النار ويعذبون فيها، ويقال لهم على سبيل التبكيت والإهانة:

هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . أى: إن الجزاء هنا من جنس أعمالكم فى الدنيا؛ فأنتم تعذبون عقوبة على أعمالكم السيئة، والمكث فى النار يختلف من شخص لآخر، فالكفار والمشركون يخلدون فى النار، لأنهم كانوا عازمين على الكفر بالله أبدا، فكان عذابهم الخلود فى النار خلودًا أبديًا.

أما المؤمنون بالله مع العصيان وارتكاب السيئات، فإنهم يلقون جزاءهم فى جهنم، ثم يخرجون منها إلى الجنة، فلا يخلد فى جهنم من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان، كما جاء فى صحاح السنة، وفى حديث البطاقة ما يفيد: «أن الله تعالى يحاسب عبدًا على أعماله فيجد سجلات كثيرة فيها السيئات، فيسأله الله تعالى: هل ظلمك الكرام الكاتبون؟ فيقول: لا يا رب، حتى إذا يئس العبد، قال الله له: إن لك عندنا بطاقة. فيها شهادة لا إله إلا الله: فيقول العبد: يا رب، وما تصنع هذه البطاقة أمام هذه السجلات الكثيرة. فتوضع البطاقة فى كفة، والسجلات فى كفة، فرجحت البطاقة وطاشت السجلات». قال ﷺ: «ولا يرجح مع اسم الله شىء».

وقال ابن مسعود، وابن عباس، والضحاك، والحسن، وقتادة، فى قوله: ومن جاء بالسيئة. يعنى: الشرك. ا . هـ .

ونقول: إن مكافأة المحسن ومعاقبة المسىء واردة فى روح القرآن الكريم وآياته:

قال تعالى: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧، ٨).

وقال سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء: ٤٠).

كما جاء فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة، أن الله يضاعف ثواب الحسنة عشر أمثالها أو أكثر، والسيئة تكتب سيئة واحدة.

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فعملها كتبت له عشر حسنات إلى أضعاف مضاعفة، ومن هم بها فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن هم بها فعملها كتبت له سيئة واحدة»[١٦].

وقال تعالى: مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ . (الأنعام: ١٦٠).

والخلاصة:

إن روح القرآن والسنة تؤيد أن الآيتين ٨٩، ٩٠ من سورة النمل بشأن ثواب الحسنة وعقاب السيئة، وأن ذلك عام وليس خاصا. فمن أشرك فقد جاء بالسيئة، وعقوبته الخلود فى النار، ومن عصى الله وأسرف على نفسه بفعل المحرمات فسيدخل النار، وسيمكث فيها بمقدار العقوبة التى يستحقها، ثم يزحزح عن النار إلى الجنة، حيث يأتى وقت لا يبقى فى النار من قال: (لا إله إلا الله).

وإذا أمعنا النظر فى الآية وجدناها تفيد أن الجزاء من جنس العمل وعلى قدره، قال تعالى: وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

فللشرك عقوبة تناسبه، وللمؤمن العاصى عقوبة تناسب المعصية، قال تعالى: وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا. (الكهف: ٤٩).

☆ ☆ ★

ختام سورة النمل

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

المفردات:

هذه البلدة: المراد بها مكة.

من المسلمين: من المنقادين لملة التوحيد.

سيريكم آياته: دلائل قدرته، وأمارات سلطانه فى الدنيا والآخرة.

التفسير:

٩١ - إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

تأتى هذه الآيات فى ختام السورة فتلخص الفكرة الإسلامية، والدعوة المحمدية، فى الدعوة إلى إخلاص الوجه لله تعالى وحده لا شريك له، مع العناية بإخلاص العبادة لله، والبعد عن الشرك وعبادة الأوثان، وكان العرب يقيمون فى مكة، ويشاهدون حرمتها وأهميتها، والله تعالى يذكِّرهم بفضله عليهم، فى تيسير الأمن والأمان لهم، فلماذا لا يعبدونه سبحانه وتعالى؟

ومعنى الآية:

لقد أمرنى الله تعالى أن أعبده وحده لا شريك له، فهو ربنا ورب كل شىء ومليكه، وهو رب مكة البلد الحرام الذى حرّم مكة، وحرم العدوان فيها، وجعلها حرما آمنا، والله تعالى له كل شىء فى الكون، خلقا وإيجادًا

ورعاية وحفظًا، فبيده سبحانه ملكوت السماوات والأرض، وفى آية الكرسى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ . (البقرة: ٢٥٥).

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

الذين أسلموا وجوههم لله، وانقادوا لشريعة الإسلام مخلصين لله، راغبين فى ثوابه، راهبين من عقابه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ . (الزمر: ١١، ١٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ . (الأنعام: ١٦١ - ١٦٤).

ومن مأثور الدعاء: «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شىء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما، وأحصى كل شىء عددًا».

فى معنى الآية:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: ٧٥).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ . (قريش: ١ - ٤)

وجاء فى الصحيحين، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: « إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها» (١٧).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٧).

٩٢ - وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ .

تلك هى دعوة الإسلام: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... (البقرة: ٢٥٦). إنما هى دعوة إلى الله تعالى، وإخلاص الوجه لله، وعلى الرسول الأمين أن يتلو القرآن، فهو كتاب الدعوة الإسلامية وأصل أصولها، وهو الذى أنزله الله هدى ونورًا، وهو الذى حرك فى النفس نشاطها وإيمانها، ولفت الأنظار إلى الخلق والإبداع، وإلى كتاب الكون المفتوح، وإلى النفس البشرية، وبيَّن كرامة الإنسان وسلامة فطرته، وبين أن الله منح الإنسان العقل والإرادة والاختيار، وترك له تحديد مسار نفسه بالاهتداء أو بالكفر.

فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ... فمن اختار الهدى والإيمان، فقد اختار الفلاح لنفسه.

قال تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ❊ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ❊ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ❊ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا . (الشمس: ٧ - ١٠).

وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ .

ومن أعرض عن سماع القرآن، واختار الضلالة على الهدى، فليس علىّ إلا البلاغ، وما أنا إلا نذير، أحذِّر من الكفر والضلال، وأبشر بالجنة لمن أطاع، والإنسان حرٌّ فى اختيار ما يناسبه، قال تعالى: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ❊ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان: ٢، ٣).

وقال تعالى: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ❊ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ . (الغاشية: ٢١، ٢٢).

وقال تعالى: لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... (البقرة: ٢٧٢).

وقال سبحانه: إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ . (فاطر: ٢٣).

٩٣ - وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

وقل يا محمد: الشكر لله فهو أهل للثناء والحمد، له الشكر على ما أنعم، وله الحمد فى الأولى والآخرة؛ فهو سبحانه الخالق الرازق المنعم المتفضل، له الحمد حمدًا كثيرًا طيبا مباركًا فيه كما يرضى ويحب، وله الحمد بعد الرضا، وله الحمد فى الأولى والآخرة.

وكان من دعاء النبى ﷺ:

«يا ربِّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، رضينا بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا»[١٨].

«اللهم ربنا ولك الحمد، حمدًا كثيرا طيبا طاهرًا مباركا فيه كما ترضى ربنا وتحبّ، ملء السماء، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ...

سيطلعكم الله على دلائل قدرته، وعظيم نعمائه فى الكون والآفاق، وفى آفاق النفس وأقطار العلم؛ فتعرفون وحدانيته وعظمته، قال تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (فصلت: ٥٣).

أو سيريكم آياته يا أهل مكة فى بلاغة القرآن وإعجازه وصدقه، حيث هزمتم يوم بدر، وانتصر المسلمون بعد ذلك حتى فتحوا مكة، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا.

وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

فهو مطلع وشاهد، وسيحاسب الناس ويجازيهم على أعمالهم، وهكذا تختم السورة بهذا التعبير الملفوف، اللطيف المخيف، ثم يدعهم يعملون ما يعملون، وفى أنفسهم أثر الإيقاع العميق: وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

روى أن عمر بن عبد العزيز، قال: فلو كان الله مغفلاً شيئا لأغفل ما تعفى الرياح من أثر قدمى ابن آدم.

وكان الإمام أحمد بن حنبل كثيرا ما ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقلْ
خلوتُ ولكن قل عليّ رقيبُ

ولا تحسبن الله يغفل ساعةً
ولا أن ما يخفى عليه يغيبُ

والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على النبى الأمىّ، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* * *

خلاصة ما تضمنته سورة النمل

١ - وصف القرآن الكريم بأنه هدى ورحمة للمؤمنين.

٢ - قصص موسى عليه السلام.

٣ - قصص سليمان.

٤ - قصص ثمود، وقصص قوط لوط.

٥ - الأدلة على توحيد الله تعالى، وربوبيته لكل شىء.

٦ - إنكار المشركين للبعث والنشور.

٧ - علم الله بما فى الصدور.

٨ - حكم القرآن على ما اختلف فيه بنو اسرائيل.

٩ - قطع الأطماع فى إيمان المشركين، وتشبيههم بالعمى والصم.

١٠ - أشراط الساعة مثل: خروج الدابة من الأرض، وحشر فوج من كل أمة.

١١ - الجزاء على العمل خيرًا كان أو شرًا.

١٢ - ختام السورة، فى تجرّد المؤمن فى عبادة الله والبعد عن الأوثان.

١٣ - حمد الله، والثناء عليه، وتلاوة القرآن الكريم.

١٤ - سيرى المشركون آيات الله فيعرفونها حين لا يفيدهم ذلك شيئا.

★ ★ ★

تم تفسير سورة النمل، والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة القصص

أهداف سورة القصص

سورة القصص مكية، وآياتها ٨٨ آية، نزلت بعد سورة النمل، وقد نزلت فى الفترة المكية الأخيرة فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، وقد سميت بسورة القصص لاشتمالها على القصص الذى حكاه موسى لنبى الله شعيب فى قوله سبحانه: فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . (القصص: ٢٥).

قصة موسى

تستغرق قصة موسى حيزًا كبيرا من سورة القصص، فمن بداية السورة إلى الآية ٤٨ نجد حديثا مستفيضا عن موسى عليه السلام.

وفى الآيات (٧٥ - ٨٢) نجد حديثا عن قارون، أى أن معظم سورة القصص يتناول قصة موسى ويتناول قصة قارون، والحكمة فى ذلك أن هذه السورة نزلت بمكة فى مرحلة قاسية، كان المسلمون فيها قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان، فنزلت هذه السورة تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، وتقرر أن هناك قوة واحدة فى هذا الوجود. هى قوة الله، وأن هناك قيمة واحدة فى هذا الكون هى قيمة الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى.

ومن ثم يقوم كيان سورة القصص على قصة موسى وفرعون، وتعرض السورة من خلال هذه القصة قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر، وفى مواجهتها موسى طفلا رضيعا لا حول له ولا قوة، ولا ملجأ له ولا وقاية.

وقد علا فرعون فى الأرض، واتخذ أهلها شيعا، واستضعف بنى إسرائيل، يذبح أبناءهم، ويستحيى نساءهم، وهو على حذر منهم، وهو قابض على أعناقهم. لكن قوة فرعون وجبروته وحذره ويقظته، لا تغنى عنه شيئا، بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير المجرد من كل قوة وحيلة، وهو فى حراسة القوة الحقيقية الوحيدة، ترعاه عين العناية، وتدفع عنه السوء، وتعمى عنه العيون، وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا، فتدفع به إلى حجره، وتدخل به عليه عرينه، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه، مكفوف الأذى عنه، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه.

لقد طمعت آسية أن يكون موسى وليدا لها تتبناه مع زوجها فرعون، فقالت لفرعون: قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ . (القصص: ٩).

وهكذا دبر الله أن يتربى موسى فى بيت فرعون، وأن يؤتى الحذر من مكمنه، ولما حرم الله المراضع على موسى، جاءت أمه كمرضعة له، وأرضعته فى بيت فرعون، وصار فرعون يجرى عليها كل يوم دينارًا من الذهب، وفى الحديث يقول النبى ﷺ: «مثل المؤمن كأم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرتها»[١٩].

موسى فى سن الرجولة:

بلغ موسى أشده، واستكمل نيفا وثلاثين عاما، وقد صنعه الله على عينه، فصار يتأمل فى هذا الكون، ويبتعد عن حاشية فرعون، ودخل العاصمة فى فترة الظهيرة فرأى قبطيا يعمل طباخا فى قصر فرعون يتشاجر مع إسرائيلى، فاستغاث به الإسرائيلى؛ فضرب موسى القبطى بجمع يده فوقع جثة هامدة، وندم موسى على ذلك واستغفر الله وتاب إليه.

وتربص قوم فرعون بموسى ليقتلوه، فانتدبت يد القدرة واحدا منهم يكتم إيمانه عنهم، وجاء لموسى وقال له: إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. (القصص: ٢٠).

خرج موسى هاربا مهاجرًا متجها إلى أرض مدين وحيدا فريدا فآواه الله ورعاه، وتعرف هناك على نبى الله شعيب وتزوج بابنته ومكث هناك عشر سنين، ثم عاوده الحنين إلى مصر فجاء إليها عبر سيناء، وعند الشجرة المباركة نودى من قبل الله: أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين، وامتن الله عليه بالرسالة وأيده بالمعجزات.

موسى مع فرعون:

عاد موسى إلى فرعون مرة أخرى يدعوه إلى الإيمان بالله ويقدم له الأدلة العقلية والمعجزات الظاهرة، ولكن فرعون طغى وتجبر وكذب وعصى؛ فأهلكه الله وأخذه نكال الآخرة والأولى، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى.

الحلقة الجديدة فى القصة:

عنيت سورة القصص بإبراز حلقة ميلاد موسى، وتربيته فى بيت فرعون، وهى حلقة جديدة فى القصة تكشف عن تحدى القدرة الإلهية للطغيان والظلم، وفيها يتجلى عجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القدر المحتوم والقضاء النافذ.

لقد ولد موسى فى ظروف قاسية فى ظاهرها، فصاحبته رعاية الله وعنايته، فى رضاعه وفى نشأته وفتوته، وصنعه الله على عينه وهيأه للرسالة، وإذا أراد الله أمرًا هيأ له الأسباب ثم قال له كن فيكون.

قارون:

ذكرت سورة القصص قصة موسى فى بدايتها وقصة قارون فى نهايتها، والهدف واحد، فقصة فرعون تمثل طغيان الملك، وقصة قارون تمثل طغيان المال.

كان قارون من قوم موسى وكان غنيا ذا قدرة ومعرفة، وأوتى من المال ما إن مفاتحه لتعيى العصبة من الرجال الأقوياء، وخرج على قومه فى زينته وأبهته ليكسر قلوب الفقراء، ونصحه قومه بالاعتدال وإخراج الزكاة، والإحسان إلى الناس والابتعاد عن الفساد.

فزادته النصيحة تيها وعلوا، وخرج يباهى الناس بماله وكنوزه، ثم تدخلت يد القدرة الإلهية فخسفت به وبداره الأرض، ولم يغن عنه ماله ولا علمه.

وهكذا تصير عاقبة الظالمين، كما غرق فرعون فى البحر، هلك قارون خسفا فى الأرض، ولا تزال بحيرة قارون تذكر الناس بنهاية الظالمين. قال تعالى: وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۞ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت: ٣٩، ٤٠).

أهداف السورة

تهدف سورة القصص إلى إثبات قدرة الله ورعايته للمؤمنين، فهو سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد المتفرد بالحكم والقضاء، قد آزر موسى وحيدا فريدا طريدا، ونجاه من بطش فرعون، وأغرق فرعون وجنوده، كما أهلك قارون وقومه.

وبين القصتين نجد الآيات من (٤٤ - ٧٥) تعقب على قصة موسى وتبين أين يكون الأمن، وأين تكون المخافة، وتجول مع المشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمعاذير، تجول معهم جولات شتى فى مشاهد الكون، وفى مشهد الحشر، وفيما هم فيه من الأمن، بعد أن تعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم ﷺ، وكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين، بينما هم يتلقونه بالكفران والجحود، وهو رحمة لهم من العذاب، لو أنهم كانوا يتذكرون.

ختام السورة

فى ختام السورة نجد الآيات (٨٥ - ٨٨)، تعد الرسول ﷺ بالرجوع إلى مكة فاتحا منتصرا، ينشر الهدى ويقيم الحق والعدل، ومن العجيب أن هذا الوعد بالنصر جاءه وهو مُخْرَج من بلده، مطارد من قومه، مهاجر إلى المدينة ولم يبلغها بعد، فقد كان بالجحفة قريبا من مكة، قريبا من الخطر، يتعلق قلبه وبصره ببلده الذى يحبه، ويقول عند فراقه مخاطبا مكة: «والله إنك لمن أحب البلاد إلىّ، ومن أحب البلاد إلى الله، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت».

ويعده الله بالرجوع إلى مكة فيقول: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ... (القصص: ٨٥).

ويبين سبحانه أن كل ما دون الحق فهو عرضة للفناء والزوال، وأن زمام الحكم بيده تعالى، وتختم السورة بهذه الآية إثباتا للوحدانية ولجلال القدرة الإلهية : وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (القصص: ٨٨).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ ﴾

المفردات:

الكتـــــاب: القرآن، لأنه مكتوب فى اللوح المحفوظ، أو لأنه يكتب فى المصحف.

المبـــــين: الواضح المبيِّن للأحكام.

نتـلوا عليــك: ننزل عليك.

النبـــــأ: الخبر العجيب.

عـــلا فى الأرض: تجبَّر واستكبر.

شيـعـــــا: فرقًا، يستخدم كل صنف فى عمل، من بناء وحرث وحفر، إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة، أو أحزابا، يغرى بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتفقوا.

يستضـــعـف: يجعلهم ضعفاء مقهورين.

طـــائفــــة: بنو إسرائيل.

يستحيى نساءهم: يبقى إناثهم دون قتل.

نمـــــن: نتفضل.

أئمـــــة: واحدهم إمام، وهو من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا.

نمكّـــن لهـــم: يقال: مكَّن له، إذا جعل له مكانا موطأ ممهدًا يجلس عليه، والمراد هنا: التسلط على أرض مصر والتصرف فيها.

هامـــــــان: وزير فرعون.

يحـــــــذرون: يتوقعونه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بنى إسرائيل.

تمهيد:

تأتى هذه الآيات فى بداية سورة القصص، توضّح أن يد القدرة الإلهية نافذة واصلة إلى ما تريد، وتحكى أهداف القصة ومغزاها، وهى إرادة الله أن يمكن فى الأرض للضعفاء المقهورين، مثل موسى الطفل الرضيع الذى ييسر الله له الأسباب، حتى يكون سببا فى هلاك فرعون وقومه، وغرقهم فى ماء النيل؛ فمن وجد الله وجد كل شىء، ومن فقد الله فقد كل شىء.

التفسير:

١ - طسٓمٓ .

تقدم الكلام عن هذه الأحرف المقطعة فى أوّل سورتى البقرة وآل عمران وغيرهما.

والخلاصة:

أن للعلماء فى هذه الأحرف رأيين رئيسيين:

الأول: أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه.

الثانى: أن لها معنى، لكن الآراء تعددت فى تحديد هذا المعنى، فقيل: هى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته. وقيل: هى أدوات للتنبيه، كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة، وقيل: هى حروف للتحدّى والإعجاز وبيان أن القرآن الكريم مكوَّن من حروف عربية، هى الطاء والسين والميم، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله؛ فدلّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر، ولكنه تنزيل من حكيم حميد.

٢ - تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ .

هذه آيات القرآن الكريم الواضح المبين، السهل الممتنع، الذى وضّح الأحكام والفرائض، وتحدث عن الحلال والحرام، وبيَّن أحكام التشريع، وقصص السابقين، مثل: نوح، وعاد، وثمود، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد ﷺ.

وأخبر عن القيامة والبعث والحشر والحساب والجزاء، فهو كتاب واضح معجز مبين، شهد له الأعداء، وتحدَّى الله به العرب والعجم والإنس والجن.

٣ - نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

نقصُّ عليك أيها الرسول الكريم من قصة موسى مع فرعون وقوميهما، قصصا متصفا بالحق والصدق، لقوم يؤمنون بالله ويصدقون بقدرته وجبروته، فهو سبحانه وتعالى الواحد الأحد الفرد الصمد، وهو الفعال لما

يريد، وهو الذى إذا أراد أمرًا قال له كن فيكون، وفى قصة موسى رضيع وليد مرغوب فى قتله، ولا قدرة له ولا حيلة، وفى قصة فرعون وهو الملك المتغطرس الذى ادعى الألوهية؛ وقال: يا أَيُّها الْمَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي . . . (القصص: ٣٨)، وقد بطش وظلم وجعل الناس شيعا وأحزابا، وقتل الأطفال الأبرياء.

ثم جعل الله نهايته وهلاكه عظة وعبرة، وبيانا لكل ظالم ان يد الله قوية قادرة قاهرة، ولكل مظلوم أن السماء لا تنام وعليك أن تأخذ بالأسباب ثم تتوكل على الله، قال تعالى: وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . (الطلاق: ٣).

٤ - إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ .

إن فرعون تكبر وتجبر فى أرض مصر، فهو نموذج لحاكم ظالم، يقرّب طائفة من القبط، ويسخّر طائفة في البناء أو الحرث أو الأعمال الشاقة، ويستضعف طائفة ويستذلها وهم طائفة بنى إسرائيل. وكانوا أفضل الطوائف فى ذلك الوقت، وكان فرعون قد رأى رؤيا خلاصتها: أن نارًا جاءت من جهة بنى إسرائيل فأحرقت عرشه، وفسرها الكهنة له بأن طفلا يولد فى بنى إسرائيل يكون على يديه ذهاب مُلك فرعون، فأمر فرعون بقتل المواليد الذكور من بنى إسرائيل، واستحياء الإناث للخدمة والسخرة، لقد كان مفسدًا طاغيا باغيا، فلقى حتفه فى فعله، وحفر لنفسه بظلفه، حيث خشى من طفل يولد من بنى إسرائيل. وخافت أم موسى عليه فألقته فى البحر، والتقطه آل فرعون وألقى الله الحُبَّ على موسى؛ فأحبته امرأة فرعون، وتربى فى قصر فرعون وأكل من طعامه، ثم أوحى الله بالرسالة إلى موسى، فبلّغ رسالته، وجاهد طويلا حتى نصره الله وأغرق فرعون.

٥ - وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ .

يريد الحق سبحانه وتعالى، وهو فعال لما يريد، أن يتفضل على هؤلاء الذين كانوا ضعافا أذلاَّء، مقهورين، مغلوبين؛ ليجعلهم هداة يهتدى بهم فى أمور الدين والدنيا، وأن يرفع عنهم المذلة والمهانة.

وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ .

المتصرِّفين فى نعمتنا وفضلنا تصرف الوارث فى المال الذى ورثه، ولم يثبت فى التاريخ أن بنى إسرائيل حكموا مصر، أو ورثوا أرضها، فالمراد: أن الله أورثهم أرضا شبيهة بها فى فلسطين، أو كانت فلسطين فى ذلك الوقت تابعة لحكم فرعون، والثابت أنهم خرجوا من مصر، ثم حكم الله عليهم بالتيه فى صحراء سيناء أربعين سنة، ثم هلك الجيل الذليل، ونشأ جيل عزيز مؤمن، فتح فلسطين بقيادة يوشع بن نون، ولعل هذا هو الميراث المذكور.

٦ - وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ .

لقد أراد الله – ولا رادّ لقضائه – أن يمكن لبنى إسرائيل فى أرض فلسطين وقتًا ما، ثم فتحوا فلسطين واستمر ملكهم بها فترة محدودة، وغرق فرعون وهامان وجنودهما فى ماء النيل، وأراد الله إعزاز المؤمنين، وإذلال المفسدين، وكان فرعون يخشى من بنى إسرائيل، ويخاف من موسى وقومه، فنصر الله موسى، ومكّن لبنى إسرائيل فى الأرض، ولم ينفع فرعون ظلمه وغشمه وقتله للأطفال الأبرياء؛ فغرق فى النيل وهلك جيشه معه، وحصل ما كان يحذره فرعون ويخاف منه، فإن الحذر لا يمنع القدر، قال الشاعر:

عناية الله إن تولت ضعيفا تعبت فى مراسه الأقوياء

وفى الأثر: عبدى، أنت تريد وأنا أريد، ولا يكون إلا ما أريد، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لى فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ولا يكون إلا ما أريد.

قال تعالى: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ . (الأعراف: ١٣٧).

وقال سبحانه: وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ. (الدخان: ٢٤ – ٢٩).

وقال جل شأنه: فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ. (الشعراء: ٥٧ – ٥٩).

وقد ذكر المفسرون هنا أن بنى إسرائيل لم يحكموا مصر، فلعل المراد: أن الله عوضهم بما يشبه هذه النعم، فى التيه أو فى فلسطين.

★ ★ ★

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾

المفردات:

الوحى: الإلهام، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ...﴾ (النحل: ٦٨).

اليم: البحر، والمقصود هنا النيل، وكل نهر عظيم يطلق عليه بحر لاستبحاره.

الخوف: غم يحصل بسبب توقع مكروه يحدث فى المستقبل.

الحزن: غم يحدث بسبب مكروه قد حصل.

الالتقاط: أخذ شىء فجاة من غير طلب له.

آل فرعون: المراد بآله: من ينسبون إليه، ولو بالخدمة.

عدوا: فتكون عاقبة أمره أن يكون لهم معاديا.

وحزنا: مصدر حزن لهم.

خاطئين: مشركين عاصين لله، متعمدين لارتكاب الخطأ.

قرة عين: سكون وطمأنينة، يقال: قرَّت عينه تقرُّ «بفتح القاف وضمها» قرَّة، إذا سكنت بعد حيرة، أو بردت وانقطع بكاؤها.

فـــــــارغـــــــا: خاليا من العقل وحسن التصرف لما دهمها من الخوف والحيرة، أو خاليا من كل شىء إلاّ من شأن موسى.

إن كـــــــــادت: إنها كادت لتعلن أمره للناس.

ربطنا على قلبها: مجاز عن التثبيت بالصبر.

قُـــصـــيـــه: اقتفى أثره وتتبعى خبره.

فـــبـــصـــرت بـه: أبصرته.

عـــن جُـــنـــب: عن بعد.

لا يشـــعـــرون: لا يدرون أنها أخته.

حـــــــرّمـنـــا: منعنا.

يـــكـــفـــلـــونـــه: يتولّونه ويقومون على تربيته ورضاعته.

نـاصـــحـــون: النصح: إخلاص العمل، والمراد: أنهم يعملون ما ينفعه فى غذائه وتربيته، ولا يقصّرون فى خدمته.

تمهيد:

تتحدث الآيات عن حلقة معينة من حياة نبى الله موسى هى حلقة ميلاده، وما لابس ذلك من عنايات إلهية، منها الوحى والإلهام لأم موسى أن ترضعه فى خفاء، فإذا خشيت عليه من جواسيس فرعون فعليها أن تلقيه فى البحر، وسترعاه عناية الله ليردَّه إلى أمّه، وقد التقطت أسرة فرعون هذا الوليد، وألقى الله محبته فى قلب آسية، فقالت: **لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** . . . (القصص: ٩).

ودبرت العناية الإلهية لهذا الوليد أن يربى فى بيت فرعون، وأن ترضعه أمّه، وإذا أراد الله أمرًا هيأ له الأسباب، ثم قال له كن فيكون.

التفسير:

٧ - **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** .

أى: ألهمنا أم موسى، أو أرسلنا إليها ملكا يطلب منها ذلك، وهذا الوحى لا يُثبت لها نبوة، لاتفاق العلماء على أن النبوة خاصة بالأنبياء الذكور، أو كُلِّفت بذلك فى النوم.

والمقصود أن الله أعلمها وأمرها أن ترضعه وقتما تكون آمنة عليه، فإذا خشيت عليه القتل من جواسيس فرعون، فعليها أن تضعه فى تابوت أو صندوق خشبى وتلقيه فى النيل، وقد أمرها الله ألا تخاف عليه الضياع،

ولا تحزن على مفارقته إياها، فإن الله سيرده إليها بفضله وقدرته، وعندما يبلغ سن الرسالة سيجعله الله من المرسلين برحمته وفضله.

ملاحق حول هذه الآية

أولا:

اتصال السماء بالأشخاص مِنَّة إلهية، ووحى الله إلى أمّ موسى معناه إعلامها بهذا الأمر، قيل: بواسطة ملك، وقيل: بواسطة رؤيا منامية، كرؤيا إبراهيم بذبح ولده، وقيل: إلهام قذف فى قلبها.

ويذكر المفسرون هنا قصة اتصال الملائكة بالناس فى أحاديث صحيحة، مثل قصة الأقرع والأبرص والأعمى [٢٠]، وكانوا مرضى وفقراء، فأراد الله أن يختبرهم فأرسل ملكا إلى كل واحد منهم، فطلب كل واحد منهم الشفاء من مرضه، وأعطى الأول بقرة عشراء، والثانى ناقة عشراء، والثالث شاة عشراء. ثم كثرت أموالهم وصاروا أغنياء أصحاء، فأراد الله اختبارهم فى حالة الغنى، فأرسل الملاك إلى الأول فى صورة شخص أقرع مريض يرجو المعونة، ولكن الشخص الذى كان أقرع سابقا، رفض مساعدته، فذكّره الملاك بأنه كان مريضا وفقيرًا، فقال الرجل: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر، فقال الملاك: اللهم إن كان هذا الرجل كاذبا فأعده إلى ما كان عليه، فعاد الرجل فقيرا كما كان، مريضا كما كان، وفعل الأبرص مثل الأقرع، فعاد مريضا فقيرا. أما الأعمى فقد نجح فى الامتحان، وقال للسائل: خذ ما تشاء من المال، فوالله لا أمنعك مالا أخذته فى سبيل الله، فقال له الملاك: أمسك عليك مالك، فقد رُضى عنك، وسُخط على صاحبيك.

وفى الحديث الصحيح، يقول النبى ﷺ: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يُكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر» [٢١].

وقد سلمت الملائكة على عمران بن حصين ولم يكن نبيا، كما فى تفسير القرطبى.

وفى الحديث النبوى: «إن رجلا ذهب لزيارة أخ له فى الله؛ فأرصد الله له ملكا على مدرجته، وسأله: أين تذهب، ولماذا؟ فقال الرجل: أزور أخا لى فى الله، لأنى أحبه فى الله؛ فقال الملك: إن الله أرسلنى إليك لأخبرك أن الله يحبّك بحبك لأخيك» [٢٢].

وقد كلمت الملائكة مريم ابنة عمران وبشرتها بعيسى ... إلخ، كما نزلت الملائكة فى غزوة بدر، وفى غزوة بنى قريظة، وفى غزوتى حنين والطائف، وفى غيرها من الغزوات والمواقف.

قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا.
(الأحزاب: ٤٣).

وفى الحديث الشريف: «إن لله ملائكة طوافين عليكم، فإذا أتوا إلى مجلس ذكر قالوا: هلموا إنا قد وجدناهم، فيحفونهم بأجنحتهم ويشملونهم بالرحمة والسكينة...» [٢٣] إلى آخر الحديث.

وكلها تلتقى على أن الله تعالى يسخر الملائكة لإنفاذ أمره، وتيسير مراده، ورعاية المؤمنين، ومعاقبة المفسدين.

ثانيا:

اشتملت الآية القرآنية على أمرين ونهيين، وخبرين وبشارتين.

يروى أن امرأة أنشدت شعرا [٢٤]، فمدح الأصمعى فصاحتها وبلاغتها، فقالت: أبعد قوله تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ . . . فصاحة، وقد جمعت بين أمرين ونهيين، وخبرين وبشارتين، وتفصيل ذلك:

أن قوله تعالى: (أرضعيه وألقيه) أمران.

وأن قوله تعالى: (لا تخافى ولا تحزنى) نهيان.

وقوله تعالى: (إنا رادُّه إليك، وجاعلوه من المرسلين) خبران وبشارتان.

ثالثا:

يروى المفسرون هنا قصصا كثيرًا حول بطش فرعون ببنى إسرائيل، ومن ذلك ما ورد فى تفاسير : ابن كثير، ومقاتل بن سليمان، والقرطبى وغيرهم.

وخلاصته:

أن فرعون رأى رؤيا فيها أنَّ نارًا جاءت من بنى إسرائيل فأحرقت عرشه، ففسرها الكهان بأن طفلا يولد فى بنى إسرائيل يكون على يديه نهاية ملكه، فأمر أن تقتل الذكور من بنى إسرائيل وتستحيى الإناث. فقتل فرعون الآلاف من أطفال بنى إسرائيل، ليموت موسى بينهم، بيد أن عناية الله جعلت فرعون يلتقطه ويربيه ويرعاه لتكون نهايته على يديه، فإذا أراد الله أمرًا هيأ له الأسباب، ثم قال له كن فيكون.

رابعا:

ولد موسى فى ظروف صعبة، فأرضعته أمه ثلاثة أشهر، وقيل: أربعة أشهر، حتى خشيت عليه من جواسيس فرعون؛ فصنعت له تابوتا على هيئة صندوق من ورق البردى ودهنته بالقار وأغلقت الصندوق، ووضعته فى البحر، وشتان بين صبى فى حضن أمه وثديها وحنانها، ونفس هذا الصبى يلقى فى البحر عند الخوف عليه، فيلقى الله عليه المحبة، فكل من رآه أحبّه، وتصنع الأقدار ما تشاء، لتجعل من هذا الصبى المنقذ لبنى إسرائيل، ولتكون نهاية فرعون على يديه.

٨ - فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ .

أفادت الآية السابقة أن الله أوحى إلى أمِّ موسى أن أرضعيه ما دمت آمنة عليه من أتباع فرعون، فإذا خفت عليه منهم فألقيه فى البحر.

ونفهم من السياق أن أمّ موسى أرضعته فترة، ذكر بعض المفسرين أنها ثلاثة أشهر، وقال بعضهم: أربعة أشهر، فلما اشتد خوفها عليه من العسس والجواسيس الذين يذبحون الذكور بسكاكين حادة، ثم يتركونهم ذاهبين، عندئذ صنعت تابوتا وضعت فيه موسى وألقته فى نهر النيل، فأخذته الأمواج قرب قصر فرعون، وشاهدته آسية امرأة فرعون، فأمرت الجنود بإحضاره؛ فأحضروه لها، ففتحت الصندوق فأبصرت غلامًا وضيئًا يشع النور من جبينه، فألقى الله محبته فى قلبها، فتمسكت به ورغبت فى حضانته لحكمة أرادها الله، هى أن يربى فى بيت فرعون، وبين سمعه وبصره، وليكون موسى هو المخلّص لبنى إسرائيل من عنت فرعون.

لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ...

أى: التقط أهل فرعون وحاشيته الوليد من ماء النيل، ليتحقق ما أراده الله، فى أن يكون هذا الوليد الذى التقطوه وأنقذوه وكفلوه، هو الذى أوحى إليه برسالة سماوية عادلة، أمرت بعبادة الله وحده، لا بعبادة الفرعون، وحررت الناس من العبودية، وقاد موسى بنى إسرائيل فى ليلة معينة، ونجاه الله من البحر، وأغرق فرعون.

قال المفسرون، واللام هنا لام العاقبة والصيرورة؛ لأنهم التقطوه ليكون لهم قرة عين، فكانت عاقبته أن كان مصدر عداوة وحزن، كما فى قول الشاعر:

وللمنايا تربى كلّ مرضعة ودُورنا لخراب الدهر نبنيها

ويرى بعضهم أن اللام هنا يصح أن تكون لام التعليل؛ بمعنى أن الله تعالى بمشيئته وحكمته يسَّر لموسى التقاط آل فرعون له، وتربيته وكفالته ورعايته؛ ليكون يد القدر فى إهلاك فرعون وجنوده، وليكون ذلك أبلغ فى إبطال حذرهم منه، فقد ربّوه رجاء نفعه أو أن يكون لهم ولدًا. وأراد الله أن يكون وسيلة الانتقام منهم.

إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ .

فقد ارتكبوا ذنوبا عظاما، وقتلوا آلاف الأطفال الأبرياء، وعذّبوا بنى إسرائيل واستذلوهم؛ فعاقب الله فرعون وقومه عقابا يستحقونه.

خَاطِئِينَ . مرتكبين للخطأ، أو مرتكبين للخطيئة والإثم، ويطلق عليه الخِطْء بكسر الخاء وسكون الطاء.

قال تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا . (الإسراء: ٣١).

٩ - وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

حين رأت آسية بنت مزاحم الصبىّ تخيلت فيه وسامة وذكاءً ونورا، وألقى الله محبته فى قلبها؛ فقالت لزوجها: قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ... أى: مصدر سرور وفرح لى ولك، لا تقتلوه كما تقتل أطفال بنى إسرائيل، وكأنها

أحست من فرعون برغبة فى قتله، فحببت فيه فرعون؛ وقالت: انظر إلى براءة وجهه وطهارته ونجابته وأصالته، ثم خاطبت الفرعون والحاشية المكلفة بقتل الأطفال فقالت: لَا تَقْتُلُوهُ... وكانت عقيما لا تلد، أو ولدت بنتًا مريضة، شفيت عند قدوم موسى.

فقالت لفرعون: عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا... عسى أن يكون عونا لنا ومساعدًا، فإنى أرى فيه كرم الأصل، ومسحة الذكاء، وخيرًا وبركة.

أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا. نتبناه فيكون لنا ولدًا، نعتمد عليه فى كبرنا، ويشدُّ أزرنا، ونسعدُ به كما يسعد الآباء بأبنائهم.

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

أن يد القدرة الإلهية تحرّك الأمور، وتلقى الحُب لموسى فى القلوب، ليكون الحبُّ له وسيلة عملية، تستولى على قلب الطاغية، وعلى قلب زوجته؛ لتصنع الأقدار بيد هذا الطفل هلاك الطاغين، ونجاة المؤمنين.

١٠ - وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

ألقت الأمُّ وليدها فى البحر امتثالا لأمر الله تعالى، لقد ألقته ليلاً، وفى الصباح اشتد حزنها وهلعها، حين رأت الأمواج ترتفع وتنخفض، أو حين خشيت عليه الغرق أو الضياع، أو القتل أو الموت.

قال المفسرون: أصبح قلبها فارغًا من كل شىء إلا من موسى، أين ذهب؟ من أخذه؟ هل هو حىّ أم ميّت؟ ماذا يصير أمره إذا عُثر عليه ؟

وهى عاطفة الأمّ، تكاد تسيطر على تصرفاتها، فتنسيها الحكمة أو الصبر، أو التجلّد أو انتظار الفرج، وفى تلك اللحظة أوشكت أن تصيح فى الناس قائلة: أدركونى، لقد ألقيت وليدى بيدى فى البحر، فهل من سبيل لإرجاعه لى ؟

لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

أى: لولا أن ثبَّت الله قلبها بالإيمان، وملأ قلبها باليقين والثقة بوعد الله، فأعاد الله إليها الهدوء والاطمئنان وثبات الفؤاد، لتكون من الملتزمين بتصديق الله فى وعده، والآية تصور فطرة الأم وعاطفتها فى حالة من حالات الشك واليأس، ثم يأتى فضل الله فيجعل فى القلب بردًا وسلامًا ويقينًا وثقة واطمئنانًا. وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا... (يوسف: ١١٠)

١١ - وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

أى: كلَّفت أم موسى أخته الكبرى أن تقص أثره وأن تعرف مصيره، وأن تحاول التعرف على أخباره، فأبصرته من بعيد وهى ترقبه بعينها، وتحاول أن تصرف عنه وجهها، وأهل فرعون لا يشعرون أنها أخته، ولا يدركون أنها تتعرف على حاله ومصيره.

فما أعظم هذه الأخت التى تخوض الأهوال، بقلب ثابت وعزيمة راسخة، وروح فدائية، وتتسبب فى خير كثير، وتكون وسيلة القدر فى إعادة الطفل إلى أمه، وتربيته فى أحضان والدته، والله على كل شىء قدير.

١٢ - وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ .

عندما فرحت آسيةُ بالوليد، ورغَّبت فرعون فى كفالته وتبنيه، قبل الفرعون ذلك، ووضع الله لموسى الحبَّ، فكل من رآه أحبه، قال تعالى: وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي . (طه: ٣٩).

واستقدم آل فرعون المراضع لارضاع موسى، فرفض الرضاع منهن جميعا، واشتد جزع آسية إشفاقا على الوليد، وخوفا على حياته، فلما شاهدت أخته ذلك تقدمت إليهم بالنصح وقالت: أعرف امرأة طيبة اللَّبن، طيبة الريح، يمكن أن ترضع هذا الوليد لكم، فسألوها: هل تعرفين هذا الوليد؟ قالت: لا، وإنما نحن جميعا ناصحون للملك، نريد خدمته والمحافظة على أحبابه، فطلبوا منها إحضار هذه المرضعة، فجاءت يوكابد أم موسى فى صورة مرضعة، فلما رآها الوليد فرح بها ورضع منها، فسألوها: هل أنت أمّه؟ قالت: لا، لكنى امرأة طيبة اللبن، طيبة الريح، لا أوتى بصبى إلا رضع منى، فقدموا لها بعض الأطفال الرُّضع فرضعوا منها جميعًا، ولم يرفضها رضيع، ففرحت بذلك آسية، وأكرمت يوكابد، وقدَّمت لها الصلة والمعروف، وسمحت لها أن تحمل الوليد إلى بيتها لترضعه وترعاه. فذلك قوله تعالى:

١٣ - فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

فأرجع الله الوليد إلى أمه يعيش آمنا مطمئنا، وتعيش أمّه معه فى بحبوحة من العيش، وسعادة وقرة عين بلا حزن ولا خوف، وقد كان الوقت قليلا بين إلقائه فى البحر، وبين عودته إلى أمه فى أمان ويسر وسعادة، حتى قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كأم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرتها»[٢٥].

فالمؤمن يصلّى ويصوم ويطيع الله، فيحفظه الله فى الدنيا، ويدّخر له الثواب فى الآخرة، فله جهتان للمنفعة، وأم موسى ترضع ابنها فتسعد وتفرح، وتأخذ أجرة من بيت فرعون زيادة من الله فى الفضل والعناية.

وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .

حين وعدها الله أن يردَّ إليها ولدها، وأن يجعله رسولا، ليتأكد لها صدق الوحى والإعلام بذلك، أو ما وعد الله به رسله من النصر، حين قال: كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة: ٢١).

فقد دبَّر الله لهذا الوليد سلامته ورعايته وتربيته بإشراف فرعون، وإحضار أمه مرضعة له، وقبول آل فرعون أن يربّى فى بيت أمِّه، وما يعلمون أن القدر يدبّر ويسخِّر ويمهد لما يشاؤه الله.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ .

أى: لا يعرفون حكمة الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة، فربما وقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محمودة، كما قال تعالى: وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ . (البقرة: ٢١٦).

ويشبه أن تكون جملة وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ . تعريضا بما حدث من أمِّ موسى، حين أصبح قلبها فارغًا من كل شىء فى الدنيا إلا أمر موسى، وأوشكت أن تصيح فى الناس قائلة: ألقيت بولدى فى البحر. لكن الله ربط على قلبها لتكون من المؤمنين، ثم ردّ إليها ولدها لتتيقن بأن وعد الله حق لا ريب فيه، ولكن كثيرا من الناس يخامرهم الشك فى ذلك.

قال القرطبى:

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ . يعنى: أكثر آل فرعون لا يعلمون.

أى: كانوا فى غفلة عن التقدير وسر القضاء.

★ ★ ★

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

أشده : قوته ، ما بين ١٨ – ٣٠ سنة ، كما فى القاموس ، وقال البيضاوى : هو من ٣٠ – ٤٠ سنة .

واستوى : واعتدل وبلغ المبلغ الذى لا يزاد عليه ، واستوى الرجل : بلغ أشده ، أو أربعين سنة .

حكما : حكمة .

وعلما : ومعرفة وفهما .

شيعته : جماعته وحزبه ، أى : من بنى إسرائيل .

فاستغاثه : طلب غوثه ونصرته ومساعدته .

فوكزه موسى : ضربه بكفه مقبوضة الأصابع فى صدره ، وقد يطلق الوكز على معنى الطعن والدفع .

فقضى عليه : أنهى حياته فمات .

ظهيرا : معينًا ومساعدًا .

يترقب : ينتظر ويترصد المكروه .

استنصره : طلب نصره ومعاونته .

يستصرخه : يستغيث به .

يبطش : البطش الأخذ بالشدة والعنف .

جبارا : الجبار . اسم من أسمائه تعالى ، والجبار : العظيم القوىّ ، وكل عاتٍ ، ومن يقاتل فى غير حق .

التفسير :

١٤ – وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .

سكت القرآن عن الحلقة التالية لحلقة الرضاعة ، وقد كانت هذه الحلقة فى كفالة الفرعون ، وقد يلقب موسى بن فرعون ، لكنّ آيات القرآن تشير إلى رعاية الله له وإلقاء المحبة عليه ، كما قال تعالى : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ . (طه : ٣٩) .

فلابد أن أمه أخبرته بحقيقة نسبه ، وعشيرته . والمتوقع أن طبيعة موسى الكريمة تأنف ظلم فرعون وبطشه ، وغشمه ، والمتوقع أن فجوة ما تحدث بين موسى وبين فرعون وحاشيته ، بسبب سلوك موسى الكريم ، الآنف من الظلم .

وتشير الآية إلى أن موسى قد بلغ مبلغ الرجال ، وَٱسْتَوَىٰٓ . بلغ غاية الكمال الجسمى والعقلى .

قال بعض المفسرين : بلغ أربعين سنة ، وقال بعضهم : ثلاثين سنة ، ونختار أن تكون سنُّه فى ذلك الوقت مقاربة للثلاثين ، لأنه مكث فى أرض مدين عشر سنين ثم عاد إلى مصر ، فاختاره الله رسولاً .

ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ...

أى : سيرة الحكماء والعلماء وأخلاقهم وسمتهم قبل البعثة .

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .

أى : وبمثل هذا الفضل والرعاية ، والمعونة والخير ، نجزى كل محسن فى عمله ، بأن نفتح له أبواب الفتوح والحكمة والعلم .

ونلاحظ أن هذه الآية من المتشابه ، حيث قال تعالى فى سورة يوسف : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . (يوسف : ٢٢) .

ونلمح أن يوسف هنا بلغ مبلغ الرجال ، أى : فيما بين العشرين والثلاثين فهو أقرب إلى سن الخامسة والعشرين .

وفى سورة القصص قال تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .

فهذه الآية زادت كلمة : وَٱسْتَوَىٰٓ ، أى : اكتمل جسمه وعقله ورشده ، فهو أقرب إلى سن الثلاثين . وقد تعددت آراء العلماء فى بلوغ الأشد والاستواء .

عن ابن عباس : الأشد ما بين الثامنة عشرة والثلاثين ، والاستواء ما بين الثلاثين والأربعين .

وقال مجاهد : الأشد فى الثلاثين ، والاستواء فى الأربعين .

وقال الزجاج : الأشد ما بين الثلاثين والأربعين .

والمحققون يقولون :

بلوغ الأشد فى الأصل الانتهاء إلى حد القوة وذلك وقت تمام النمو وغايته ، والاستواء تمام العقل وكماله ونضجه ، وذلك يختلف باختلاف الأقاليم والعصور والأحوال ، ولذا وقع له تفاسير كثيرة فى كتب اللغة والتفسير .

١٥ – وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ .

كان موسى عليه السلام قد جاهر بعداوة فرعون ، وندد بسلوكه كما أخبر بذلك ابن إسحاق ، وقد اختفى موسى بعض الوقت ، ثم دخل مصر أو مدينة منف من أرض مصر متنكرًا ، فوجد رجلين يقتتلان ويتشاحنان ، أحدهما قبطى من أتباع فرعون ، والثانى إسرائيلى من شيعة موسى ، فاستعان به الإسرائيلى طالبًا نصرته لأنه مظلوم ، والآخر يريد أن يسخِّره بدون وجه حق ، فوكزه موسى بقبضة يده ، بعد أن جمع فيها أصابعه ، واتجه بها إلى صدر القبطى ، فوقع القبطى ميتًا ، ونلمح من ذلك قوة موسى ، وشدة انفعاله ، لكن موسى لم يقصد قتل الرجل بل تأديبه ، فلما رآه ميتًا ، ندم وقال : هذا من الغضب ، والغضب من الشيطان ، فالشيطان عدو بيِّن العداوة ، يريد أن يستدرج الإنسان إلى الشر والإثم .

١٦ – قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

رجع موسى فورًا إلى ربّه نادمًا مستبينًا أنه فعل ذنبًا ، أدى إلى قتل نفس ووفاة هذا القبطى ، فقال : رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ...

لجأ إلى الله تعالى نادمًا مستغفرًا تائبًا ، طالبًا من الله تعالى المغفرة والستر ، وأحس موسى بمغفرة الله تعالى له ، فالله هو كثير المغفرة ، كثير الرحمة بعباده .

لقد رأى موسى فى الوكز دفع ظالم عن مظلوم ، فلما خرّ الرجل ميتا تبين أنه تسرَّع ، وأنه كان يمكن دفعه بدون الوكز ، ولعلَّ موسى كان غاضبًا من تصرف هذا القبطى ، ويقال : إن القبطىّ كان خبَّازًا للملك، وأنّه كلف الإسرائيلى حمل الحطب إلى مطبخ فرعون فأبى فاقتتلا ، وشاهد موسى ذلك فوكز القبطى فقتله، ثم ندم واستغفر ، وتبين أنه فعل خلاف الأولى ، وأنه كان ينبغى أن يتريث ، وأن يمنع القبطى عن الظلم بدون هذه الضربة القاضية .

١٧ – قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ .

أى : قال موسى مُناجيًا ربّه : رب أنعمت علىَّ بالقوة والحكمة ، والعلم وسائر النعم ، وقبلت توبتى ، فإنى أعاهدك ألا أناصر ظالمًا ، ولا أمشى فى ركابه ، ولا أكون وسيلة من وسائل بطشه ، وتعذيبه للضعفاء والمظلومين .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية ، أن المؤمن لا ينبغى أن يكون آلة فى يد الظالم ، يسير خلفه أو ينفّذ أوامره ، أو يعذّب الناس ويضطهدهم ، بل ينبغى للمؤمن أن يكون عونًا للضعفاء والمظلومين .

جاء فى تفسير النيسابورى :

وفى الآية دليل على عدم جواز إعانة الظلمة والفسقة ، حتى برى القلم وليق الدواة .

١٨ – فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ .

أصبح موسى فى مدينة منف حيث يستقر الحاكم ، أو مدينة مصر ، خائفًا من عاقبة ما حدث بالأمس من قتل القبطى ، يترقب وقوع الشر والمكروه ، وما سيسفر عنه هذا القتل من اتهامات وعقوبات ومساءلات، ونشعر من هذا التعبير ، بما أصاب موسى عليه السلام ، من هم وحزن وقلق نفسى ، من جراء ما حدث ، وما أحاط به من ملابسات ، ونشعر كذلك أن علاقة موسى بالقصر الفرعونى ، لم تكن علاقة مودة ومحبة ، بل كانت بينهما محبة مفقودة ، ورغبة فى الانتقام .

فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ...

أى : بينما موسى فى هذه الحالة من الخوف والترقب ، إذا الشخص الإسرائيلى الذى طلب نصرته بالأمس ، يصرخ طالبًا نجدته ونصرته على قبطى آخر .

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ .

أى : نهر موسى ذلك الإسرائيلى الذى لا عمل له سوى الشجار ، ودخول معارك بدون استعداد لها ، فقال له موسى : إنك كثير الغواية والشر ، واضحُ انغماسك فى المشاجرات والمشاحنات .

١٩ – فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ .

رغم حالة موسى النفسية ، وما هو فيه من الخوف والترقُّب ، إلا أنَّه لم يشأ أن ينفرد القبطى الظالم ، بالإسرائيلى المظلوم ، وعزم على أن يبطش بالقبطى ويدفعه بقوة وعنف ، فإذا بالإسرائيلى يتوقع الشر من موسى ، ويظن أنه يريد أن يبطش به هو ، بعد أن قال له : إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ، فقال الإسرائيلى :

يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ...

ولم يكن أحدٌ يعرف أن قتيل الأمس قُتل على يد موسى ، فلما سمع القبطى ذلك حمل هذه الأخبار إلى فرعون وحاشيته ، فقد كان قتيل الأمس قد قتل فى وقت الظهيرة والقيلولة، أو فيما بين المغرب والعشاء، ولم يتأكد لدى السلطة من الذى قتل القبطى ، ولكن الإسرائيلى الخائف هو الذى صرح باسم القاتل ، وقال: يا موسى أتريد أن تبطش بى أنا ، فتقتلنى بقوتك وجبروتك ، كما قتلت قتيلاً بالأمس .

إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ ...

ما تريد إلا أن تكون باطشًا بالناس ، كثير القتل وسفك الدماء ، مفسدًا فى الأرض .

وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ .

الذى يصلحون بين الناس ، أو يعلِّمون الناس الدِّين والسلوك القويم ، وكان موسى مشهورًا بدعوته إلى الاستقامة ، والصفح والتعاون ، والنهى عن الحقد والحسد والشر .

والخلاصة : أنت صاحب دعوة إلى التسامح والعفو، لكنى أرى الشرَّ فى عينيك ، أتريد قتلى كما قتلت نفسًا بالأمس ؟ ما تريد بتصرفك هذا إلا الفساد والعدوان ، وما تريد أن تكون من المتسامحين المصلحين .

رأى لبعض المفسرين

الرأى السابق هو رأى جمهور المفسرين .

وذهب الإمام الرازى فى تفسيره الكبير ، والأستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن ، والدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسيره ، والصابونى فى صفوة التفاسير وغيرهم ، إلى أن هذا القول :

يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ .

كان من كلام القبطى ، واستدلوا على ذلك بالآتى : كان المناخ الذى عاشت فيه مصر ، مناخ ظلم من فرعون وجنوده ، ومناخ استسلام وعدم مقاومة للظلم من بنى إسرائيل ، وكان موسى يكره الظلم ويقاومه ، ولعل الإسرائيلى قد تحدث إلى بعض عشيرته من الإسرائيليين بما فعله موسى من قتل القبطى ، ومثل هذه الحادثة من شأنها أن تروج ، وأن تنال الإعجاب من الإسرائيليين ولعل خبرها قد انتقل إلى هذا القبطى ، ولعله أحسَّ من توبيخ موسى للإسرائيلى ، بأن قتيل الأمس كان بسببه ، فقال لموسى مقالته وهو فى موقف الخوف من البطش ، ولتذكيره بما يدعو إليه من التسامح والإصلاح ، ثم إن سياق الآية هكذا :

فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ...

فالسياق يؤيد أن موسى عندما أراد أن يبطش بالقبطىّ ، قال القبطى خائفًا مسترحمًا : يا موسى أتريد قتلى كما قتلت نفسًا بالأمس ، ما تريد إلا أن تكون عاتيًا مفسدًا منتقمًا فى قسوة ، وما تريد أن تكون مصلحًا متسامحًا ، فأين دعوتك إلى التسامح ، وما اشتهر عنك من الرغبة فى الصلاح والتقوى ؟

وسياق الآية محتمل للرأيين ، والله تعالى أعلم .

★ ★ ★

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

أقصى المدينة : أبعد نواحى المدينة .

الملأ : الأشراف ، والقوم ذوو الشأن والتجمع .

يأتمرون : يتشاورون ويطلب بعضهم أمر بعض ليقتلوك ، والائتمار والمؤامرة : المشاورة والهمُّ بالشر .

فاخرج : اخرج من هذه البلاد إلى أخرى .

خائفا يترقب : خائفًا من القتل ، يترقب ما يحدث له .

سواء السبيل : الطريق السوى .

التفسير :

٢٠ - وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ .

يفيد السياق السابق أن خبر قتل موسى للقبطى قد انتشر ، وبلغ أسماع فرعون وحاشيته ، فاجتمعوا للتشاور فى الأمر ، ولو كانت جريمة قتل عادية ، ما احتاجت أن يجتمع فرعون بنفسه مع حاشيته ، ولكنها جريمة قتل تحمل طابع الثورة ، والمقاومة والتصدّى ، فرغب القوم فى قتل موسى عقوبة على قتله القبطى، وجاء رجل مؤمن من آل فرعون ، والراجح أنه هو الذى قدَّم لهم النصيحة بعدم قتل موسى فلم يقبلوها .

وفى الآية ٢٨ من سورة غافر : **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ**...

فلعل هذا الرجل كان من حاشية فرعون ، أو من أهل المشورة والرأى فى حاشيته ، فلما أحسَّ بالخطر ، جاء من أطراف مدينة منف حيث يسكن فرعون **يَسْعَىٰ** . أى : يسرع فى مشيته لمزيد اهتمامه ، بإخبار موسى ونصحه .

فقال : يا موسى إن أشراف القوم يتشاورون فى قتلك ، قصاصًا للقبطى الذى قتلته بالأمس ، فاخرج من مصر قبل أن يظفروا بك ، إنِّى لك من الناصحين المخلصين .

٢١ - فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

أى : خرج موسى من مصر خائفًا من قتله ، يتوجَّس خيفة من أن يصيبه مكروه ، فالتجأ إلى الله تعالى فى هذه الشدّة العصيبة قائلاً :

رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

أنقذنى من فرعون وملئه الراغبين فى قتلى ، وأنت يا الله ملجأ المظلومين ، وغياث المستغيثين ، ومجيب المضطرين ، وقد استجاب الله دعاءه ، وألهمه الصواب ، أو أرسل له ملكًا أو جبريل يرشده إلى الطريق .

٢٢ - وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ .

خرج موسى من مصر على عجل وبدون استعداد ، ولا معرفةٍ بالطريق ، يريد الوصول إلى أرض مدين ، جهة بلاد الشام ، وشمال الجزيرة العربية ، ولا علم له بالطريق ، لكنه كان على أمل فى وجه الله ، ومعونته وبركته وعنايته ، فقال :

عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ .

آمل من الله أن يلهمنى الطريق السوىّ ، الموصل إلى بلاد مدين ، وقد استجاب الله دعاءه ، وألهمه الصواب ، ويسر له السير فى سفر شاق صعب ، بدون معونة أو زاد ، إلا معونة الله رب العالمين .

عناية الله إن تولّت ضعيفًا تعبت فى مراسه الأقوياء

ويقول الآخر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

★ ★ ★

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

المفردات :

ورد ماء مدين : وصل إليه .

تذودان : تدفعان وتمنعان غنمهما عن الماء ، ومنه قول الرسول ﷺ : «فليذادنّ رجال عن حوضى» أى : ليطردنّ ويمنعنّ .

ما خطبكما : ما شأنكما ، قال رؤبة : «يا عجبا ما خطبه وخطبى»

يصدر : من أصدر بمعنى أرجع ، أى : حتى يرجعوا مواشيهم .

الرعاء : جمع راعٍ ، مثل : صاحب وصحاب ، وهو الذى يرعى الغنم .

تأجرنى : تكون أجيرًا لى ، وفى القاموس : أجره يأجره ، جزاه ، كآجره ، والأجر : الجزاء على العمل .

حجج : جمع حِجَّة بكسر الحاء وهى السَّنة .

أشق عليك : أوقعك فى المشقة والصعاب .

فلا عدوان علىّ : لا يعتدى علىّ فى طلب الزيادة .

التفسير :

٢٣ - وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ .

يسر الله الأسباب لموسى ، ووصل إلى أرض مدين ، مجهدًا متعبًا من سفر طويل ، جائعًا محتاجًا إلى المعونة والرعاية ، لكنه وجد على الماء جموعًا كثيرة من الناس ، منهم من يروى إبله ، ومنهم من يروى غنمه ، والناس مشغولة بسقى الماشية ، فى زحام يحتاج إلى قوة ومنافسة ، ووجد دون ذلك الزحام ، أو أسفل منه ، امرأتين تمنعان الغنم من الاختلاط بأغنام القوم ، وتحبسان الغنم عن ورود الماء ، فرقَّ موسى لهما ، رغم إجهاده وتعبه ، وسألهما : ما شأنكما ، ولماذا تمنعان الغنم من السقيا ؟ فأجابتا : إنما يزاحم على السقيا الرجال الأشداء ، أما نحن فنساء متحفظات :

لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ .

من عادتنا أن نصبر حتى يسقى الرعاة أغنامهم وينتهى الزحام ، فليس من عادتنا مزاحمة الرجال ، بل نمتنع عن السقى إلى أن يفرغ الماء لنا ، فنسقى ، وأبونا شيخ كبير ، ضعيف عن سقى الغنم ، ولذلك اضطررنا أن نسقى الغنم بأنفسنا .

قال أبو حيان فى البحر المحيط : فيه اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقى بأنفسهما ، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقى لشيخوخته وكبره ، واستعطاف لموسى فى إعانتهما .

اسم الشيخ الكبير

المشهور عند كثير من العلماء أنه شعيب عليه السلام ، الذى أرسل إلى أهل مدين .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب .

قال الآلوسى : والأخبار مختلفة ، ولم يتميز عندنا ما هو الأرجح فيها .

٢٤ - فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

وصل موسى إلى أرض مدين متعبًا مجهدًا جائعًا ، شديد الإجهاد والتعب ، لم يأكل فى الطريق سوى البقل وورق الشجر ، وقد استمر فى الطريق بضعة أيام حتى اشتد به التعب والجوع ، وما إن شاهد امرأتين ضعيفتين تبتعدان عن الرجال ، حتى رقَّ لهما ونزع غطاء البئر ، وكان لا ينزعه إلا عصبة من الرجال ، ثم سقى لهما أغنامهما ، وأدى لهما مهمة رغبة فى المعروف ، وإغاثة الملهوف ، ثم جلس تحت ظل شجرة - وهو من أكرم الخلق على الله - وتضرع إلى الله تعالى وناجاه قائلاً :

رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

إنى محتاج إلى رزقك وفضلك ، فقير إلى معروفك وعونك ، واستجابت السماء لدعاء موسى عليه السلام.

٢٥ - فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

جاءت الفتاة إلى موسى فى أدب واستحياء ، تقوم بمهمة فى عفة وكمال ، فقالت :

إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ...

إن دعوة كريمة موجهة من أبى إليك ، ليكافئك على سقى الغنم لنا ، أرادت أن توضح له الموقف ، حتى لا يظن بها الظنون ، ولبَّى موسى الدعوة ، وسار أمام المرأة ، وطلب منها أن ترشده بصوتها إذا أخطأ الطريق ، ثم وصل إلى شعيب عليه السلام ، أو إلى رجل صالح من قوم شعيب ، وأخبره بقصته مع فرعون ، وإلقائه فى اليم ، ورضاعته ورعاية فرعون له ، ثم قتل موسى للقبطى ، ثم خروجه هاربًا من أرض مصر. فقال الرجل الصالح لموسى : طب نفسًا وقرّ عينًا ، فقد خرجت من مملكتهم ، ولا سلطان لهم علينا ، لقد نجاك الله من فرعون وجنوده ، ونزلتَ أرض مدين على الرحب والسعة .

٢٦ - قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ .

أرسل الشيخ إحدى ابنتيه لدعوة موسى إلى الضيافة ، فلما حضر وقصّ عليه قصته ، طمأنه وهدّأه ورحب به ، فقالت إحداهما (والراجح أنها هي التي ذهبت إلى موسى لدعوته) : يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ . على رعى الغنم ، فإنه يجمع أفضل الخصال ، وهي : القوة والأمانة .

فالقوة : تعين الإنسان على أداء العمل كاملاً ، وتشمل الخبرة والمعرفة .

والأمانة : تشمل المحافظة والعفة والاستقامة وعدم الخيانة ، وهي شروط لازمة لمن يقوم بالعمل ، أو يلي شئون الدولة ، بيد أنه في بعض الأعمال كالحرب نقدم القوة ، وفي بعض الأعمال كالاقتصاد والمالية وسياسة المال نقدم الأمانة .

ومن كلام عمر رضي الله عنه : إلى الله أشكو قوة الفاجر وعجز الثقة .

أحيانًا يكون الفاجر قويًا شجاعًا ، ويكون الثقة الأمين ضعيفًا أو مترددًا ، فإذا اجتمعا في شخص كان أهلاً لولاية العمل المناسب له . وفي السياسة الشرعية نجد أن من صفات الحاكم العادل الحكم بالعدل، والشورى ، واختيار الأمناء الثقات ، لأنه لا يستطيع أن يتولى جميع شئون الدولة بنفسه ، فلابد له من مساعدين ، فينبغي أن يتوخى فيهم الكفاءة ، وتكون بالقوة والأمانة ، فلا يولّي شخصًا لقرابته ، أو لمصلحة تعود على الحاكم .

وفي الحديث النبوي الشريف : «من ولّى رجلاً شيئًا من أمر المسلمين ، وهو يعلم أن في المسلمين من هو أكفأ منه ، فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين»[٢٦] .

غيرة محمودة

روى أن شعيبا قال لابنته : وما أعلمك بقوته وأمانته ؟ فقالت : رفع الصخرة من على البئر ولا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لي : كوني من ورائي ودُلّيني على الطريق ، ولما أتيته خفض بصره فلم ينظر إليَّ ، فرغب شعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى ابنتيه .

روى ابن كثير، والزمخشري، عن ابن مسعود، قال : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب حين قالت :

إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ . وصاحب يوسف حين قال : أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ... (يوسف : ٢١) .

وأبو بكر في عمر ، أي : في اختياره وترشيحه ليكون خليفة بعده .

٢٧ - قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ .

أى : قال شعيب لموسى : إنى أريد أن أزوِّجك واحدة من ابنتى هاتين ، الكبرى أو الصغرى ، ولك أن تختار من تروق لك ، على أن يكون مهرها أن تعمل عندى أجيرًا لرعى الغنم ثمانى سنوات ، فإن أتممت عشرًا فى الخدمة والعمل فهذا تفضل منك وتطوع وتبرع لا ألزمك به ، وما أريد أن أصعِّب عليك الأمر فألزمك بأبعد الأجلين ، ولا أشدد عليك فى العمل بل ستجد المياسرة والسماح ، وستجدنى إن شاء الله من الصالحين ، المحسنين للمعاملة الموفين للعهد ، وفى هذه الآية سنّة حسنة ، حيث عرض صالح مدين ابنته على صالح بنى إسرائيل ، وعلى هذه السنّة سار الخلفاء ، فقد عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان، فلا بأس بعرض الرجل ابنته ، والمرأة تعرض نفسها على الرجل الصالح ، اقتداء بالسلف الصالح .

ونلاحظ أن الأب عرض إحدى ابنتيه فهو عرض لا عقد ، لأنه لو كان عقدًا لعين المعقود عليها له ، لأن العلماء اتفقوا على أنه لا يجوز الإبهام فى النكاح ، فلابد من تعيين المعقود عليها .

أما تعيين الفتاة فقد حدث عند العقد ، أن اختار موسى إحداهما للزواج منه ، وتم الزواج وبدأ تنفيذه والالتزام بالأجرة ، وتنفيذ الشروط حتى تم الأجل المتفق عليه .

وفى الآية تيسير الزواج والمعاونة على إتمامه ، والأخذ بيد الشباب ليقفوا على أقدامهم ويفتحوا بيتًا فى الحلال .

وفى صحيح البخارى أن النبى ﷺ زوَّج رجلاً امرأة على أن يعلمها عشرين آية ، وإذا وسَّع الله عليه عوَّضها ، وهذا يعبِّر عن روح الإسلام فى تيسير العفة والتصوُّن ، وتعاون الأغنياء والصلحاء والجمعيات الخيرية فى حلّ أزمة الزواج ، وتيسير التعارف بين الراغبين فيه ، وتيسير المسكن والحياة الزوجية ، وبذلك نوسِّع فرص الحلال ، ونقضى على الشذوذ والانحراف والزنا والخيانة ، وتعود إلينا قيمنا الأصيلة ، ومنها العفة والاستقامة والتطهر ، وغض البصر وحفظ الفرج والبعد عن الريبة والفاحشة .

٢٨ - قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

قبل موسى عليه السلام مصاهرة شعيب، وترك لنفسه الخيار فى إتمام أىِّ الأجلين، الثمانى أو العشر، وقال لشعيب : ذلك الاتفاق حاصل وموافق عليه منى ومنك ، وعلى كل واحد منا أن يقوم بما يجب عليه فيه، وسأحتفظ لنفسى بتحديد أى الأجلين : الثمانى أو العشر ، أىّ واحد منهما قضيته ، فلا أطالب بما هو أكثر منه ، وهذا عهد بيننا ، والله وكيل وشاهد على اتفاقنا ، والمراد توثيق العقد ، وأنه لا سبيل لأحد منهما إلى الخروج عليه أصلا .

وبما سبق فى الآيتين استدل العلماء على أن اليسار لا يعتبر فى الكفاءة ، فإن موسى لم يكن حينئذ موسرًا ، وقد استدل أبو حنيفة والشافعى بالأحاديث النبوية الشريفة ، على أن النكاح يحتاج إلى شهادة الشهود . وفى الحديث الشريف : «لا نكاح إلا بولى وشاهدى عدل»[٢٧].

وقال مالك : ينعقد النكاح ، ولا يشترط فيه الإشهاد لأنه عقد معاوضة ، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح ، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدفّ ، كما ذكر ذلك القرطبى فى المسألة ٢٣ .

وقد ذكر البخارى ، عن ابن عباس : أن نبى الله موسى قضى أكثر الأجلين وأطيبهما ،[٢٨] أى : عشر سنين ، والله تعالى أعلم .

★ ★ ★

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات :

قضى موسى الأجل : أتم المدّة المضروبة بينه وبين شعيب .

آنس : أبصر ، وأصل الإيناس : إبصار ما يؤنس .

بخبر : بنبأ يعلم منه الطريق .

جذوة : «مثلثة الجيم» ، وهى عود غليظ مشتعل .

تصطلون : تستدفئون .

نـــــــــودى : ناداه الله تعالى .

شـــــاطـــــئ : جانب الوادى الأيمن بالنسبة لموسى .

الأيـــــمـــــن : اليمين : الجهة اليمنى بالنسبة لموسى ، وقيل : الأيمن ، أى : المبارك ، من اليمن بمعنى البركة.

الـبـقـعـة : قطعة الأرض ، التى عليها الشجرة الكائنة بشاطئ الوادى .

تـــهـــتـــز : تضطرب وتتحرك بسرعة .

جـــــــان : حية كحلاء العين بيضاء ، تكثر فى الدور ولا تؤذى .

مـــدبـــرا : منهزما خلفه من الخوف .

ولـم يـعـقـب : ولم يرجع لخوفه وفزعه منها .

اســــــلك : أدخـــل .

جـــيـــبك : الجيب : فتحة القميص من حيث يدخل الرأس .

جـــنـــاحك : الجناح : العضد والذراع ، لأن الذراع للإنسان كالجناح للطائر .

ســـــــوء : عيب ومرض ، كبرص ونحوه .

الـــــرهب : الخوف ، بفتح الراء وسكون الهاء ، بقراءة حفص عن عاصم ، وقرأ الجمهور : (الرّهب) بفتح الراء والهاء .

بـــرهـــانـــان : حجتان واضحتان ، تثنية برهان ، وهو الحجة القاطعة .

تمهيد :

عاش موسى حياة القصور فى رعاية فرعون ، وشاء الله أن يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، وأن يساعد إسرائيليا ، بوكزة لقبطى قضت عليه ، وأن يخبره رجل مؤمن بأن حياته فى خطر ، وأن يخرج من مصر خائفًا يترقب، وأن يسير فى الطريق إلى مدين جائعًا خائفًا، وأن يمكث فى مدين أجيرًا راعيًا للغنم، وأن يتزوج من ابنة شعيب ، وأن يعود من نفس الطريق ، وكأن الله يمهده لرسالة شاقة ، وليألف الطرق المؤدية للخروج من مصر ، والعودة إليها ، حتى يكون على بينة من هذه الطرق ، عندما يخرج مع بنى إسرائيل قائدًا لهم إلى البحر ، حيث ينجو بهم ويغرق فرعون ، وفى الآيات حلقة المناجاة والرسالة ، والمعجزات الباهرة ، والتمرين على إلقاء العصا ، وإدخال اليد فى الجيب ، مع فضل الله على موسى واصطفائه ، وجعله من أولى العزم من الرسل ، واختياره لمهمة من أشق مهمات الرسل - عدا محمد ﷺ - لأن بنى إسرائيل ، كانت لديهم رسالة محرفة ، وبهم ذل وخسف أذل طباعهم ، وبذل موسى عليه السلام

جهودًا كثيرة ، وصبر صبرًا طويلاً ، وقد أمّده الله بمعونته وتوفيقه ورعايته ، ورباه بفضله قال تعالى : وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ . (طه : ٣٩) .

التفسير :

٢٩ – فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ .

أفادت الآيات السابقة اتفاق موسى وشعيب على أن يتزوج موسى بإحدى ابنتى شعيب ، نظير أن يقوم برعى الغنم مدة من السنين ، وقد أتم موسى المدة المتفق عليها ، والراجح أنه أكمل عشر سنين ، ثم طاف به الحنين إلى أمّه وأسرته ، فاستأذن ليعود إلى أرض مصر مع زوجته ، وكانت حاملاً لا تعلم هل يتم الوضع ليلاً أو نهارًا ، وجاء الليل باردًا شاتيًا مظلمًا ، وضل موسى الطريق ، وحاول أن يقدح زنده ليوقد نارًا فأصلد ولم يخرج نارًا ، فنظر فإذا نار تلوح فى الأفق ، فأنس بها واطمأن إليها ، وقال لأهله : أقيموا مكانكم وامكثوا فى هذا الوضع ، فقد شاهدت نارًا سأقصدها .

لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ .

لعلى أجد عند هذه النار من يرشدنى إلى الطريق الصحيح ، أو أحضر لكم عودًا غليظًا ملتهبًا بالنار ، تستدفئون به من شدة البرد .

ونلمح أن موسى شاهد نارًا فاقترب منها ، فإذا النار نور أثيرى ، وإذا الموقف موقف تفضل ورحمة وإكرام ، وإذا المنعم الجليل يختار موسى ، ليحمل رسالة إلهية سامية .

٣٠ – فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

عندما اقترب موسى من النار ، وجد النار نورًا أثيريًا ، وسمع نداء الحق سبحانه وتعالى ، من جانب الوادى الأيمن فى ذلك المكان المبارك من ناحية الشجرة .

أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

لقد كان النداء من الله متفضلاً بالرسالة على موسى ، وناداه الله تعالى : إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

أنا الله الخالق الرازق الواهب الماجد المحيى المميت ، رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . خالق الإنس والجن والطير والكون ، والليل والنهار والبحار وسائر الموجودات .

وفى سورة طه : فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَـٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ . (طه ١١ - ١٤).

وفى سورة النمل : نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ : يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (النمل : ٨ ، ٩) .

جاء فى التفسير الوسيط ، بإشراف مجمع البحوث بالأزهر :

وذهب الإمام إلى أن الله تعالى حكى فى كل من هذه السور بعض ما اشتمل عليه النداء ، لما أن المطابقة بين ما فى المواضع الثلاثة تحتاج إلى تكلّف ما .

ومثل هذا يقال فيما تكرر ذكره من القصص فى القرآن الكريم ، مع اختلاف التعبير فيه ، لأن كل سورة تعنى عند ذكر القصة بالجانب الذى تسوقها من أجله والتعبير الذى يناسبه .

إن المقام مقام تجل إلهى ، رب كريم يناجى عبدًا من عباده اصطفاه للرسالة ، وصنعه على عينه ، ويسر له المجىء إلى هذا المكان المبارك ، الذى بورك بالرسالة وبكلام الله لموسى ، إلى جوار جبل الطور ، والوادى إلى يمين موسى فى بقعة مباركة قد باركها الله منذ هذه اللحظة ، عند شجرة وحيدة فى ذلك المكان .

أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

وسجل ضمير الوجود ذلك النداء العلوى ، وبوركت البقعة التى تجلّى عليها ذو الجلال ، وتميّز الوادى الذى كرّم بهذا التجلى ، ووقف موسى فى أكرم موقف يلقاه إنسان[٢٦] .

٣١ - وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ .

ألقى موسى عصاه فانقلبت حيَّة كبيرة ضخمة ، تصطكُّ أنيابها ، لو صادفت صخرة لاقتلعتها وابتلعتها ، كأن الصخرة تندكّ من جبل إلى واد سحيق ، ومع عظم الحية وضخامتها ، فهى تتحرك فى خفة وسرعة ، كأنها حية صغيرة فى خفة حركتها وشدة سرعتها ، عندئذ خاف موسى خوفًا شديدًا ، وولّى مدبرًا مسرعًا إلى الخلف ، ولم يعقّب ويرجع مرة أخرى ، ليشاهد هذه الحيّة ويتأمل صفاتها ، يقال : عقب الفارس، إذا أقبل بعد أن أدبر ، وكرّ بعد أن فرّ ، فناداه الله سبحانه وتعالى : يا موسى أقبل إلينا ، ولا تخف من الحيّة أو غيرها فأنت فى معية الرحمان ، ومن كان فى معية الله فلا خوف عليه .

قال تعالى : إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ . (النمل : ١٠) . أى : أنت فى كنفى ورعايتى وحفظى ، وأنت آمن فأنت رسولى أحفظك بحفظى ، وأكلؤك برعايتى .

٣٢ - ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ .

أدخل يدك فِي جَيْبِكَ . والجيب فتحة الثوب تكون فى الصدر ، ومن هذا الجيب تدخل الرأس عند لبس الثوب ، قال تعالى : وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ... (النور :٣١) . أى : على المرأة المسلمة أن تضع طرف الخمار على فتحة الصدر حتى تستر صدرها .

والمراد : أن الله طلب من موسى عليه السلام أن يدخل يده فى فتحة القميص أو فتحة الثوب الخارجى ، فإذا أخرجها خرجت بيضاء بياضًا ساطعًا ، مثل ضوء الشمس ، بدون مرض أو برص ، فهذه معجزة ثانية ، والعهد فى يد موسى أنها تميل إلى السواد أو الحمرة ، فربما دخله الرعب أو الخوف من شدة بياض اليد ، وشدة إشراق الضوء منها ، فأمره الله تعالى أن يضمَّ يده إلى صدره فإن ذلك يذهب عنه الرَّهْب والخوف ، وهى وسيلة عملية لكل خائف ، أن يضع يده فى صدره ، حتى يخفف من خفقان قلبه .

قال القرطبى :

وما فسروه من ضم اليد إلى الصدر يدل على أن الجيب موضعه الصدر . وقرأ حفص : مِنَ ٱلرَّهْبِ . بفتح الراء وإسكان الهاء . وقرأ جمهور القراء بفتح الراء والهاء : مِنَ ٱلرَّهَبِ . لقوله تعالى : وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ... (الأنبياء : ٩٠) . وكلها لغات ، وهو بمعنى الخوف .

والمعنى : إذا هَالك أمر يدك وشعاعها فأدخلها فى جيبك ، واردده إليه تعد كما كانت .

قال ابن عباس :

ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب [٣٠] .

فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ...

هاتان حجتان واضحتان ، ومعجزتان بارزتان ، تأييدًا من الله لك ، وهما العصا تنقلب حيَّة ، واليد تضىء كالشمس .

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ .

هاتان الآيتان أرسلناك بهما إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قومًا خارجين على طاعة الله ، فأيدك بالمعجزتين دعمًا لموقفك ، وإعلامًا للجميع بأنك رسول من عند الله مؤيد بالمعجزتين .

من هداية الآيات :

١ – الأنبياء أوفياء ، فموسى قضى أوفى الأجلين ، عشر سنين .

٢ – مشروعية السفر بالأهل ، وقد يحصل للمرء أن يضلّ الطريق ، أو يحتاج إلى شيء ويصبر .

٣ – فضل تلك البقعة التي كلّم الله تعالى فيها موسى ، وهي من جبل الطور .

٤ – مشروعية التدريب على السلاح قبل استعماله .

٥ – لا يُلام على الخوف الطبيعي .

٦ – من خاف فوضع يده على صدره زال خوفه إن شاء الله[٣١].

★ ★ ★

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

المفردات :

ردءا : معينا لي .

يصدقني : بإيضاح الحق بلسانه ، وبسط القول فيه ، ونفي الشبهة عنه .

سنشد عضدك : سنقويك ونعينك .

سلطانا : حجة قوية وبرهانًا ، وتسلطًا وغلبة ، وحماية وحفظًا .

آيــاتـــنـــا : المعجزات ، أو آيات التوراة .

بــيــنـــات : واضحات الدلالة على صدق موسى فى رسالته .

سحر مفترى : مختلق مكذوب .

الأولـــيـــن : السابقين .

عـاقـبـة الـدار : العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة . قال تعالى : أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ . (الرعد : ٢٢) .

الـظـالـمـون : المشركون الكافرون .

التفسير :

٣٣ – قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ .

حظى موسى بالمناجاة والتأييد بالمعجزات ، وهو فى حضرة الجبار القهار الذى بيده الخلق والأمر؛ فرغب فى أن يحتاط لنفسه ، وللدعوة التى يحملها ، فهو قد قتل قبطيا أثناء نزاعه مع إسرائيلى ، ورغب القوم فى قتله فخرج خائفا إلى أرض مدين ، حيث مكث بها عشر سنين .

وكان موسى قد عزم أن يعود إلى مصر ، وأن يزور أسرته سراً . لكنه الآن سيعود حاملاً رسالة، مجابها لفرعون وقومه ، وله تاريخ سابق، ونقاط ضعف أظهرها أمام الله قائلا :

رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ .

أى : لقد قتلت قبطيا فى لحظة غضب ، ورغب فرعون وقومه فى قتلى ، فخرجت من مصر خائفا أترقب ، والآن أعود بالرسالة ، وأخاف أن يقتلنى فرعون وقومه قصاصا لذلك ، وليس ذلك لخوف موسى على نفسه ، بل لخوفه على ضياع الدعوة بعد قتله .

٣٤ – وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ .

كان هارون مقيما فى مصر طوال غياب موسى فى أرض مدين ، وكان هارون هادئ الأعصاب ، خبيرا بمقارعة الحجة بالحجة ، وكان فى موسى لكْنة أو حُبْسة فى لسانه ، فخشى أن يرتج عليه ، ويعجز عن إقامة الحجة فى مجالس النقاش والجدال مع فرعون ، فناجى موسى ربه وقال : إن أخى هارون **أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا** ، وأقدر على إقامة الحجة ، أو تلخيص الدعوة ، أو شرح الرسالة ، أو إقامة الدليل والبرهان ، أو الرد على الاعتراض والإنكار ، فأرسِلْ هارون معى ، معينا ومساعداً ، يؤكد دعوتى ، ويشرحها ويفصِّلها ويدافع عنها .

إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ . أخشى أن يكذبنى فرعون وقومه ، فأحتاج إلى مساعد ومعين يشد أزرى ويعاوننى .

قال العلماء : أعظم شفاعة ، هى شفاعة موسى لهارون ، حتى يكون رسولا معه .

٣٥ – قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ .

طلب موسى من ربّه المعونة ، وفى سورة طه : قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى * وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَـٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ . (طه : ٢٥ – ٣٦) .

وقد استجاب الله لرجاء موسى وأعطاه ما طلب .

والمعنى : قال الله تعالى لموسى : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ... سنقويك ونؤازرك ، ونساعدك فى مهمتك بهارون عليه السلام ، وسأمنحكما من مهابتى وسلطانى وعنايتى وجلالى فلا يستطيع الأعداء إيذاءكما أو النيل منكما ، وسأعطيكما الآيات الباهرة والمعجزات التسع حتى ينتصر سلطانكما ، وتغلب دعوتكما ، وسيهلك فرعون ، وتنتصران أنتما ومن اتبعكما من المؤمنين .

٣٦ – فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ .

على طريقة القرآن الكريم الفذة ، يطوى الزمان والمكان وحركة الأحداث ؛ ليستنبط المُشاهد استجابة الله لموسى ، ثم يسير موسى وهارون بالرسالة إلى فرعون ، ويقدمان الأدلة الباهرة على وحدانية الله وقدرته وجلاله ، ووجوب عبادته وحده، وقد فصّلت سورة طه هذه المعانى مثل :

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ . (طه ٤٩ ، ٥٠) .

وتصور هاتان الآيتان وما بعدهما دلائل القدرة الإلهية ، واستعانة فرعون بالسحرة ، ثم إيمان السحرة واستهانتهم بتهديد فرعون ، وغير ذلك ، لكن السياق هنا يطوى هذه الجوانب من قصة موسى ، لأن السياق هنا مهتم بجوانب الفضل الإلهى على موسى ، فى صِغره وشبابه ورسالته ، وبيان معونة الله له، فقد وهبه سلطان الجلال الذى قهر به سلطان الفرعون ، وغرق الطاغية فى الماء ، ونجا موسى والمؤمنون.

ومعنى الآيـة :

فلما تقدم موسى إلى فرعون وقومه ، وقدَّم لهم رسالته وأيد دعواه بالمعجزات ، وآزره هارون فى رسالته ، قال فرعون وقومه .

مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ...

أنت ساحر تفترى على الله ، وتدَّعى أنك رسول ، ومعجزاتك مهارة فى السحر ، وأنت مختلق متقوِّل على الله .

وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ .

وما سمعنا بهذه الدعوى – دعوى التوحيد وتفرّد الله بالألوهية – فى آبائنا وأجدادنا السابقين .

بكل هذه البساطة كان ردّهم وجوابهم، الإنكار بدون مناقشة ، أو تقديم أدلة أو براهين يقبلها العقل والمنطق .

ومثل ذلك كان موقف أهل مكة من دعوة محمد ﷺ ، كأنما هى طبيعة الكفار فى كل رسالة ودعوة، وكأنما وصَّى الكفار السابقون من جاء بعدهم من المكذبين ، قال تعالى : أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . (الذاريات : ٥٣) .

٣٧ – وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ .

أجاب موسى إجابة مهذبة ، فهم لم يقدموا حجة ولا دليلاً حتى يناقشهم ، لكنهم اتهموه بدون دليل، وموسى واثق فى صدقه وفى نصرة ربّه .

ومعنى الآيـة :

قال موسى : الله أعلم بأنّى جئت بالرسالة من عنده صادقًا ، وأن العاقبة ستكون للمؤمنين ، بالنصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة ، وحاشا لله أن ينتصر الظالمون ، فتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ويتعلق بالآية أنها جاءت لوحة هادئة فى أدب الخطاب فموسى لم يجبهم بأنهم كاذبون ، وأنه رسول مؤيد من عند الله ، لكنه أجابهم بطريق التجهيل ، أى الجهل بمن تكون له العاقبة ، على طريقة القرآن الكريم حين قال : وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ . (سبأ : ٢٤) . وكذلك موسى هنا يقول : الله أعلم بالصادق منا ، وبمن تكون له العاقبة والغلبة فى النهاية ، لأن الظالم منّا لن يُفلح .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

المفردات :

الملا : الأشراف وذوو الرأى .

من إله غيرى : من رب يطاع ويذلّ له ويعظم غيرى .

هامان : أحد وزراء فرعون ، لعله وزير الصناعة ، أو العمل والعمال .

أوقد : أشعل النار على الطين شديدة قوية ، ليتحول إلى آجرّ ، فيكون أقوى فى البناء .

صرحا : قصرًا عالياً ، أو بناءً شامخًا .

بغير الحق : بالباطل .

فنبذناهم : طرحناهم ورميناهم .

اليم : البحر ، والمراد به : نهر النيل لاستبحاره واتساعه .

أئمة : رؤساء يُقتدى بهم .

يدعون إلى النار : إلى الكفر والشرك والمعاصى .

لعنة : طردًا وإبعادًا عن الرحمة .

المقبوحين : المبعدين من كل خير ، مشوهى الخلقة .

الكتاب : التوراة .

القرون الأولى : هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم .

بصائر للناس : أنوارًا لقلوبهم .

التفسير :

٣٨ – وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ .

كان بيان موسى واضحًا ، وشرحه لصفات الإله مقنعًا ، لكن فرعون خشى من تأثير كلام موسى ، ومن إيمان السحرة ، وتحدّيهم لكل عذاب فى سبيل الإيمان .

وتفيد الآية ما يأتى :

قال فرعون مخاطبًا أشراف قومه : ليس فى علمى أن هناك إلهًا آخر لكم غير الفرعون الملك ، وهذه بقية عقائد فاسدة ، ترى الملك إلهًا ، أو حاول فرعون أن يستخف بعقول قومه فأعلن ألوهيته ، وأنكر وجود أى إله آخر ، قال تعالى : فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ . (الزخرف : ٥٤) .

ومبالغة فى استخفافه بعقول قومه تظاهر بأنه يريد البحث عن إله موسى ، فطلب من هامان أن يوقد النار على الطوب اللين ، ليتحول إلى آجرّ ، فيكون أقوى فى البناء ، ثم يبنى هامان من هذا الآجر قصرًا عاليًا، أو بناءً شامخًا ، متجهًا نحو السماء ، حتى يصعد عليه الفرعون باحثًا عن إله موسى صوب السماء .

ثم قال فرعون :

وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ .

أى : إنى متيقن من كذب موسى ، لكنى مبالغة فى الإنصاف سأبحث عن إله موسى بنفسى ، وهى مبالغة فى استخفافه بعقول المخاطبين ، وسير فى طريق الكبرياء الكاذب ، والجبروت المفتعل ، وقريب من ذلك قوله تعالى : فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ . (النازعات : ٢٣ ، ٢٤) .

لقد جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مصرحًا بأنه الربّ الأعلى ، فأجابوه ساد
ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة[٣٢] ، وقد جاء هذا المعنى فى
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ * أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ
كَـٰذِبًا ... (غافر : ٣٦ ، ٣٧) .

٣٩ - وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ .

أى : استكبر فرعون وجنوده وحاشيته فى أرض مصر ، حيث نشروا الفساد ، وأحدثوا فرقة بين الطوائف ، واستذلوا بنى إسرائيل ، وبغوا فى الأرض بغير الحق ، حيث تعظموا على الإيمان بالله ورسوله ، ولم يناقشوا رسالة موسى مناقشة عقلية فكرية ، قال تعالى : وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ . (النمل : ١٤) .

إن تواضع الحاكم وعدله ، واعتماده على الشورى ، واختيار أكفأ الناس لولاية الأمور ، كلها وسائل استدامة الملك ، أما التكبر والتجبر والتعالى والتأله بدون وجه حق ، فهو خسران وبطلان ، لأن رؤية العظمة للنفس على الخصوص دون غيرها لا تكون حقًا إلا من الله عز وجل .

قال الزمخشرى : الاستكبار بالحق إنما هو لله وحده ، وكل مستكبر على سواه ، فاستكباره بغير حق .

وفى الحديث القدسى : «الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى فى واحد منهما ألقيته فى النار ، ولا أبالى»[٣٣] . رواه أبو داود ، وابن ماجة ، وابن حبّان فى صحيحه ، عن أبى هريرة وابن عباس .

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ .

اعتقدوا ألا قيامة ولا بعث ولا حشر ولا معاد ولا حساب ، وبشموا من نعيم الدنيا عتوًا وعنادًا وظلمًا وفسادًا ، معتقدين أنهم لا يعودون إلينا ، ولا يرجعون لنا لملاقاة الجزاء ، ومواجهة العذاب .

٤٠ - فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

تطوى السورة أحداثًا كثيرة ذكرت بتوسع فى سور أخرى ، وتنتقل إلى الخاتمة التى أنزلها الله بفرعون وقومه ، حينما استدرجهم الحق سبحانه وتعالى ، عندما خرج موسى ليلاً مع بنى إسرائيل ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغيًا وعدوًا ، ثم نجى الله موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، ونلمح يد القدرة الإلهية ، كأنما أخذتهم أخذا فنبذتهم فى اليم ورمتهم فيه رمى النواة ، والأشياء المستغنى عنها التى لم تعد صالحة .

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

فتأمل النهاية المؤلمة ، وتعجب كيف صار الملك الجبار هالكًا بين الأمواج ، وكيف حاول الإيمان عندما رأى الموت رأى العين ، فلم يقبل منه ذلك ، ونجى الله جثته لتكون عظة وعبرة ودليلاً عمليًا على سمو القدرة ، وهلاك الظالمين ونجاة المؤمنين .

قال تعالى : وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ . (يونس : ٩٠ – ٩٢) .

٤١ – وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ .

لقد صاروا أئمة فى الشر ، ومثلا أعلى فى الفجور والعدوان ، ونموذجًا فى طريق الضلال ، والصد عن آيات الله ، فهم قدوة للفجار وأئمة يقتدى بهم فى رفض الحق والتمسك بالباطل ، وبئس الإمامة التى تؤدى بصاحبها ومن اقتدى به إلى النار .

وفى الحديث الشريف : «من سن سُنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سُنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» [٣٤] رواه مالك ، وأحمد ، والترمذى، وابن ماجة ، والدارمى ، عن أبى هريرة وجرير بن عبدالله البجلى .

لقد صار فرعون إمام الظالمين ، وعلما يقتدى به كل ضال ، وينهج نهجه كل فاجر ، فيا بؤسه ويا بؤس من اقتدى به .

وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ .

وفى يوم القيامة يخذلون ويدخلون النار ، فاجتمع عليهم ذل الدنيا موصولاً بذلّ الآخرة ، فقد غرق الفرعون فى الدنيا ، وهو أشد الناس عذابًا يوم القيامة ، ويا ليته العذاب وحده ، بل القبح والمهانة ، جزاء مجاوزته الحد فى العدوان .

٤٢ – وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ .

قال ابن كثير : وشرع الله لعنتهم ، ولعنة ملكهم فرعون ، على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله ، كما أنهم فى الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك .

وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ .

فهم فى عرصات القيامة صورة مشوهة ، يعروها الذل والعار ، ويكسوها الفضيحة والهول والقطران، قال تعالى : أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ . (هود : ١٨) .

وقال سبحانه : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ . (إبراهيم : ٤٢ ، ٤٣) .

فيا بؤسا لفرعون وجنده ومن سار على نهجه ، إن اللعنة تنزل عليهم فى الدنيا من الصالحين ، وفى الآخرة لا يجدون من يكرمهم ، ولا من يستقبلهم بالكرامة أو حسن الاستقبال ، بل يجدون الذلّ والصغار كما قال تعالى : وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ . (هود : ٩٩) .

٤٣ - وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

لقد كان الحديث طويلاً عن قصة موسى وفرعون ، واستأثر فرعون فى الآيات السابقة بقسط كبير ، فاتجه السياق إلى الحديث عن نصيب موسى ، وبيان أن الله منَّ عليه بالتوراة ، بعد قرون طويلة لم يُرسل فيها رسول ، فتكون حاجة الناس أشد إلى الهداية .

قال تعالى : لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ . (يس : ٦) .

وكأن القرآن – وقد طال الحديث عن عنت فرعون وظلمه ، وعاقبته فى الدنيا والآخرة – أراد أن يقدم ميزة لهذا الرسول الصابر موسى عليه السلام .

ومعنى الآية :

لقد أعطينا موسى التوراة بعد هلاك الأمم السابقة ، مثل قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط ، وهذه التوراة جاءت بعد الحاجة إليها ، حيث نزلت على فترة من الرسل ، وبعد مدة زمنية من انقطاع الرسالات .

بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ... هداية للقلوب من العمى والغىّ .

وَهُدًى وَرَحْمَةً ... وهداية وإرشادًا وتشريعًا وبيانًا للعبادات والمعاملات ، مشتملة على رحمة من الله للعباد ، حيث شرع لهم ما ينفعهم فى الدنيا ، ويسعدهم فى الآخرة .

لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . لعل الناس يتذكرون بهذا الكتاب ويهتدون بسببه .

وذهب ابن كثير إلى أن هذه الآية تفيد أن الله أهلك الأمم السابقة التى كذبت رسولها ، كما أهلك فرعون ومن قبله عقوبة على كفرهم ، وبعد نزول التوراة لم تتدخل السماء بعقوبة لإهلاك الظالمين

بل أمر الله المؤمنين بجهاد الكافرين . كما قال تعالى : وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً . (الحاقة : ٩ ، ١٠) .

روى ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، عن أبى سعيد الخدرى قال : ما أهلك الله قومًا بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض ، غير أهل القرية الذين مُسخوا قردة بعد موسى ، ثم قرأ : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

والمقصود هنا : أن الله أهلك الأمم السابقة عندما كذبت رسلها ، وأهلك فرعون ومن قبله من الجبّارين ، ثم أنزل التوراة هداية للناس ، ورحمة بهم ، حيث اشتملت على التشريع والقصاص والآداب ونظام الدّين والدنيا ، لعل الناس تتذكر فضل الله ، فتطيع وتسعد فى دنياها وأخراها ، وكانت التوراة تمهد وتبشر بمحمد ﷺ وأمته ، وكذلك الإنجيل ، فهذه الآية كالتمهيد لما يأتى بعدها من سوق الأدلة على صدق الرسول ﷺ .

قال يحيى بن سلام : التوراة أول كتاب نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام .

★ ★ ★

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

المفردات :

الغربى : الجبل الغربى الذى وقع فيه الميقات ، وأعطى الله فيه ألواح التوراة لموسى .

قضينا : عهدنا إليه ، وكلفناه أمرنا ونهينا .

الأمر : أمر الرسالة .

الشـاهـدين : الحاضرين للوحى من جملة السبعين المختارين .

أنشأنا قرونا : خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونا كثيرة .

فتطاول : تمادى وتباعد .

عليهم العمر : عليهم الزمن ، قال تعالى : فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ... (الحديد : ١٦) .

ثاويا : مقيمًا .

أهل مدين : قوم شعيب عليه السلام .

الطور : الجبل .

لتنذر : لتخوّف وتحذّر .

مصيبة : عذاب الدنيا والآخرة .

لولا «الثانية» : هلّا ، وتفيد تمنّى حصول ما بعدها والحث عليه .

تمهيد :

قص القرآن الكريم جانبًا من قصص موسى وشعيب وغيرهما من الأنبياء ، وهنا يقدم القرآن الأدلة على صدق رسالة الرسول ﷺ ، فقد حوى القرآن أخبار الأمم السابقة ، كقصص نوح وهود وصالح ولوط وموسى ، مع من أُرسلوا إليهم ، وهذه الأخبار تطاول عليها الزمن ، ووجد نصيب منها فى التوراة سليمًا من التحريف ، ونصيب منها محرّف ، قوّمه القرآن وأرشد إلى الصواب واليقين فيه ، ومحمد ﷺ كان أميًا نشأ فى أمّة أمية ، ولم يتجول فى البلاد ، ولم يقرأ أخبار الأمم ، ثم قصَّ هذا القصص بالحق ، فلا يمكن أن يروى هذا القصص بهذا التفصيل البارع إلا أن يكون ذلك عن طريق الوحى الإلهى ، الذى أنزله الله عليه ليبلغه للناس ، تحقيقًا لوعد الله ألا يعذب أمة إلا بعد أن يُرسل إليها الرسل ، ويبلغها الكتب وأمور الرسالة وشئونها على وجه يحرّك فيها داعية القبول ، فإذا أطاعت فلها السعادة فى الدارين ، وإلا فقد أعذر من أنذر .

التفسير :

٤٤ - وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ .

والغربى هو الجانب الغربى للطور الذى جعله الله ميقاتًا مع موسى عليه السلام ، بعد أجل محدد ثلاثين ليلة ، أتمها بعشر فكانت أربعين ليلة .

قال تعالى : وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ... (الأعراف : ١٤٢) .

وفى هذا الميقات قضى الأمر لموسى فى الألواح ، لتكون شريعته فى بنى إسرائيل . وما كان رسول الله ﷺ موجودًا بجانب الجبل الغربى ، حين عهد الله تعالى بالرسالة إلى موسى ، وأحكم أمر نبوته بالوحى وإنزال التوراة ، وما كان من جملة الشاهدين الحاضرين للوحى ، وهم السبعون المختارون للميقات المنوّه عنهم بقوله تعالى : وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَـٰتِنَا ... (الأعراف : ١٥٥) .

أو ما كنت من الشاهدين بجميع ما أعلمناك من شأن موسى ، وأخبرت به ، فهو نفى لشهادته ﷺ جميع ما جرى لموسى .

٤٥ – وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ .

هذه الآية استدراك ، لتأكيد المعنى السابق قبلها .

والمعنى :

ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا وأممًا كثيرة ، تمادى وتباعد عليها الزمن ، فتغيرت الشرائع ، وتبدلت الأحكام ، وعميت عليهم الأنباء ، ولاسيما ما كان منهم فى آخر هذه الأزمان ، من الذين أنت فيهم ، فاقتضت حكمة الله أن يرسل محمدًا ﷺ على فترة من الرسل ، لينذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبله لعلهم يهتدون .

وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ...

لقد تحدث القرآن عن قصة موسى ، واتجاهه صوب مدين وإصهاره إلى شعيب ، ومحمد ﷺ لم يكن مقيمًا فى أرض مدين ليتسمع منهم ويتعلم هذه الأخبار عنهم ، ثم يتلوها على قومه ، بهذا الإخبار الصادق الذى أخبر به .

وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ .

ولكن ذلك لأننا أوحينا إليك ، وأرسلناك رسولا .

٤٦ – وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

لقد أخبرت عن الأنبياء والرسل ، والأمم والقيامة والبعث ، وما كان لك من علم بذلك إلا عن طريق الوحى ، فأنت لم تشاهد موسى عند تلقيه الرسالة ، ولم تكن بجانب الطور حين ناداه ربّه وأوحى إليه ، فالآية اختيار للحظة معينة اتصلت فيها السماء بالأرض ، وتفضل فيها الرب الكريم على موسى .

قال تعالى : فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ . (طه : ١١ – ١٤) .

ونلمح هنا أن الآية ٤٤ تكلمت عن رسالة موسى بصفة عامة ، أما الآية ٤٦ فقد اختارت لحظة التفضل على موسى بالنداء والمناجاة ، فهذه أخص والسابقة أعم .

وقال قتادة : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذ نادَيْنَا . موسى ، وهذا أشبه بقوله : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ... ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء ، كما قال تعالى : وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ... (الشعراء : ١٠) . وقال تعالى : إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى . (النازعات : ١٦) .

وقال تعالى : وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا . (مريم : ٥٢) .

وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

أى : إنك لم تكن بجانب الطور حين نادينا موسى ، ولكن أعطاك الله الرسالة ؛ رحمة وفضلاً وكرامة، وفيها هذه الأخبار ، وفيها أيضا التشريع والهداية ، لتنذر بها قومك الذين لم يُرسل إليهم رسول منذ عهد إسماعيل عليه السلام ، وهى مدة تزيد على ألفى عام ، فقد طال العهد عليهم ، وبعُد الأمد بالرسل ، فكان من رحمة الله وفضله أن أرسلك على حين فترة من الرسل ؛ لترشد الناس إلى الإيمان ، وتذكرهم بالوحى ، وترشدهم إلى الخالق الواحد سبحانه وتعالى .

٤٧ – وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

وأرسلناك لتقيم عليهم الحجة ، وتقطع عنهم العذر ، حين ينزل عليهم عذاب فى الدنيا أو الآخرة ، فيقولون : يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يرشدنا ويحذِّرنا ، فنتبع آياتك المنزلة عليه ، ونكون من المؤمنين به ، فالآية تعقيب يبين الحكمة فى إرسال الرسل عامة ، وفى رسالة محمد ﷺ خاصة ، وهى الإعذار إلى الناس ، وإخبارهم بحقائق الكون وخلق الدنيا ، والبعث فى الآخرة .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا . (الإسراء : ١٥) .

ويقول عز شأنه : رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

جاء فى ظلال القرآن :

فهى رحمة الله بالقوم ، وهى حجته كذلك عليهم ، كيلا يعتذروا بأنهم أُخذوا على غرة ، وأنهم لم يُنذروا قبل أخذهم بالعذاب – وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب – فأراد الله أن يقطع حجتهم ، وأنْ يعذر إليهم ، وأن يوقفهم أمام أنفسهم ، مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان . ا هـ .

★ ★ ★

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾

المفردات :

الحق : القرآن المنزل على محمد ﷺ ، أو الرسول المصدّق بالقرآن .

سحران : أى : ما أوتيه موسى ، وما أوتيه محمد ﷺ .

تظاهرا : تعاونا بتصديق كل منهما الآخر .

أهدى : أقوى فى الهداية .

منهما : من القرآن والتوراة .

فإن لم يستجيبوا : فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به .

تمهيد :

تناقش الآيات مشركى مكة مناقشة عقلية ، فتستعرض تكذيبهم بالقرآن ، وتعللاتهم ، واقتراحاتهم المتعنتة ، وتقترح عليهم الإتيان بكتاب أهدى من التوراة والقرآن ، فإن عجزوا وأصروا على الكفر فهم أتباع الهوى والضلال ، وكفى .

التفسير :

٤٨ – **فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ .**

بعد فترة من الرسل أرسل الله محمدًا ﷺ ، فلما جاءهم بالحق : بالرسالة الحق ، وبالقرآن الحق ، وبالقول الحق والصدق ، والدعوة إلى الإيمان والإسلام ؛ أنكروا رسالة محمد ﷺ ، وقالوا فى أسباب كفرهم : هلا أوتى محمد ﷺ معجزات مادية ملحوظة مثل ما أوتى موسى ، «يعنون مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله ، وكَفَلْق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة على يدى موسى عليه السلام حجة وبرهانًا له على فرعون وملئه»[٣٥] .

وقريب من هذا المعنى ما حكاه القرآن عنهم حين قالوا : **لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا** ... (الفرقان : ٧ ، ٨) .

أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ...

أولم يكفر أمثالهم فى الكفر والعناد بما أوتى موسى ؟ حيث كذبوا موسى ، وكفروا برسالته ، كما قالوا: **أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا** ... (يونس : ٧٨) .

وقال تعالى : **فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ** . (المؤمنون : ٤٨) .

قال ابن كثير :

أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ...

أى : أولم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة .

قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا ...

أى : سحر موسى وسحر هارون تعاونا .

وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ .

أى : بكل منهما كافرون . ا . هـ .

أى : إن التكذيب لم يكن فى أهل مكة وحدهم ، بل سبقهم قوم فرعون ، حيث أيد الله موسى بآيات باهرة منها تسع آيات بينات ، لكنهم كذبوا موسى وهارون ، وقالوا : ساحران تعاونا وإنا كافرون بهما ، فالكفر والعناد كانا طبيعة فى المكذبين بالرسل على مختلف العصور ، كأنما وصى السابق منهم اللاحق.

قال تعالى : أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . (الذاريات : ٥٣) .

رأى آخر فى تفسير الآية

رُوى أن أهل مكة بعثوا رهطا إلى رؤساء اليهود ، فسألوهم عن شأن محمد ﷺ ، فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود ، قال كفار مكة : سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ... أى: سحر موسى وسحر محمد . وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ . أى : بكل من الكتابين – التوراة والقرآن – كافرون ، قالوا ذلك تأكيدا لكفرهم وعتوهم وتماديهم فى العناد والطغيان .

قال الآلوسى :

وقرأ الأكثرون : قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ... وأرادوا بهما محمدًا وموسى عليهما الصلاة والسلام .

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

لقد كان فى الجزيرة يهود ، وكان معهم التوراة ، فلم يؤمن لهم العرب ، ولم يصدقوا بما بين أيديهم من التوراة ، ولقد علموا أن صفة محمد ﷺ مكتوبة فى التوراة ، واستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بما يفيد أنه الحق ، وأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب ، فلم يذعنوا لهذا كله ، وادعوا أن التوراة سحر ، وأن القرآن سحر ، وأنهما من أجل هذا يتطابقان ، ويُصدِّق أحدهما الآخر ، قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ .

فهو المراء إذن واللجاجة ، لا طلب الحق ولا نقصان البراهين ، ولا ضعف الدليل .

٤٩ – قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .

أى : إن لم يعجبكم القرآن ولم تعجبكم التوراة ، فأتوا أنتم بكتاب منزل من عند الله أفضل منهما ، وأكثر اشتمالا على الهدى وبيان التشريع ، والقصص والآداب ومكارم الأخلاق ، فإذا أتيتم بهذا الكتاب فسأتبعه وألتزم بهدايته .

إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . فى أنهما سحران تظاهرا ، أو فى أن سبب رفضكم نقص الحجة والدليل ، لا اتباع الهوى والمكابرة بدون دليل .

قال ابن كثير :

وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتابًا من السماء - فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه - أكمل ولا أشمل ولا أفصح ، ولا أعظم ولا أشرف ، من الكتاب الذى أنزل على محمد ﷺ ، وهو القرآن ، وبعده فى الشرف والعظمة ، الكتاب الذى أنزله على موسى عليه السلام ، وهو الكتاب الذى قال الله فيه : إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ... (المائدة : ٤٤) .

والإنجيل إنما أنزل متممًا للتوراة ، ومحلاً لبعض ما حرم على بنى إسرائيل ، ولهذا قال الله تعالى :

قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .

أى : فيما تدافعون به الحقّ ، وتعارضون به من الباطل[٣٦] .

٥٠ - فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

فإن لم يستجيبوا لك فى الإتيان بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن ، فطب نفسًا ، واطمئن قلبًا ، وازدد ثقة بأنك على الحق ، وأنهم إنما يتبعون الهوى ، والكبر والعناد بلا دليل ولا حجة .

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ...

أى : لا أحد أضل ممن سار على هواه وشيطانه ، بدون أن تكون معه هداية الله ومعونته .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

لقد ظلموا أنفسهم باتباع الباطل ، ورفض الحق ، فسلب الله عنهم الهدى ، وتركهم فى الغىّ والضلال ، جزاء ظلمهم وعنادهم .

جاء فى تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ما يأتى :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

أى : إن الله لا يوفق لإصابة الحق واتباع سبل الرشد من خالفوا أمره ، وتركوا طاعته ، وكذبوا رسله ، وبدّلوا عهده ، واتبعوا هوى أنفسهم ، إيثارا منهم لطاعة الشيطان على طاعة الرحمان ا . هـ .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

المفردات :

وصلنا لهم : التوصيل : ضم قطع الحبل بعضها إلى بعض ، قال الشاعر :

فقل لبنى مروان ما بالُ ذِمَّتى ... بحبل ضعيف ما يزال يوصَّلُ

والمراد به هنا : إنزال القرآن منجمًا مفرقًا ، يتصل بعضه ببعض .

يتذكرون : يتعظون ويتدبرون .

مسلمين : منقادين خاضعين لله .

يدرءون : يدفعون .

اللغو : ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وسخف القول .

سلام عليكم : كلمة توديع ومتاركة لا تحية .

لا نبتغى الجاهلين : لا نطلب صحبة الجاهلين ، ولا نريد مخالطتهم ولا جدالهم .

تمهيد :

بعد أن أثبت أن القرآن وحى من عند الله ، أثبت هنا أن أهل الكتاب آمنوا به حين رأوا الأدلة تتظا على صدقه ، وموافقته لما فى كتبهم ، فأجدر بمن لا كتاب لهم من قبله أن يؤمنوا به .

التفسير :

٥١ - وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

تواصلت الرسالات رسولاً بعد رسول ، وتواصلت الكتب التى ختمت بالقرآن الكريم ، الذى و الرسالات السابقة ، وجاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه .

فوصل الله سلسلة الرسالات بالإسلام ، ووصل سلسلة الكتب والصحف بالقرآن ، لعل الناس تذكر ربها ودينها ، وليستمر صوت التذكير والتنبيه ، وتتجدد الدعوة إلى الإيمان حالاً بعد حال ، وزمانًا بعد زمان ، لقد خلّد الله صوت الحق الإلهى بهذا القرآن ، وجعله ذكرى متجددة دائمة للأجيال ، بما تكفل له من الصون والحفظ عن التغيير والتبديل ، وبما اشتمل عليه من التنوع فى الأسلوب والخطاب ، وعدًا ووعيدًا وقصصًا وعبرًا ، نصائح ومواعظ ، إرادة أن يتذكر الناس به ويعملوا بموجبه فيفلحوا .

قال القرطبى : الآية الكريمة رد على من قال : هلا أوتى محمد القرآن جملة واحد ، مثل ما أوتى موسى التوراة كذلك ؟ ا . هـ .

والمعنى :

أنزلنا القرآن الكريم منجمًا ومقسطًا ، حسب الوقائع والحوادث ، ليتواصل تذكير الناس بربهم ، وليكون القرآن الكريم كتاب الحياة ، يجيب على أسئلة الناس ، ويناقش المشركين ، ويصحح المفاهيم ، وينسخ الأحكام عند الحاجة إلى النسخ أو التيسير ، فقد نزل القرآن الكريم فى مكة ثلاثة عشر عامًا ، يشرح العقيدة ، ويعمق الإيمان ، ويرد على شبهات المشركين ، ونزل القرآن في المدينة عشر سنوات ، نزلت فيها آيات الأحكام والجهاد والردّ على شبه أهل الكتاب ، وكشف ألاعيب المنافقين ، وتفصيل أحكام السلم والحرب ، والعبادات والمعاملات ، فتواصلت آياته ، وامتد نزوله ، ليساند المؤمنين ويذكر الغافلين ، وكان الرسول أميًا ، فكان من الرفق به أن ينزل القرآن منجمًا يؤازره ، وييسر عليه حفظ القرآن وكتابته لدى كتاب الوحى .

قال تعالى : **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** . (الفرقان : ٣٢ ، ٣٣) .

٥٢ – ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ .

كان بعض اليهود والنصارى يدخلون فى الإسلام راغبين باكين مصدقين بالقرآن ، معلنين أن التوراة نصت على رسالة محمد ﷺ ، وأنهم آمنوا بالقرآن ، ويصدق محمد ﷺ لمطابقة القرآن لأصول كتبهم ، وبشارة تلك الكتب بمحمد ﷺ ، وتطابق الأوصاف عليه .

قال القرطبى : ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلاً قدموا المدينة ، منهم اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب ، وثمانية من الشام ، وكانوا أئمة النصارى ، وأنزل الله فيهم هذه الآية وما بعدها .

وأخرج ابن جرير ، عن على بن رفاعة قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب ، منهم رفاعة - يعنى أباه - إلى النبى ﷺ ، فآمنوا فأوذوا فنزلت : ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ... الآيات .

وأخرج ابن جرير أيضًا عن قتادة قال : كنا نتحدث أنها نزلت فى ناس من أهل الكتاب كانوا على الحق ، حتى بعث الله محمدا ﷺ فآمنوا به ، منهم سلمان الفارسى وعبدالله بن سلام .

وقال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآية فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى ، فلما قدموا على النبى ﷺ قرأ عليهم : يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ . (يس : ١ ، ٢) . حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا[٣٧] .

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ ... (آل عمران : ١٩٩) .

٥٣ - وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ .

وإذا قرئ القرآن عليهم استجابوا له ، وقالوا : آمنا به وصدقنا بأنه كلام الله لاشتماله على الحق والصدق ، ولأنه معجز للبشر وهو من كلام ربنا ، إنا كنا قبل نزول هذا القرآن منقادين لأحكام الله ، نجد فى التوراة بشارة بأحمد وأمته ، والكتاب المنزل عليه .

قال تعالى : مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ... (الفتح : ٢٩) .

وقال عز شأنه : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ... (الصف : ٦) .

٥٤ - أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ .

هؤلاء المؤمنون بالقرآن والإسلام من أهل الكتاب يضاعف لهم الثواب ، ويؤتون أجرهم مرتين الأولى : لإيمانهم بنبيهم موسى ، أو نبيهم عيسى ، وصبرهم على اتباع تعاليم اليهودية أو المسيحية والثانية : لإيمانهم بالقرآن ورسالة محمد ﷺ ودخولهم فى الإسلام ، وصبرهم على الأذى ، واحتمالهم الإساءة ممن يعيرهم بذلك ، أو يعيب عليهم الدخول فى الإسلام وقد مدحهم الله بما يأتى :

١ - الثبات على الإيمان والصبر وتحمل تبعات الإيمان .

٢ – مقابلة الإساءة بالإحسان .

٣ – الإنفاق من النفس والمال والعلم وسائر ما رزقهم الله .

وقد وردت عدة روايات فى تفسيرى القرطبى وابن كثير ، وسيرة ابن إسحاق ، تفيد أن مجموعة من أهل الكتاب ، أو من علماء النصارى أو أحبار اليهود ، أو أصحاب النجاشى ، قدمت على النبى ﷺ ، فسألوه عن هذا الدين ، ثم قرأ عليهم القرآن ، ففاضت عيونهم بالدمع ، ودخلوا فى الإسلام ، واستجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ، فلما قاموا من عند النبى ﷺ بالمسجد الحرام بمكة ، اعترضهم أبو جهل ووبخهم على ترك دينهم ، وتصديقهم محمدًا ، فقالوا لأبى جهل ومن معه: سلام عليكم ، لانجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، وقد قيل : إنهم النفر النصارى من أهل نجران ، ونقل ابن إسحاق أنهم قدموا بمكة على رسول الله ، وكانوا عشرين رجلاً أو قريبًا من ذلك ، وأخرج ابن جرير أنهم كانوا عشرة من أهل الكتاب .

وفى تفسير ابن كثير : قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآية وما بعدها ، فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى ... فأسلموا ، وإذا تأملنا فى هذه الروايات ، نقول : لعل حضور وفد من أهل الكتاب تكرر أكثر من مرَّة ، فحينا كان عشرة ، وحينا كان عشرين ، وحينا كان سبعين ، فذكرت كل رواية قصة وفد معين ، وعمومًا فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقد ورد فى صحيحى البخارى ومسلم روايات عديدة تفيد أن من آمن من أهل الكتاب بالإسلام فله أجران ، فعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدَّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها ، فتزوجها»[٣٨] .

وروى أبو أمامة قال : إنى لتَحْت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح ، فقال قولاً حسنًا جميلاً ، وقال فيما قال : «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين ، وله ما لنا وعليه ما علينا»[٣٩] .

٥٥ – وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ .

يؤتيهم الله أجرهم مرتين لأنهم آمنوا بنبيهم ثم آمنوا بمحمد ﷺ ، ولأنهم تخلقوا بالأخلاق الحسنة ، ومنها مقابلة الإساءة بالإحسان ، والهُجْر من القول بالصمت أو بالترك .

وتفيد كتب السيرة والتفسير مثل الآلوسى وابن كثير والطبرى وغيرهم ، أن وفدًا من نصارى نجران ، أو من أصحاب النجاشى قدم على رسول الله ﷺ فى المسجد الحرام ، فلما سمع القرآن بكى وأسلم ، ثم قام

الوفد فاعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ، ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركبًا أحمق منكم ، فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرًا . ا . هـ .

وتقرير معنى الآية ما يأتى

إذا عيرهم المشركون أو غيرهم ، أو آذاهم الناس بالقول أو الفعل ، أعرضوا عن الأذى وسكتوا عن الردّ على الجاهلين ، وقالوا : لنا أعمالنا سنحاسب عليها وحدنا ، ولكم أعمالكم ستحاسبون عليها وحدكم ، سلام عليكم ، سلام متاركة ، أى : وداعًا سنترككم ، لا نريد صحبة الجاهلين ، ولا نريد أن نخوض فى الجدال والمشاتمة مع السفهاء .

٥٦ – إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ .

كان ﷺ حريصًا على هداية قومه وذوى قرابته ، خصوصًا عمه أباطالب ، الذى بذل نفسه لحماية ابن أخيه والدفاع عنه ، حمية وعصبية لا من أجل العقيدة ، لقد كان أبو طالب صخرة تحطمت عليها أطماع قريش فى النيل من النبى ﷺ ، وبذل الكثير من أجل حمايته والدفاع عنه ، وتحمل أبو طالب المقاطعة فى شعب بنى هاشم مع كبر سنه ، وكان النبى ﷺ حريصًا على هداية عمه إلى الإسلام ، ضنينا به أن يعذب فى نار جهنم ، والله تعالى وحده يعلم من هو الشخص الذى سبقت له الهداية ، ومن هو الشخص الذى ختم على قلبه فلا يقبل الهداية ، فما أجل هذا الإسلام ، وما أعظم الهدف ، وما أسمى وأعدل الحكمة الإلهية ، ابن نوح عليه السلام يغرق مع الكافرين ، ويحاول أبوه أن يشفع له فيقول له الله تعالى : قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ . (هود : ٤٦) .

وهنا يثوب نوح إلى الحقيقة الثابتة ، والعدالة الإلهية ، وهى أن كل إنسان بما كسب رهين ، فلا ينفع الإنسان علو درجة أقرب الناس إليه ، ولا يضرُّه تهاوى أقرب الناس إليه . وأمثلة ذلك كثيرة : إبراهيم عليه السلام دعا أباه للإسلام ، واعتزله واستغفر له ، ثم تبرأ منه عندما علم أنه عدو لله ، امرأة نوح وامرأة لوط خانتاهما فدخلتا النار ، امرأة فرعون أسلمت وآمنت وتحملت الآلام ، فجعلها الله مثلا أعلى للذين آمنوا .

وقد ثبت فى الصحيحين : أن الآية نزلت فى أبى طالب عم رسول الله ﷺ .

قال الزهرى : حدثنى سعيد بن المسيب ، عن أبيه –وهو المسيب بن حزن المخزومى رضى الله عنه– قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبدالله بن أبى أميّة

ابن المغيرة ، فقال رسول ﷺ : «يا عم ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»[٤٠] . فقال أبو جهل وعبدالله بن أبى أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتى كان آخر ما قال : هو على ملة عبدالمطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك» فأنزل الله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ ... (التوبة : ١١٣) .

وأنزل فى أبى طالب : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ...

وروى الترمذى من حديث يزيد بن كيسان، عن أبى حازم، عن أبى هريرة قال : لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال : «يا عماه، قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة»[٤١] . فقال : لولا أن تعيرنى بها قريش ، يقولون ما حمله عليها إلا جزع الموت ، لأقررت بها عينك ، لا أقولها إلا لأقر بها عينك. فأنزل الله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ .

وخالف فى ذلك الشيعة ، وقالوا بإيمان أبى طالب ، وادعوا إجماع أئمة أهل البيت على ذلك .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ (٥٩) وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾

المفردات :

نتخطف : نخرج ، أو يبطش بنا أعداؤنا ، وأصل الخطف : الاختلاس بسرعة ، فاستعير لما ذكر .

آمـــنـــا : مكينا .

يـجـبـى إلـيـه : يحمل إليه ويجمع إليه من كل جانب وجهة .

بطرت معيشتها : بغت وتجبرت ولم تحفظ الله ، من البطر ، وهو جحود النعمة ، وكفران الفضل ، وفى القاموس : البطر : الأشر وقلة احتمال النعمة ، أو الطغيان بها ، وفعله بطِر كفرح .

أمـــهـــا : أكبرها وأعظمها ، وهى أصلها وعاصمتها ، وأمّ القرى : مكة ، لأنها توسطت الأرض ، أو لأنها قبلة الناس يؤمُّونها .

لاقـــيـــه : مدرك له ، ظافر به .

من المحضرين : الذين يُحضرون مرغمين للعذاب ، وقد اشتهر ذلك فى عرف القرآن ، كما قال : لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ . (الصافات : ٥٧) . أى : المرغمين على الحضور ، لأن فيه إشعارًا بالتكليف والإلزام ، ولا يليق ذلك بمجالس اللذات بل أشبه بمجالس المكاره .

التفسير :

٥٧ - وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

قال بعض الكفار للنبى ﷺ : إنا لنعلم أن ما جئت به هو الحق ، ولكنا نخشى إذا اتبعنا دينك أن تغير علينا القبائل ، أو تهاجمنا فارس والروم .

وكان العرب فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، ويقيمون الحروب لأتفه الأسباب ، وهم فى صحراء واسعة ، ليس لها ملك أو حكومة ، وإنما كل قبيلة لها شيخ قبيلة ، وإذا ثار نزاع احتكموا إلى السيف ، والحرب والغارة والعدوان ، وكان أهل مكة آمنين مطمئنين ، سالمين من العدوان عليهم ، فهم سدنة البيت الحرام ، والقائمون عليه ، وكانوا يتحركون بتجارتهم شمالاً وجنوبًا ، صيفًا وشتاءً ، ولا يعتدى عليهم أحد ، مع العدوان على غيرهم من الناس ، فامتن عليهم بتلك النعم ، وهى نعمة الأمن والأمان ، وواجههم بذلك قائلاً :

أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ...

لقد كانوا مقيمين بواد غير ذى زرع عند البيت الحرام ، والعرب يعظِّمون البيت الحرام ، ويحافظون على حرمته ، ويحملون الثمار والخيرات إلى هذا البيت من كل مكان .

رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

كان هذا الرزق الذى يحمل إلى البيت الحرام وأهله فضلاً من الله تعالى ، واستجابة لدعاء إبراهيم الخليل ، وتيسيرًا من الله تعالى لاحترام بيته ، وإكرام المقيمين حوله ، وهذا الرزق والفضل والحماية ، والحصانة والنعمة من الله القادر الرزاق ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك ، فيتركون الإسلام والإيمان ، وإذا كان الله قد تفضل عليهم بالرزق وهم كفار مشركون ، يعبدون الأصنام ، أفيتركهم حين يدخلون فى الإسلام ، قال تعالى : لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ . (قريش :١ - ٤) .

وقال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ . (العنكبوت : ٦٧) .

٥٨ - وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ .

أراد القرآن أن يؤكد لأهل مكة أن سبب هلاك القرى يكمن فى ظلمها وكفر النعمة ، والبطر والأشر والعدوان ، والقتل بدون وجه حق .

والخلاصة : أن الكفر بنعمة الله هو سبب الهلاك ، وليس الإيمان بالله أو بالرسول محمد ﷺ .

ومعنى الآيـة :

كثيرًا ما أهلكنا من قرى الظالمين ، كعاد وثمود وقوم لوط ، بسبب عتوهم وبطرهم بالنعمة وكفرهم بالرسل ، وسوء استخدامهم للنعمة ، فهذه بيوتهم خاوية بعد هلاكهم ، لم تُسكن بعد هلاك أهلها ، إلا وقتًا قليلاً ، هو وقت المستريح بها من القيلولة ، أو من ظلام الليل ، لأنها لا تصلح للإقامة الدائمة ، لما أصابها من التصدع .

وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ . فلم يوجد من أبناء الهالكين من يرثها ، لهلاك الجميع والقضاء عليهم ، أو لأنها بعد الصاعقة أو الطاغية أو التدمير لم تعد تصلح للسكنى .

قال القرطبى :

بين سبحانه لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب وتخطفته أن الخوف فى ترك الإيمان أكثر ، فكم من قوم كفروا ثم حل بهم البوار ، والبطر : الطغيان بالنعمة . ا هـ .

٥٩ - وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ .

الله تعالى لا يظلم الناس ، ولا يهلكهم بدون وجه حق ، قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

ومن عدالة الله تعالى ورحمته بالعباد إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وتقديم النصيحة ، ومن شأن الرسل أن تكون فى القرى الرئيسية كالعاصمة للقطر ، أو عاصمة الإقليم كالمحافظة ، أو قرية تكون أساسًا وعمادًا لما حولها من القرى ، مثل مكة فهى أم القرى ، أى : عاصمة الجزيرة العربية .

والمعنى : ما صح ولا استقام فى حكمتنا وشرعنا أن نهلك قرية من القرى ، حتى نرسل رسولاً فى عاصمة هذه القرية للتبليغ والإرشاد ، والنصح والتوجيه ، وتلك مهمة الرسل ، قال تعالى : رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

هؤلاء الرسل يقرءون الوحى والقصص ، ويدعون الناس إلى الله تعالى ، بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، وبيان منهج الله تعالى وسنته وشريعته ، وأوامره ونواهيه ، فمن أطاع الله كانت له سعادة الدارين ، ومن عصى وطغى وبغى أهلكه الله جزاء ظلمه وبغيه .

وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ..

فالله تعالى لا يهلك الناس عبثًا ، ولا يعاقبهم جزافا ، وإنما يهلك من كذّب الرسل ، وجحد النبوات ، وظلم وطغى وبغى ، فاستحق الهلاك بعمله وبغيه ، قال تعالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ . (النحل : ١١٢) .

وقد أرسل الله محمدًا ﷺ فى مكة وهى أم القرى ، وقد كذّب أهلها ، فكأن فى الآية وعيدًا وتهديدًا لأهل مكة ، والله أعلم .

٦٠ - وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

تأتى هذه الآية كالردّ على قول المشركين : إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ...

فبين الله فيما سبق أن الإيمان سبب للأمان المادى والنفسى ، وأن الكفر والطغيان سبب فى الهلاك والعذاب ، وهنا يقول القرآن : إن كل ما يناله إنسان فى هذه الدنيا من مال أو جاه أو سلطان ، هو متاع قليل من متاع الدنيا محدودة الأجل .

قال تعالىٰ : فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . (التوبة : ٣٨) .

وقال تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

فالدنيا فانية والآخرة باقية ، ومتاع الدنيا قليل ، ومتاع الآخرة دائم لا يزول ، وما عند الله من ثواب وجنة ونعيم ورضوان أفضل وأبقى وأعزّ وأكرم ، فهلا استخدمتم عقولكم لتسارعوا إلى الإيمان فتنالوا عز الدنيا وشرف الآخرة .

وقد كثر حديث القرآن عن هذا المعنى فبين أن متاع الدنيا ظل زائل وعرض حائل ، وأن متاع الآخرة خلود فى الجنة ، ومغفرة من الله ورضوان .

قال تعالى : زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ . (آل عمران : ١٤ – ١٧) .

ويقول الشاعر :

تالله لو عاش الفتى فى دهره ... ألفا من الأعوام مالك أمره

متنعما فيها بكل نفيسة ... متلذذا فيها بنعمى عصره

لا يعتريه السُّقم فيها مرة ... كلا ولا ترد الهموم بباله

ما كان هذا كلُّه فى أن يفى ... بمبيت أول ليلة فى قبره

وقال عمر بن عبد العزيز للحسن البصرى : يا تقى الدين عظنا وأوجز ، قال : يا أمير المؤمنين ، صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعدَّ الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

٦١ - أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ .

تأتى هذه الآية لتقارن بين نصيب المؤمن ونصيب الكافر ، فالمؤمن متيقن بالآخرة مؤمن بالله وكتبه وملائكته ورسله ، مؤمن بالجزاء والثواب والعقاب ، هذا المؤمن وعده الله وعداً حسناً ؛ أى : جنّة عالية وقد صدق بوعد الله فسيلقى هذا النعيم ، أهذا فى حصوله على النعيم الدائم ، كرجل كافر متعه الله بمتاع الدنيا من المال والزواج والجاه وسائر المتع ، ثم هو كافر ، مطالب بالحضور والمثول أمام عدالة الله يوم القيامة ، أيهما أفضل ؟

وفى سبب نزول هذه الآية ، قال ابن عباس : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب ، وأبي جهل بن هشام . وقال مجاهد : نزلت فى النبى ﷺ وأبى جهل . وقال الثعلبى : نزلت فى كل كافر مُتِّع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ، ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة . ا هـ .

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى : مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ . (محمد : ١٥) .

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات :

حق عليهم القول : ثبت ووجب عليهم آيات الوعيد كقوله تعالى : وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (السجدة : ١٣) .

أغوينا : أضللنا ، بأن دعوناهم إلى الغى والضلال .

تبرأنا إليك : تبرأ بعضنا من بعض ، فالشياطين يتبرءون ممن أطاعهم ، والرؤساء يتبرءون ممن تبعهم .

فعميت عليهم الأنباء : خفيت عليهم الحجج ، خفاء المرئى على الأعمى .

لا يتساءلون : لا يسأل بعضهم بعضًا عن الحجج .

الخيرة : الاختيار .

ما تكن صدورهم : ما يخفون فى صدورهم من الاعتقادات الباطلة ، وعداوتهم للرسول ﷺ .

وما يعلنون : ما يظهرونه من الأفعال الخبيثة ، والطعن فى الإسلام .

له الحكم : لله وحده القضاء النافذ فى كل شيء من غير مشاركة فيه لغيره .

تمهيد :

تعرض الآيات بعض مشاهد القيامة ، كأنك تراها رأى العين :

فالله يسأل المشركين : أين الآلهة الباطلة التى عبدتموها من دون الله ؟ فلا جواب ، وكأنَّ الرؤساء والشياطين أحسُّوا أنهم المقصودون ، فتبرءوا إلى الله من عبادة الأتباع ، وقالوا : ربنا هؤلاء الذين حق عليهم عذاب جهنم ، لم نجبرهم على الكفر ، إنما دعوناهم فقط، فاستجابوا بعقولهم وإرادتهم .

كان الكفار يعبدون أصنامًا وأوثانا، وآلهة كثيرة بدون وجه حق، فطلب منهم الاستعانة بهؤلاء الشركاء، فدعوهم فلم يجدوا منهم استجابة، وهنا شاهدوا العذاب، وتمنوًا لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا .

والقرآن بهذا يعرض الآخرة ليراها الناس رأى العين ، ويفيقوا من غفلتهم قبل فوات الأوان .

ويوجِّه القرآن أسئلة معلومًا جوابها ، لكنها للتبكيت والتقريع ، فيسأل الكافرين : بماذا أجبتم المرسلين ؟ فخفيت عليهم الحجة ولم يجدوا جوابا ولاذوا بالصمت ، وهنا يعرض القرآن لوحة مشرقة للتائبين ، ويوضح أن الحكم والأمر والاختيار لله تعالى أحكم الحاكمين .

التفسير :

٦٢ – وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ .

تعرض الآية مشهدا من مشاهد القيامة ، حين ينادى الله المشركين فيقول لهم :

أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ .

أين الأصنام والأوثان والآلهة الباطلة الذين عبدتموهم وزعمتم أنهم آلهة .

ومعروف أنه لا جواب ولا حجة ، والسؤال هنا للتقريع والتبكيت ، وفى مواقف أخرى أفاد القرآن : أن الأتباع يلقون التبعة على الزعماء والشياطين ورؤساء الضلال ، وكأنَّ هؤلاء القادة أحسُّوا بأن الأتباع يلقون عليهم المسئولية ، فتنصلوا منها .

٦٣ – قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ .

القول فى الآية يراد به كلمة العذاب ، أو المكث فى جهنم ، تحقيقا لعدالة الله القائل : **وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ** . (السجدة : ١٣) .

أى : قال الرؤساء والشياطين ورموز الإغواء والإضلال : إن هؤلاء الأتباع اختاروا الضلال ، وساروا وراءنا مختارين ، وما كان لنا عليهم من سلطان ، إلا أن دعوناهم فاستجابوا بإرادتهم واختيارهم ، كما

ضللنا نحن دعوناهم للضلال فضلُّوا، ونحن نتبرأ إلى الله من عبادتهم ومن ضلالهم، ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم ونزواتهم، ولو أعملوا عقولهم، وشحذوا أفكارهم، لاهتدوا فى الدنيا، وما ساروا وراءنا، وهكذا يتبرأ القادة من الأتباع، ويتبرأ الأتباع من القادة، فى وقت لا ينجى فيه الإنسان إلا العمل الصالح والتوبة النصوح.

قال تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ.
(البقرة: ١٦٦، ١٦٧)

٦٤ - وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ.

أى: قيل لهؤلاء الكفار على سبيل التبكيت والتقريع، والفضيحة على رءوس الأشهاد:

ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ. الذين عبدتموهم من دون الله وزعمتم أنهم ينفعونكم فى هذا اليوم.

فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ...

أى: دعوهم يائسين مغلوبين على أمرهم، فلم يلتفت إليهم الشركاء لانشغالهم بأنفسهم، ولأنهم لا يملكون لهم أى نفع أو مصلحة، وشاهد الكفار العذاب بأعينهم رأى العين، فتمنوا لو أنهم كانوا قد رغبوا فى الهدى واستقاموا عليه فى الدنيا[٤٢].

قال الزمخشرى:

حكى - سبحانه وتعالى - أولاً ما يوبخهم به، من اتخاذهم له شركاء، ثم ما يقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم، لأنهم إذا وُبِّخوا بعبادة الآلهة، اعتذروا أن الشياطين هم الذين استفزوهم وزينوا لهم عبادتها، ثم ما يشبه الشماتة بهم، من استغاثتهم آلهتهم، وخذلانهم لهم، وعجزهم عن نصرتهم، ثم ما يبكِّتون به من الاحتجاج عليهم، بإرسال الرسل وقطع الحجة، وإبطال المعاذير.

٦٥ - وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ.

إنها مواقف محيرة، فقد سئلوا فى السابق سؤال تقريع وتوبيخ على اتخاذهم شركاء لله، وهنا يُسألون أيضًا سؤال تقريع وتوبيخ على رفضهم الاستجابة لرسل الله، وعدم استماعهم أدلة الهدى، وآيات الإيمان، ولفت الأنظار إلى هذا الكون وما فيه من أدلة القدرة الإلهية، وقصص الأولين، وأخبار البعث والمعاد، لقد صموا آذانهم فى الدنيا عن سماع صوت الرسل، وأغمضوا عيونهم عن رؤية الحق، وهنا فى

يوم القيامة يوجه إليهم السؤال التالى : بماذا أجبتم المرسلين الذين بعثهم الله لإرشادكم ، ودعوتكم للإيمان والتوحيد ؟

٦٦ – فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ .

خفيت عليهم الحجج ، وغابت عنهم الأدلة ، فلاذوا بالصمت والإبلاس .

قال الزمخشرى :

لا يسأل بعضهم بعضًا ، كما يتساءل الناس فى المشكلات ، لأنهم يتساوون جميعًا فى عمى الأنباء عليهم ، والعجز عن الجواب . ا هـ .

وجاء فى ظلال القرآن :

والتعبير يلقى ظل العمى على المشهد والحركة ، وكأنما الأنباء عمياء لا تصل إليهم ، وهم لا يعلمون شيئا عن أى شيء ! ولا يملكون سؤالاً ولا جوابًا ، وهم فى ذهولهم صامتون ساكتون ا . هـ .

٦٧ – فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ .

فى مقابل الصفحة القاتمة لموقف المشركين وتبكيتهم وتقريعهم ، وتبرؤ الزعماء والقادة منهم ، وعدم استجابة الشركاء لهم ، وغياب الحجة عن عيونهم ، توجد صفحة أخرى مشرقة ناصعة للتائبين ، وكأنها دعوة مفتوحة للناس أجمعين .

والمعنى :

فأما من تاب عن الشرك بالله أو عن المعصية ، وآمن بالله تعالى ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، فهو جدير بالفلاح فى الدنيا ، والنجاة من العذاب يوم القيامة . قال تعالى : وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ . (طه : ٨٢) .

فَعَسَىٰٓ . هنا للتحقيق على عادة القرآن .

قال ابن كثير : فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ . يوم القيامة و (عَسَى) . من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة . ا هـ .

وقيل : فَعَسَىٰٓ . للترجِّى من قبل التائب المذكور ، بمعنى : فيتوقع أن يفلح ويفوز .

٦٨ - وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

اختار المشركون آلهة باطلة ، وتمنَّوا أن يكون الرسول أحد زعماء مكة أو الطائف ، وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) . يقصدون الوليد بن المغيرة بمكة ، أو عروة بن مسعود الثقفى بالطائف ، فأنزل الله هذه الآيات توضح أن الخلق بيده ، والاختيار بيده ، واختيار الرسل للبشر ، أو اختيار الملائكة للنزول بالوحى أمر بمشيئة الله تعالى ، واختياره وحكمته ، على مقتضى علمه باستعداد عباده لذلك ، فليس من حق العباد ولا فى مقدورهم أن يختاروا على الله ما يشاءون من أديان باطلة وآلهة زائفة .

سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : تنزه الله تعالى بذاته تنزهًا خاصًا به ، من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره ، وتقدس وتمجد عن إشراكهم .

قال الزمخشرى : إن الاختيار إلى الله تعالى فى أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ، ولا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم . ا هـ .

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ... (الأحزاب : ٣٦) .

قال الشاعر :

العبد ذو ضجر والربّ ذو قدر والدهرُ ذو دُول والرزق مقسومُ
والخير أجمع فيما اختار خالقنا وفى اختيار سواه اللّوم والشّومُ

وروت عائشة ، عن أبى بكر رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ كان إذا أراد أمرًا قال : «اللهم خِرْ لى واختر لى»[٤٣] .

وروى أنس ، أن النبى ﷺ قال : «يا أنس ، إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى ما يسبق إليه قلبك ، فإن الخير فيه»[٤٤] .

فالله تعالى هو وحده العليم ، وهو سبحانه عالم الغيب ، والمؤمن يصلى الاستخارة ويدعو بدعائها ، الذى ورد فى صحيحى البخارى ومسلم .

عن جابر بن عبدالله قال : كان النبى ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : «إذا هم أحدكم بالأمر لا يدرى عاقبته فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسمّى حاجته) خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى عاجله وآجله ، فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى عاجله وآجله ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضّنى به»[٤٥] .

قال العلماء : وينبغى له أن يفرغ قلبه من جميع الخواطر ، ومن رغبة له فى الموضوع قبل الاستخارة أو رغبة عنه ، حتى لا يكون مائلا إلى أمر من الأمور ، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه فإن الخير فيه إن شاء الله ، فإن وجد انشراحًا وسرورًا وارتياحًا فالأمر خير ، وإن وجد انقباضًا وضيقًا فالأمر شر .

٦٩ – وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ .

هو سبحانه العليم علمًا مطلقًا بسرائر النفوس ، وما يخفيه المشركون فى صدورهم ، حين قالوا : **لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** . (الزخرف : ٣١) . وهو عالم بما يعلنونه ، ومطلع على كل أمر سواء منه الخفى والعلن ، والسر والجهر ، والباطن والظاهر ، وهو علام الغيوب .

٧٠ – وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...

هو سبحانه المتفرد بالألوهية ، فلا معبود سواه ، كما أنه لا ربّ يخلق ما يشاء ويختار غيره ، فهو العليم بكل شىء ، القادر على كل شىء .

لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ...

له كل الحمد والشكر ، فهو الخالق الرازق المتفضل على عباده ، وهو سبحانه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها ، على الخلق كافة ، يحمده المؤمنون فى الدنيا على إنعامه وهدايته ، وفى الآخرة على عدله ومثوبته .

وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

له القضاء النافذ فى كل شىء ، فلا معقب لحكمه ، وهو القاهر فوق عباده ، الرحيم اللطيف الخبير ، وإليه ترجع جميع الخلائق يوم القيامة ، فيجزى كل عامل بعمله من خير أو شر ، ولا تخفى عليه منهم خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ، ونهاية تقوية القلب للمطيعين ، فهو سبحانه الحاكم العادل ، يجازى المحسنين على طاعتهم ، ويعاقب العصاة على عصيانهم .

★ ★ ★

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

المفردات :

قل أرأيتم : أخبرونى .

سرمدا : دائما متصلاً مؤبدًا متتابعًا .

تسكنون فيه : تهدأون فيه وتستريحون .

نزعنا : أخرجنا بشدة وقلعنا وانتزعنا .

شهيدا : شاهدًا .

برهانكم : حجتكم ودليلكم .

ضل عنهم : ذهب وغاب عنهم غيبة الضال ، أى : الضائع .

ما كانوا يفترون : ما كانوا يختلقونه فى الدنيا من الباطل والكذب على الله تعالى ، من أنّ معه آلهة تعبد .

تمهيد :

سورة القصص تبين من أولها عظمة القدرة الإلهية ، وتؤكد أن الله فعال لما يريد ، حيث رعى طفلاً رضيعًا ، جعل على يديه هلاك ملك قوى مستبد .

وتذكر مشاهد القيامة ، وحيرة المشركين وضياع حجتهم ، وذكرت في الآيات السابقة وحدانية الله تعالى ، وانفراده بالخلق والاختيار ، واستحقاقه وحده الحمد والشكر في الدنيا والآخرة ، وتفرده بالحكم والفصل بين العباد ، وإليه المرجع والمصير .

وتواصل الآيات ٧١ – ٧٥ من سورة القصص بيان القدرة الإلهية ، بأمثلة محسوسة حيث جعل الله الليل والنهار متتابعين ، يعقب أحدهما الآخر ، ولو استمر الليل سرمدًا دائمًا لتعطلت مصالح الناس ، وتعطنت أجسامهم ، ولو استمر النهار دائمًا لتلفت أعصاب الناس ، وقلّت راحتهم ، ومن رحمة الله أنه جعل الليل لباسًا ، والنهار معاشًا ، ثم عرض مشهدًا من مشاهد القيامة ، لتكرير العظة والذكرى .

التفسير :

٧١ – قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ .

أبدع الله نظام هذا الكون ، رفع السماء وبسط الأرض ، وأرسى الجبال ، وأظلم الليل وأضاء النهار ، وسخر الشمس والقمر ، ولو خلق الله الأرض بحيث يكون ليلها دائما ، أو بحيث يكون نهارها دائمًا كذلك ، فليس هناك إله غير الله يستطيع أن ينعم عليهم بالليل والنهار المتعاقبين ، والناس لطول الإلف والعادة قد ألفوا تتابع الليل والنهار ، وظهور الشمس والقمر ، وهنا يذكرهم الله بهذه النعمة ، فيقول : أخبروني إن جعل الله عليكم الليل دائما متتابعًا إلى يوم القيامة ، فتعطلت مصالحكم ، وطال شوقكم للضياء والشمس والحركة والسعي ، من إله غير الله يقدر أن يقدّم لكم الضياء ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ . سماع تدبر وتأمل أن الله وحده هو الذي يرسل النهار ، ويحفظ نظام الكون ، ويسخر الشمس والقمر ، ويجعل تتابع الليل والنهار من أسباب سعادة الناس ، واستمرار حركتهم ، وقضاء مصالحهم ، والاستمتاع بالراحة أيضًا .

٧٢ – قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ .

ثم تلمس السورة القلوب والأفئدة ، والعقول والخيال ، فلو تخيل الإنسان أن الحياة نهار دائم مستمر ، لا ليل فيه ولا ظلام ، ولا سكن ولا هدوء ، حينئذ تتأثر أعصاب الناس من كثرة الضوء والعمل ، ومن قلة الهدوء والظلام ، وفي ليالي الشتاء الطويلة يشتاق الناس إلى طلوع الفجر ، ثم طلوع الشمس ثم الحركة والسعي ، وكذلك في نهار الصيف القائظ يضيق الناس بالهجير والحرارة والضوء ، ويشتاقون إلى نسيم الليل وهدوئه وراحته ، مع أن الليل محدود في الشتاء ، والنهار محدود في الصيف ، لكن إذا طال الليل قليلاً زاد الحنين إلى النهار ، وإذا طال النهار قليلاً اشتد الحنين إلى الليل .

والمعنى :

أخبرونى إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا مستمرًا دائمًا أبدًا إلى يوم القيامة ، هل يوجد صنم أو وثن أو إله آخر غير الله يستطيع أن يأتيكم بليل يكون لكم سكنًا وراحة ، ونومًا وهدوءًا ، أفلا تنظرون بعيونكم ، وتتأملون ضياء النهار ، وانسحاب الظلام ، كما قال سبحانه : وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ . (المدثر : ٣٣ – ٣٥) .

ونلاحظ ما يأتى :

عندما تحدث الله عن استمرار الليل قال : أَفَلَا تَسْمَعُونَ . لأن الإنسان إذا كان فى الظلام يعتمد على حاسة السمع ، وهى حاسة لا تنام ، وقد وردت فى القرآن قبل البصر لأنها وسيلة الفكر والتعلم .

وعندما تحدث القرآن عن استمرار النهار قال : أَفَلَا تُبْصِرُونَ . لأن الإنسان فى النهار يستخدم البصر فى رؤية ما حوله .

وقال الآلوسى :

أَفَلَا تُبْصِرُونَ . الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة ، لتقفوا على أن غير الله لا قدرة له على ذلك . فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على الإتيان بالليل والنهار غير الله ، فلم تشركون ؟ ا هـ .

ونلاحظ أنه لم يجتمع السمع والبصر فى كتاب الله إلا وقدّم السمع على البصر .

قال تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ... (المؤمنون : ٧٨) .

وقال تعالى : إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا . (الإسراء : ٣٦) .

وقد ذكر العلماء والمحدِّثون أن السمع أول حاسة تؤدى وظيفتها فى الدنيا ، وهو أداة الاستدعاء فى الآخرة ، ولأن الأذن لا تنام ، فالسمع أسبق وأنفع وأدوم[٤٦] .

٧٣ – وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

إن كل شىء فى الكون يسير وفق ناموس ونظام وحكمة عليا ، تعلم مصالح الناس ، وتيسر لهم أسباب راحتهم وسعادتهم .

ومن رحمة الله وفضله أن جعل الليل ظلامًا لينام الناس ، ويجددوا نشاطهم ، ويستقروا ويسكنوا ، وتهدأ أبدانهم ونفوسهم وأرواحهم ، ثم يعقب ذلك النّهار لينشط الناس ، ويتحركوا إلى أعمالهم وأرزاقهم ، وسعيهم ونشاطهم ، وبذلك يجمع الناس بين العمل والراحة ، والسعى والنشاط ثم الهدوء والاستقرار .

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . الله تعالى الذى تابع بين الليل والنهار، وجعل أحدهما يأتى وراء الآخر، فمن فاته عمل بالليل تداركه بالنهار، ومن فاتته صلاة أو عبادة بالنهار تدارك التقصير بالليل .

قال تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا . (الفرقان : ٦٢) .

٧٤ – وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ .

هذا توبيخ وزيادة خزى لهؤلاء المشركين ، حيث يناديهم الله تعالى على رءوس الأشهاد ، فيسألهم: أين الشركاء ، أين الأصنام ، أين الأوثان ، أين الآلهة التى زعمتم أن لها تصرفًا وسلطانًا ؟

قال القرطبى :

ينادى الله المشركين مرة فيقول لهم: أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ .

فيدعون الأصنام فلا تستجيب ، فتظهر حيرتهم وخزيهم ، ثم ينادون مرة أخرى على رءوس الأشهاد فيسكتون ، وهو توبيخ وزيادة خزى .

٧٥ – وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ .

انتزعنا وأخرجنا من كل أمة شهيدًا يشهد عليها ، بما فعلت مع الرسل الذين أرسلهم الله إليها ، وقال الله تعالى للكفار والمشركين : هاتوا أدلتكم وبرهانكم على أن هناك آلهة أخرى مع الله تعالى ، فضاع منهم الدليل ، وغابت عنهم الحجة ، وعلموا أن الحق لله وحده فى العبادة والألوهية والوحدانية .

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ .

ضاع منهم وتاه ، ولم يجدوا له أصلا ، كما يضيع الشىء من الإنسان ، فلا يجد له أثرا ، أى : ضاع منهم الافتراء على الله تعالى ، بأن له شريكًا من الأصنام أو الأوثان أو الآلهة المدعاة .

إنها مواقف التبكيت واللوم والإزعاج ، فقد عجزوا عن إحضار شركاء لله ، ثم شهدت عليهم الرسل ، بأن الرسل بلغوا رسالة الله إليهم فقابلوها بالرفض والجحود والنكران ، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا . (النساء : ٤١) .

والخلاصة ما يأتى :

١ – مواقف الآخرة متعددة .

٢ – تتكرر مناداة الآلهة المزعومة من أصنام وأوثان وغيرها أمام الله تعالى ، ليظهر للناس عجزها ، وليشتد توبيخ ولوم عابديها ، ولتظهر حسرتهم وألمهم .

٣ – يشهد كل رسول على أمته أنه بلغها رسالة ربها فكذّبت ، ويطلب من المكذبين تقديم الدليل على جحودهم ، وتقديم البرهان على أنهم كانوا على حق حين كذبوا الرسل وكفروا بالله فلا يستطيعون ، عندئذ يدركون إدراكًا جازمًا أن الرسل كانوا على حق فيما جاءوا به ، وأن الله وحده هو الإله الحق .

٤ – **قال ابن كثير :**

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ . ذهبت معبوداتهم فلم ينفعوهم .

★ ★ ★

قصة قارون ، وغرور المال

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

المفردات :

فبغى عليهم : ظلمهم أو تكبر عليهم .

الكنوز : الأموال المدخرة المحبوسة ، من كنزه بمعنى : ادخره ، وحبسه عن الناس ، ومنه قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (التوبة : ٣٤) .

مفاتحه : جمع مفتح «بكسر الميم» ، وهو المفتاح الذى تفتح به الأغلاق .

لتنوء بالعصبة : العصبة ، الجماعة يتعصب بعضها لبعض ويشد أزره ، ومعنى لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ : تثقلها ، يقال : ناء به الحمل ، أي : ثقل عليه .

لا تفرح : لا تفرح بدنياك فرحًا يذهلك عن أخراك .

الفرحين : الفرِحين والفارحين سواء ، والفَرِح صيغة مبالغة تفيد زيادة الفرح .

وابتغ : واطلب .

ولا تبغ الفساد : ولا تطلبه .

أوتيته : أعطيته .

القرون : جمع قرن ، وأصح ما قيل فيه : إنه مائة سنة ، ويطلق على أمة هلكت فلم يبق منها أحد ، ويطلق على أهل زمان واحد ، ومنه قول الشاعر :

إذا ذهب القرن الذى أنت فيهم وخلفت فى قرن فأنت غريب

المجرمون : المذنبون .

تمهيد :

تفيد سورة القصص فضل الله على عباده ، وكمال قدرته وجبروته ، فهو سبحانه مالك الملك ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، وقد ظهرت آثار القدرة فى تجريد فرعون من ملكه ، وغرقه فى اليمّ مع جيشه .

وفى ختام السورة نجد لوحة هادفة ، تبين قصة قارون فتذكر غناه وظلمه وتباهيه بالمال ، وعدم تواضعه ، وعدم شكره لله ، ثم خسف الله به وبداره الأرض ، والقصة فيها عظة وعبرة ، فالمال مال الله وهو نعمة تستحق الشكر ، وتستحق إخراج الزكاة وإعطاء الفقراء حقهم ، ومن منع الزكاة فإنه يعذَّب أشد العذاب يوم القيامة ، وقد وضع القرآن الكريم والسنة المطهرة منهجًا سليمًا للسلوك المالىّ المطلوب فيما يأتى :

١ – الإسلام احترم الملكية الفردية .

٢ – وقد جعل الإسلام الغنىّ موظفًا فى ماله ، فالمال مال الله ، والغنى يستثمره ويخرج حق الله فيه ، بالزكاة والصدقة وصلة الرحم والتكافل الاجتماعى .

٣ – شجع القرآن تقارب الطبقات ، وحث على عتق الرقبة والوفاء بالنذر ، وجعلَ هناك كفارة مالية لكثير منَ الأفعال ، مثل : كفارة الظهار ، واليمين ، والفطر فى رمضان ، والفدية فى الحج ، والتقرب إلى الله تعالى .

التفسير :

٧٦ – ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ . . .﴾

أفادت كتب التفسير أن قارون كان قريبًا لموسى ، فذكرت روايات أنه كان ابن عمّه ، وقيل : كان عمه، وقيل : ابن خالته .

وذكر المفسرون أن قارون كان جميل الصورة ، واسع الثراء ، وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة ، حسن الصوت ، فدخله النفاق كما دخل على السامرىّ .

وقيل : إنه حسد موسى وهارون ، حيث قال : موسى يبلغ الرسالة ، وهارون يشرح التوراة ، وقارون ليس له فى الرسالة أدنى نصيب .

والقرآن ليس فى حاجة إلى هذه الروايات التى تفتقر إلى قوة السند وصحته ، وحسبنا كتاب الله الذى يفيد أن قارون كان من قوم موسى ، فهو من بنى إسرائيل ، ولم يذكر زمن الحادثة ، ولم يبين هل كانت أيام إقامة موسى فى مصر قبل خروجه مع بنى إسرائيل ، أم كانت أثناء التيه ، أم كانت بعد موسى عليه السلام .

وتفيد روايات أن قارون ساهم فى إيذاء موسى ، حيث وعد موسى بإخراج الزكاة ، وذهب ليخرجها فوجدها مقدارًا عظيمًا جدًا ، فاحتال على منع الزكاة ، واتفق مع امرأة بغىّ ، أن تقول : إن موسى زنى بىّ ، وهذا الولد منه ، فأنطق الله الوليد ، وقال : أنا ابن الراعى .

ونحن نقول : حسبنا كتاب الله فى تقديم العظة والعبرة ، والقرآن غنى عما سواه ، ونحن نريد أن نعرف ماذا قال القرآن الكريم ، فلنتأمل فى معنى الآية الكريمة :

إن قارون كان من بنى إسرائيل قوم موسى ، فبغى عليهم حيث ظلمهم وتكبر عليهم ، أو منع إخراج الزكاة والمعونة للمستحقين ، وقد أعطيناه من الأموال التى كنزها وحبسها عن المساهمة فى إسعاد الناس والتيسير عليهم ، مع كثرة هذه الأموال ، حتى إن مفاتيح هذه الخزائن أو الخزائن نفسها ، يعجز عن حملها عصبة قوية من الرجال الأشداء ، ما بين العشرة والأربعين ، وقد أظهر قارون الفرح والتفاخر بكنوزه ، إذ قال له أتقياء قومه : لا تفرح فرح البطر والكفران ، إن الله لا يحب الفرحين البطرين ، الذين يكفرون ولا يشكرون ، ويتباهون بالمال ويُسخّرونه لأهوائهم ، ويمنعون نصيب الله منه .

٧٧ – وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ .

يريد الإسلام إنسانًا متوازنًا ، يقصد بعمله وجه الله ، فالمال مال الله ، والإنسان مستخلف عن الله فى إدارته ، قال تعالى : **وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ... (الحديد : ٧) .

وقد حرر الإسلام الإنسان من عبادة المال والهوى ، والجاه والسلطان ، وطلب منه أن يقصد بعمله وجه الله ، ويعلم أن متاع الدنيا قليل وأن الآخرة خير وأبقى ، ولقد وجه الأتقياء النصيحة إلى قارون قائلين: قدّم من المال رصيدًا لك فى الآخرة ، بإخراج الزكاة والصدقة والمساعدة ، واقصد بعملك وجه الله، ولك أن

تستمتع بمالك بالطرق التى أحلها الله ، فى المأكل والملبس والمسكن والمتعة الحلال ، وكما أحسن الله إليك بالمال ، فأحسن إلى الفقراء وعليك بالشكر ، وشكر النعمة استخدامها فيما خلقها الله له ، أى : قابل الإحسان من الله ، بالإحسان إلى عباده ، وبالشكر لله والتواضع والرأفة والرحمة بالآخرين ، ولا تستغل كنوزك فى الفساد والتعالى ، وارتكاب الموبقات والشرور ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ . بل يبغضهم وينتقم منهم .

٧٨ - قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ .

أى : قال قارون لمن وجه إليه النصيحة : إنما أوتيت هذا المال لمعرفتى بطرق كسب المال واستثماره ، ومهارتى فى ذلك واجتهادى ، أو لأنى أثير عند الله حبيب إليه ، فقد كان قارون أكثر الناس نصيبًا من التوراة ، وأحسنهم صوتًا ، وكان يلقب بالمنوِّر ، وهنا يبين القرآن أن الله يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحبّ ، فقد أهلك الله أممًا وأفرادًا وقرونًا كانوا أكثر مالاً وجاهًا من قارون ، وأكثر خبرة بجمع المال وطرق تحصيله ، لكنهم أذنبوا وأجرموا وأسرفوا على أنفسهم فى الملذات والشهوات ، أو منعوا حق الله فى المال ، فأهلكهم الله ، كما أهلك فرعون مع ملكه وغناه ، وأهلك عادًا وثمودَ وأصحاب مدين وقوم لوط ، فالمذنبون يهلكهم الله عقوبة عادلة ، كما عاقب سبأ جزاء إعراضهم عن شكر النعمة ، فتهدم سدّ مأرب ، وتلفت الزراعة وعم الجفاف ، وهلك الكافرون .

من كلام المفسرين

قال الإمام عبدالرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير الآية :

إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ...

إنما أوتيته على علم من الله باستحقاقى إياه ، فلولا رضاه عنى ، وعلمه بفضلى ما أعطانيه .

وقيل : إنه علم التوراة ، فإنه كان أعلم بنى إسرائيل بها ، وقال أبو سليمان الدارانى : علم التجارة ووجوه المكاسب ، وقيل : علم استخراج الكنوز والدفائن .

وقيل : علم الكيمياء ، فكان يحوِّل الرصاص والنحاس ذهبًا ، وردّه العلماء بأن فيه دعوى قلب الحقائق ، وذلك لا يكون إلا لله تعالى ، ولم يثبت حدوثه منه بطريق صحيح ، وما يشاع بين العامة من إمكان ذلك إنما هو من باب الأراجيف التى لم تثبت فى الواقع ، بل هى من الصبغ والتزييف[٤٧] .

وقريب من الآية قوله تعالى : ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ...﴾ (الزمر : ٤٩) .

وقال تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى ...﴾ (فصلت : ٥٠) . أى : هذا أستحقه .

ويقول شوقى أمير الشعراء :

عجبت لمعشر صلّوا وصاموا ... ظواهر خشية وتقى كذابا
وتلقاهم حيال المال صمًّا ... إذا داعى الزكاة بهم أهابا
لقد منعوا نصيب الله منه ... كأنّ الله لم يحص النصابا
فخذ لبنيك والأيام ذخرًا ... وأعط الله حصته احتسابا
فلو صادفت أحداث الليالى ... وجدت الفقر أقربها انتسابا
وأن البر خيرٌ فى حياة ... وأبقى بعد صاحبه ثوابا
وأن الشر يصدع فاعليه ... ولم أر خيِّرًا بالشر آبا

وجاء فى التفسير المنير للأستاذ د . وهبة الزحيلى ما يأتى :

إن أصول الحضارة الإسلامية أربعة :

١ – العمل الصالح ثواب الآخرة .

٢ – عمارة الدنيا بإتقان دون أن تستولى على مشاعر الإنسان .

٣ – الإحسان إلى الناس ، إحسانًا ماديًا أو معنويًا أو خلقيًا .

٤ – قمع الفساد والعصيان والخراب .

★ ★ ★

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات :

فى زينته : فيما تزين به من متاع الحياة الدنيا .

ويلكم : هو فى الأصل دعاء بالويل وهو الهلاك ،ثم شاع استعماله فى الزجر عما لا ينبغى ، وهو المراد هنا .

ثواب الله : فى الآخرة بالجنة .

ولا يلقاها : ولا يلقى هذه النصيحة ، أى : لا يتقبلها ويعمل بها .

إلا الصابرون : على الطاعات ، وعن المعاصى .

فخسفنا به وبداره الأرض : أى : بقارون ، وخُسف : غار فى الأرض ، والمراد : جعلنا عاليها سافلها ، أى : أدخله الله وداره فى جوف الأرض .

فئة : جماعة .

ويكأن الله : ألم تر أن الله ، أو : عجبا ألم تر أن الله ، أو : بل إن الله .

يبسط : يمدّ ويعطى .

ويقدر : يضيق ويقتر بمقتضى مشيئته ، لا لكرامة تقتضى البسط ، ولا لهوان يوجب القبض .

التفسير :

٧٩ - فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .

بعد أن قُدمت له النصيحة ، كابر واشتد غروره ، وخرج فى أبهى حلة وأحسن متاع ، يستعرض نعم الله عليه ، وجمع كل ما عنده من جنود ورجال وجوارٍ ، وخيل وبغال ، فى كسوة ثمينة ومظهر أخّاذ ، ليكسر قلوب الفقراء ، ويعاند الناصحين .

قال الراغبون فى الدنيا وزينتها[٤٨] : ليت لنا مثل ما أوتى قارون من المال والجنود والرجال ، والخيل والبغال ، والحشم والخدم ومظاهر الحياة وزينة الدنيا .

إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .

إنه حصل على نصيب وافر من دنياه .

٨٠ - وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ .

أى : قال أهل العلم والنصح والتقوى لهؤلاء المتعلقين بالدنيا ، الذين جعلوا الدنيا غايتهم : عجبا لكم، أو تبًا لكم وخسرًا ، كيف تتغالون فى طلب الدنيا ، ويسيل لعابكم عليها ، ما هذا الحرص على المظاهر الكاذبة ، والدنيا الفانية ، وما عند الله تعالى من ثواب وجنة ورضوان لمن آمن بالله وأطاعه ، خير مما تتمنون ، فإن نعيم الآخرة باقٍ لا يزول ، خالص من الأحزان والأكدار ، وهو خير مما ترون وتتمنون ، وما يتلقى الصبر والرضا والهدوء النفسى إلا من صبر على أداء الطاعات ، واجتنب المعاصى ، وكان قدوة حسنة فى مجد أمته وإعلاء شأنها ، ورعاية الفقراء والضعفاء ، والإحسان إلى عباد الله ، وبذا ينال محبة الخلق ورضوان الخالق .

٨١ - فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ .

أصاب قارون العجب والكبر والبطر ، وافترى على موسى واستحق غضب السماء ، فزلزل الله به وبداره الأرض ، فخسف به وبداره ، وأصبح هو وداره فى حفرة فى وادٍ سحيق ، وذهبت ثروته وزينته ودُمِّر كل ذلك تدميرا .

وقد روى البخارى فى صحيحه ، من حديث الزهرى ، عن سالم ، أن أباه حدثه ، أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة»[٤٩] .

فالرجل يسير وهو معجب بنفسه ، مغرور متكبر ، يتيه فخرا وتعاليا بثروته أو ماله أو جاهه أو سلطانه أو نفوذه ، ناسيًا فضل الله عليه .

وذكر ابن كثير فى تفسيره أن هذا الحديث يشير إلى قارون .

وقد وردت أحاديث فى الصحيح تفيد أنه لا مانع من تمتع المؤمن بزينة الدنيا وجمالها ، فإن الله جميل يحب الجمال[٥٠] ، والله تعالى يحبّ أن يرى أثر نعمته على عباده . والممنوع هو الكبر والخيلاء ومنع المال عن صاحبه ، وحبس المعروف عن مستحقيه ، وأن يتحول الغنىّ إلى أنانى مسرف ينفق على نفسه وأسرته ، ويكابر ويتعالى ، ويمنع الحق عن أهله .

ملحق بتفسير الآية

١ - يوجد فى محافظة الفيوم بحيرة صغيرة تسمى بركة قارون ، ويجوز أن يكون قارون وقومه كانوا يقيمون فى هذا المكان ، وأنه خرج على قومه فى زينته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، وانخفض مستوى الأرض ، وتحوّل إلى بركة تسمى بركة قارون ، وهذا مجرد احتمال .

٢ - ذكرت كتب التفسير روايات لاسند لها ، من ذلك ما روى عن قتادة قال : ذكر لنا أنه خرج هو وحشمه ، على أربعة آلاف دابة ، عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغلة بيضاء ، وعلى دوابهم قطائف الأرجوان . وقال مقاتل : خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول ، وعليهم الثياب الأرجوانية ، ومعه ثلاثمائة جارية بيض ، عليهن الحلىّ والثياب الحمر ، يركبن البغال الشهب . ا هـ .

والمرجّح أن مرد ذلك إلى الإسرائيليات ، وفى كتاب الله ما يغنى ، فقد خرج فى أبهى حلة وزينة ، متظاهرًا بكل ما عنده عجبا وتيها . قال تعالى : فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ...

عود إلى الآية :

فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ .

إن الخسف مقصود به ضياع ماله وداره ونفسه ، وما نراه من تهاوى أسعار البورصة ، وأسعار العملات ، وانتشار الأزمات الاقتصادية فى الشرق حينا ، وفى الغرب حينا ، ينبغى أن يذكر الناس بأن هناك خسفًا للفرد حينا ، وخسفًا للأمة حينا ، وأن هناك خسفًا حسيًا ، وخسفًا معنويًا .

فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ .

أى : لم يغن عنه حشمه ولا خدمه ، ولا جيشه ولا نفسه ، ولم تكن له جماعة تعصمه من الخسف ، أو تنصره ، وما صح ولا استقام أن يكون من الممتنعين من بطش الله ، بأىِّ سبب من أسباب الامتناع ، فإنه لابدّ واقع ، وليس له من دافع .

وحرىّ بالأمم الإسلامية أن تراقب ربّها ، وأن تتقى الله فى تصرفاتها وأموالها وسلوكها ، حتى تجنى حصاد السعادة فى الدنيا ، والنجاة فى الآخرة ، قال تعالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ . (النحل : ١١٢) .

٨٢ – وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ .

صار الذين كانوا معجبين بقارون ، وكثرة أمواله ومظاهر زينته ، يتعجبون مما أصابه ، ويتذكّرون أن الله تعالى يعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ويُعز من يشاء ويذل من يشاء ، وليس عطاء المال بدليل على محبة الله للعبد ، ولا سلب الدنيا منه بدليل على بغض الله له ، فلله تعالى حكمة سامية ، قال تعالى : وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ . (الشورى : ٢٧) .

وقد روى عن ابن مسعود مرفوعًا : «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب»[٥١] .

لقد طرق الإيمان قلوب المؤمنين الذين غرّتهم مظاهر العظمة والأبهة فى قارون ، وتمنوا أن لهم مثل ما لقارون غبطة لا حسدًا ، وحين شاهدوا نهايته تعجبوا كثيرًا لما أصابه ، وعجبوا من نهايته ، وحمدوا الله على أنه لم يخسف الأرض بهم كما خسف بقارون ، لأنهم تمنوا أن لهم مثل ما لقارون وقالوا : لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ...

أى : لولا أن لطف الله بنا وأحسن إلينا ، لخسف بنا الأرض كما خسف بقارون ، لأنا وددنا أن نكون مثله .

وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ .

عجبا ألم تر أن الله لا يحقق الفوز والنجاح للكافرين به ، المكذبين رسله ، المنكرين ثواب الله وعقابه فى الآخرة ، مثل قارون .

★ ★ ★

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

المفردات :

علــوا : استكبارًا وقهرًا وغلبة .

فســادا : ظلمًا للناس كما أراد فرعون وقارون .

العـاقبـة : المصير المحمود .

للمـتقـين : المراقبين لله .

تمهيد :

تأتى هذه الخاتمة فى أعقاب قصة فرعون وقارون ، فتبين أن محل جزاء المؤمنين هو الآخرة ، التى جعلها الله للمتواضعين ، الذين لا يظلمون الناس ولا يفسدون ، ولا يأكلون حقوق الآخرين ، ثم وضح مقدار ذلك الجزاء الذى يحصل فى الآخرة ، فالحسنة تضاعف إلى عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف فأكثر فضلاً من الله ورحمة ، وجزاء السيئة مثلها لطفا من الله وعدلاً .

التفسير :

٨٣ - تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

هذه الجنة والمنزلة العالية نجعلها للمؤمنين المستقيمين الأسوياء الذين يصبرون على البأساء ، ويشكرون على النعماء ، ويرضون بأسباب القضاء ، وإذا أعطاهم الله المال أو الجاه أو السلطان أنفقوا المال فى سبيل الله ومرضاته ، ولم يستطيلوا به على عباد الله ، ولم يتخذوا المال ذريعة للفساد والعدوان والتعالى .

وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

أى : العاقبة الحسنة والتمكين فى الأرض ، والرفعة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، لمن اتقى الله وراقب مولاه ، ورضى بالحلال وزهد فى الحرام ، ولم يكن مثل فرعون وقارون .

وتأتى هذه الآية بمثابة التعقيب على قصة قارون ، فقد غرّه ماله وتباهى به وتعالى ، وضنَّ به على الفقراء والمساكين ، ثم خسف الله به وبداره الأرض ، فكان المال مصدر بؤس وشقاء له فى الدنيا والآخرة، أما من اتقى الله فى ماله فوصل به رحمه وأنفق منه على المستحقين ، ولم يتطاول به على عباد الله فله سعادة الدنيا ، والنجاة فى الآخرة ، ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «إنه أُوحى إلىّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد»[٥٢].

وروى مسلم ، وأبو داود ، أن النبى ﷺ قال : «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ، ونعله حسنة ، فقال : «إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس»[٥٣].

وروى أبو هريرة : أنه جاء رجل إلى النبى ﷺ ، وكان جميلاً ، فقال : يا رسول الله ، إنى رجل حُبِّب إلىَّ الجمال ، وأعطيتُ منه ما ترى ، حتى ما أحبّ أن يفوقنى أحد بشراك نعل ، أفمن ذلك ؟ قال : «لا ، ولكن المتكبر من بطر الحقّ ، وغمط الناس» .

وعن عدى بن حاتم قال : لما دخلت على النبى ﷺ ألقى إلىّ وسادة ، وجلس على الأرض ، فقال : أشهد أنك لا تبغى علوًا فى الأرض ولا فسادًا ، فأسلم [٥٤]. أخرجه ابن مردويه .

٨٤ - مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

من جاء يوم القيامة بالخَصْلة الحسنة ، أو الأعمال الحسنة ، ومنها كلمة التوحيد «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» ، وعمل بحقها ، وهو أداء واجبات الإسلام ، والبعد عما يغضب الرحمان ، فله خير منها ، حيث يكافأ على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ... بالخصلة السيئة عقيدة أو عملا .

فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . دون زيادة ، فالجزاء الحق من جنس العمل ، قال تعالى : مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ . (فصلت : ٤٦) .

وقال تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

وهذا من عدالة الله وسعة فضله ، فهو يكافئ على الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، تفضلا ورحمة ، أما الذى جاء بالسيئة فيعاقب بمثلها فقط ، دون ظلم أو جور .

ونحو الآية قوله تعالى : وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (النمل : ٩٠) .

★ ★ ★

ختام سورة القصص

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

المفردات :

فــــــرض : أوجب عليك تبليغه .

لـــــرادك : لراجعك .

إلــى مـعـاد : إلى مكان عظيم تعوّدته وهو مكة ، أو إلى مكان تعود إليه بعد الخروج منه ، من العود ، وهو مكة أيضًا ، وذلك فى يوم فتحها سنة ثمانٍ من الهجرة ، وهذا من باب المغيبات ، لأن السورة مكية ،حملت بشرى فتح مكة سنة ثمانٍ من الهجرة .

تـــرجـــو : تتوقع .

يـــلــقــى : ينزل .

الــكــتــاب : القرآن .

ظــهــيــرا : معينا للكافرين بإجابتهم إلى طلبهم .

ولا يصدنك : ولا يمنعنك الكافرون .

هـــــالك : فانٍ .

إلا وجــهــه : إلا ذاته ، فالوجه مجاز عن الذات ، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

التفسير :

٨٥ – إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

تأتى هذه الآيات فى ختام سورة القصص ، فى أعقاب قصة موسى مع فرعون ، وقصة قارون وغروره بالمال ، وكما نصر الله موسى وأغرق فرعون ، تأتى هذه الآيات تبشر النبى ﷺ بأنه سيعود إلى مكة فاتحًا منتصرًا .

قال الضحاك : لما خرج النبى ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزلت عليه هذه الآية .

فالنبى خارج من مكة ، مطارد من أهلها ثانى اثنين ، والله ينزل عليه البشرى ، بأنه سيعود إلى مكة فاتحًا منتصرًا ، ثم أمره الله أن يفوّض الأمر إليه ، وأن يجيب الكافرين بما يأتى :

قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .

الله أعلم بى وبكم ، من منا على الهدى ، ومن منا على الضلال الواضح ، وهذا رد على الكفار حين قالوا : إنك يا محمد فى ضلال مبين .

٨٦ - وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ .

ما كنت تأمل أن تكون يا محمد صاحب الرسالة الخاتمة ، وأن تكون آخر الرسل ، لقد كان اليهود يبشّرون بنبى قرب زمانه ، وتطلّع عدد من المتحنّثين والحنيفيين إلى الرسالة والنبوة ، وما كان محمد الأمى يتطلع إلى ذلك ، ولكن الله هو الذى اختاره واصطفاه ، رحمة منه وفضلاً .

وكان قومه يعرضون عليه أن يرجع إلى دين آبائه ، فأمره الله ألا يكون معينا للكافرين فى كفرهم ، والمقصود من ذلك : أن ييأس الكفار من تلبية طلبهم ، وتستمر الآيات تشد أزر الرسول ﷺ .

٨٧ - وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ .

ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين المخالفين ، ولا تتأثر بهم ، ولا تركن إلى قولهم فيصدُّوك عن اتباع آيات الله المنزلة إليك ، وعليك أن تستمر فى دعوتك إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، مخلصًا لله فى عملك .

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ .

واحذر أن تكون مع المشركين ، الذين حاولوا أن يعبدوا إلهك يومًا ، وأن تعبد إلههم يومًا ، فعليك أن ترفض الحلول الوسط .

قال الدكتور وهبة الزحيلى فى التفسير المنير :

وهذا النهى عن مظاهرة المشركين ونحو ذلك ، من باب إلهاب الحماس ، وتهييج العاطفة ، وإثارة الغيرة على استقلال دين التوحيد وعبادة الله . ا . هـ .

ويمكن أن يقال : حاشا لله ، أن يتطرق الشرك إلى رسول الله ﷺ ، فربما كان الخطاب للرسول والمراد أمته ، كأنَّ الله وجه الخطاب إلى الأمة فى شخص رسولها : ابتعدوا عن الشرك ، وعن خيوط الشرك ، وعن الأشراك الخداعية الموصلة إلى الشرك ، وأخلصوا لله تعالى عبادتكم وتوجهاتكم ، فهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك ، فينبغى أن نقصد بأعمالنا وجه الله تعالى ، وحده لا شريك له ، وفى ختام السورة تأتى آية تلخّص الفكرة فتقول :

٨٨ - وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

إن سورة القصص التى ذكرت قصة موسى ، ورعاية الله له حتى أدى رسالته ، ثم أغرق الله فرعون ونجى موسى ، كما ذكرت قرب الختام قصة قارون ونهايته إلى الخسف والهلاك ، تأخذ بيدنا إلى أن الخيوط كلَّها مرتبطةٌ بيد القدرة الإلهية التى تفعل ما تريد ، فمن وجد الله وجد كل شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء.

وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ...

لا تعبد مع الله الواحد الأحد إلهًا آخر ، سواء أكان صنمًا أم وثنًا أم جنًا أم ملائكة ، أم نجما أم حيوانا ، لأن هذه آلهة مدَّعاة ، لا حقيقة لها ، وليس هناك إله بحق إلا الله ، لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ . ولا معبود بحق سواه ، وفى معنى ذلك قوله تعالى : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ . (الإخلاص : ١ - ٤) .

كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ...

كل ما تراه فى هذه الدنيا يدركه الفناء والموت والهلاك ، إلاَّ ذات الله المقدسة ، فهو الدائم الباقى ، الحى القيوم الذى يميت الخلائق ولا يموت ، كما قال سبحانه : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وقال عز شأنه : كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ... (آل عمران : ١٨٥) .

أى : كل إنسان يموت ، وكل حيوان يموت ، تلك سنّة الله فى هذه الحياة ، أن يهلك جيل ، لينشأ جيل آخر ، حتى تتسع رقعة الأرض للنّاس ، جيلاً بعد جيل ، والله خالق الأرض ، وهو الذى قدَّر فيها أرزاقها وأقواتها ، وهو الذى خلق الموت والحياة ، وأحكم الخلق ، وقدَّر الأمور ، تقدير الحكيم العليم ، فهو الإله وحده، وهو غنى عن العالمين ، والناس فقراء إليه ، يخلقهم ويرزقهم ويميتهم ويحييهم .

وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أصدق كلمة قالها شاعر ، لبيد حين يقول : ألا كل شىء ما خلا الله باطل»[٥٥] .

وقال تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ . (الحديد : ٣) .

فهو سبحانه قبل كل شىء وليس قبله شىء ، وهو سبحانه آخر كل شىء وليس بعده شىء ، وكل الذوات فانية زائلة ، إلا ذاته سبحانه وتعالى ، فهو منزه عن الفناء والموت ، والنوم ومشابهة الحوادث ، ومتصف بكل كمال ، ومنزه عن كل نقص ، وهو سبحانه حى لا يموت ، والإنس والجنّ يموتون .

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ ... له الأمر والتصرف ، والقضاء النافذ فى الخلق ، وبيده الخلق والأمر .

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . فيجازيكم بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا .

وبهذا الختام نجد الآية لوحة هادفة فى تقرير الألوهية والوحدانية والبقاء لله تعالى ، وأن الحكم بيده، فهو سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ومصير الخلائق بيده ، ليقضى بينهم بالحكم والعدل .

فلا معنى لعبادة إله آخر غير الله ، ما دامت خيوط القدرة كلها بيده سبحانه ، وما دام هو الأول والآخر ، والباقى بعد فناء جميع الموجودات ، والمتصرف تصرفًا مطلقًا فى هذا الكون ، وإليه المرجع والمآب .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، ولله تعالى الفضل والمنة ، وهو سبحانه له الحمد فى الأولى والآخرة ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة القصص

١ – قصة موسى وفرعون .

٢ – ولادة موسى ، رضاعه ، نشأته .

٣ – قتل موسى للقبطى ، وهربه إلى أرض مدين .

٤ – زواج موسى ، وبقاؤه فى أرض مدين عشر سنين .

٥ – عودة موسى إلى مصر ، ومناجاته ربّه .

٦ – معجزات موسى من العصا واليد البيضاء .

٧ – تبليغ موسى رسالة ربِّه إلى فرعون ، وتكذيب فرعون له .

٨ – هارون وزيرًا لموسى ، ورسولاً معه .

٩ – إثبات نبوة محمد ﷺ لإخباره عن قصص الأولين دون أن يكون حاضرًا معهم .

١٠ – إنكار قريش لنبوة محمد ، وانتحالهم المعاذير لتكذيبه ، وتفنيد القرآن لحججهم ، ودحض أكاذيبهم .

١١ – التذكير بنعمة الله على عباده باختلاف الليل والنهار .

١٢ – شهادة الأنبياء على أممهم .

١٢ – ذكر قارون وبغيه فى الأرض ، ثم خسف الأرض به .

١٤ – ثواب الآخرة للمتقين لا للمفسدين .

١٥ – الإنباء بالغيب عن نصر الله لرسوله ، وفتحه لمكة .

١٦ – بيان أن كل ما فى الوجود هالك ، إلا الله تبارك وتعالى .

★ ★ ★



تفسير سورة العنكبوت

أهــداف ســورة العنـكبــوت

سورة العنكبوت مكية ، نزلت بعد سورة الروم ، وآياتها ٦٩ آية ، وقد نزلت سورة العنكبوت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة قبل الهجرة ، وكانت هذه الفترة من أقسى الفترات ولذلك تعرضت السورة لتثبيت المؤمنين على الإيمان ، وبيان أن هناك ضريبة يدفعها المؤمن ، هى الفتنة والامتحان بالإيذاء أو بالإغراء أو بالوعد أو بالوعيد .

وتناولت قصص الأنبياء السابقين وجهادهم وبلاءهم ، ثم إهلاك الكافرين وانتصار المؤمنين، وسميت سورة العنكبوت بهذا الاسم لتكرر ذكر العنكبوت فيها فى قوله تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . (العنكبوت : ٤١) .

وفى المصحف المطبوع بالقاهرة والمتداول بين الناس نجد فى عنوان السورة : سورة العنكبوت مكية إلا من آية ١ إلى غاية آية ١١ فمدنية .

وقد رجحت اللجنة المشرفة على طبع المصحف الرأى القائل بأن الإحدى عشرة آية الأولى مدنية ، وذلك لذكر الجهاد فيها ، وذكر المنافقين .

وعند التأمل يترجح لدينا أن السورة كلها مكية ، أما تفسير الجهاد فيها فمرجعه أنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة ، أى جهاد النفس لتصبر ولا تفتن ، وهذا واضح فى السياق ، وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس .

ثلاثــة فصـول

الخط الأساسى لسورة العنكبوت هو الحديث عن الإيمان والفتنة ، وعن تكاليف الإيمان الحقة التى تكشف عن معدنه فى النفوس ، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان ، إنما هو الصبر على المكاره والثبات فى المحن .

ومع أن موضوع السورة هو تكاليف الإيمان والثبات فى المحنة .. إلا أنه يمكن أن نقسم سورة العنكبوت إلى ثلاثة عناصر لهذا الموضوع أو ثلاثة فصول :

الفصل الأول : من أول السورة إلى الآية ١٣ .

ويتناول حقيقة الإيمان ، وسنة الابتلاء والفتنة ، ومصير المؤمنين والكافرين ، ثم فردية التبعة فلا يحمل أحد عن أحد شيئا يوم القيامة .

وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ . (العنكبوت : ١٣) .

الفصل الثانى : من الآية ١٤ إلى الآية ٤٥ .

ويتناول قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب ، وإشارة إلى قبيلتى عاد وثمود ، ويصور هذا القصص ما وجد من عقبات وفتن فى طريق كل دعوة ، ويتحدث عن التهوين من شأن هذه العقبات أمام قوة الإيمان والاعتماد على قدرة الله ، والمضى فى تبليغ رسالته وتحمل تبعات هذه الرسالة إحقاقًا للحق وإزهاقًا للباطل . قال تعالى : بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ... (الأنبياء : ١٨) .

الفصل الثالث : من الآية ٤٦ إلى آخر السورة .

ويتناول النهى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى ، ويتناول وحدة الدين والعقيدة والإيمان ، واتحاد ذلك مع الدين الأخير الذى يجحد به الكافرون ويجادل فيه المشركون ، ويختم بالتثبيت والبشرى والطمأنينة للمجاهدين فى الله المهديين إلى سبيله .

ويتخلل السورة من المطلع إلى الختام إيقاعات قوية عميقة حول معنى الإيمان وحقيقته تهز الوجدان هزا ، وتوقفه أمام تكاليف الإيمان وقفة حازمة ، فإما النهوض بها ، وإما النكوص عنها ، وإلا فهو النفاق الذى يفضحه الله .

القصص فى سورة العنكبوت

استغرقت الآيات من(١٤ – ٤٥) فى الحديث عن قصص الأنبياء ، والتعليق عليه ، وبيان العظة والعبرة منه .

وبدأت بالحديث عن نوح عليه السلام ، فقد مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، هى مدة الرسالة وجزء من حياته كان قبل الرسالة ، وجزء منها كان بعد الطوفان وهو عمر مديد ، ولكن نتيجته محدودة فلم يؤمن به إلا قليل من قومه .

ثم ثنى بالحديث عن إبراهيم الخليل صاحب الرسالة الكبرى ، إذ دعا قومه إلى عبادة الله الخالق الرزاق ، ونبذ الأوثان والأصنام ، والتوجه إلى الله الإله الواحد : فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ... (العنكبوت : ٢٤) .

وفى قصة لوط يتبدى تبجح الرذيلة وسفورها بلا حياء ولا تحرج ، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ ، مع الاستهتار بالنذير : فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . (العنكبوت : ٢٩) .

وفى قصة شعيب مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل فاستحقوا عذاب السماء : فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ . (العنكبوت : ٣٧) .

وتذكّر الإشارة إلى عاد وثمود بالاعتزاز بالقوة والبطر بالنعمة ، كما تذكّر الإشارة إلى قارون وفرعون وهامان بطغيان المال واستبداد الحكم والتمرد على أمر الله .

وفى النهاية يلقى الظالم حتفه جزاء ظلمه ، وقد تكرر هذا المعنى فى سور سابقة وتأكد هنا ليستقر فى الأذهان أمام المشركين والظالمين .

قال تعالى : فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت : ٤٠) .

وتعقب السورة على هذا القصص بمثل ضربته لهوان قوى الشرك والظلم ، فالباطل مهما علا لا مستقبل له ، والحق مهما امتحن مستقبله هنيء مريء ، قال تعالى : مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . (العنكبوت : ٤١) .

وينتهى هذا القصص بهوان الشرك وعزة الإيمان ، وبيان قدرة الله الذى يضرب الأمثال ليتعظ بها العقلاء وليفهمها العلماء . قال تعالى : وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ . (العنكبوت : ٤٣) .

الدرس الأخير فى سورة العنكبوت

يستغرق الدرس الأخير فى السورة ربعًا كاملاً من الآية ٤٦ إلى الآية ٦١ . والسورة بدأت بإعلان ثقل تكاليف الإيمان ، وتعرض المؤمنين للبلاء والامتحان ، ثم ذكرت قصص الأنبياء وبلاءهم من عهد نوح .

وفى هذا الدرس الأخير يبين القرآن وحدة الرسالات فى الهدف ، فالرسالات كلها من عهد نوح والرسل من بعده إلى عهد محمد ﷺ دعوة واحدة من عند إله واحد ، ذات هدف واحد هو إصلاح العقيدة وتهذيب السلوك وردّ البشرية الضالة إلى قوانين الله العادلة ، وأن المؤمنين بكل رسالة إخوة للمؤمنين بسائر

الرسالات : كلهم أمة واحدة تعبد إلهًا واحدًا ، وأن البشرية فى جميع أجيالها صنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم حزب الله ، وصنف المشاقين وهم حزب الشيطان .

ولقد ختم الجزء العشرون فى القرآن بآية شهيرة تدعو إلى تلاوة الكتاب وقراءة القرآن وإقامة الصلاة، هى قوله تعالى : ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ . (العنكبوت : ٤٥) .

ويبدأ الجزء الحادى والعشرون بالحديث عن هذا الكتاب ، والعلاقة بينه وبين الكتب السابقة ، ويأمر المسلمين ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، لبيان حكمة مجىء الرسالة الجديدة والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة – إلا الذين ظلموا منهم وبدلوا فى كتبهم وانحرفوا إلى الشرك ، والشرك ظلم عظيم – ودعت الآية المؤمنين أن يعلنوا إيمانهم بالدعوات كلها وبالكتب جميعها ، فهى حق من عند الله يصدق ما معهم من القرآن والإسلام . قال تعالى : وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ . (العنكبوت : ٤٦) .

ثم يحذر القرآن المشركين من استعجالهم بعذاب الله ، ويهددهم بمجيئه بغتة ، ويصور لهم قربه منهم، وإحاطة جهنم بهم ، ويصف حالهم يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ثم يلتفت إلى المؤمنين الذين يتلقون الفتنة والإيذاء فى مكة يحضهم على الهجرة بدينهم إلى الله ليعبدوه وحده ، يلتفت إليهم فى أسلوب عجيب ، يعالج كل هاجسة تخطر فى ضمائرهم ، وكل معوق يقعد بهم ، ويقلب قلوبهم بين أصابع الرحمان فى لمسات تشهد بأن منزل هذا القرآن هو خالق هذه القلوب ، فما يعرف مساربها ومداخلها الخفية إلا خالقها اللطيف الخبير الذى تكفل برزق كل دابة فى كل مكان وزمان ..

وينتقل من هذا التعجب من حال أولئك المشركين ، وهم يتخبطون فى تصوراتهم ، فيُقرّون لله سبحانه بخلق السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض الموات، وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله وحده مخلصين له الدين ، ثم هم بعد ذلك يشركون بالله ويكفرون بكتابه ، ويؤذون رسوله ، ويفتنون المؤمنين به ، ويذكر المشركين بنعمة الله عليهم بهذا الحرم الآمن الذى يعيشون فيه ، والناس من حولهم فى خوف وقلق وهم يفترون على الله الكذب ويشركون به آلهة مفتراة ، ويعدهم على هذا جهنم وفيها مثوى للكافرين .

وتختم السورة بوعد من الله سبحانه بهداية المجاهدين ورعايتهم ، فيقول سبحانه : وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ . (العنكبوت : ٦٩) .

★ ★ ★

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

المفردات :

الفتنة : الامتحان والاختبار ، من قولهم : فَتَن الذهب ، إذا أدخله النار ليختبر جودته .

صدقوا : آمنوا عن عقيدة وإخلاص .

أن يسبقونا : أن يفوتونا ويعجزونا ، فلا يلاقوا جزاء أعمالهم .

ساء ما يحكمون : قبح حكمهم أنهم يهربون منّا .

يرجو : يطمع .

لقاء الله : نيل ثوابه وجزائه .

أجل الله : الوقت المضروب للقائه .

جاهد : بذل جهده فى جهاد حرب أو نفس .

لنفسه : أى : منفعة الجهاد من الأجر عائد على نفسه .

ولنجزينهم أحسن : ولنجزينهم على أعمالهم بأحسن عمل كانوا عملوه .

تمهيد :

كان المسلمون فى مكة يتعرضون لصنوف الأذى وألوان الاضطهاد ، فنزلت سورة العنكبوت تبيِّن أنَّ الابتلاء والاختبار سنّة الله فى خلقه ، وقيل : إن سورة العنكبوت هى آخر ما نزل بمكة .

وفى المصحف المتداول فى البلاد العربية ما يأتى :

(سورة العنكبوت مكية إلا من آية ١ إلى الآية ١١ فمدنية)

وقد اعتمدت المصاحف على بعض الروايات التى ذكرت أن الإحدى عشرة آية الأولى من سورة العنكبوت مدنية وذلك لذكر «الجهاد» فيها وذكر «المنافقين» .

وقد رجح العلماء أن السورة كلها مكية للأسباب الآتية :

١ – الجهاد الذى ورد فى صدر السورة يراد منه الجهاد ضد الفتنة ، أى : جهاد النفس بالصبر والثبات والتحمل ، رجاء ثواب الآخرة .

٢ – ذِكْر النفاق جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس .

٣ – ورد فى سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت فى إسلام سعد بن أبى وقاص ، وإسلام سعد كان فى مكة بلا جدال .

٤ – السورة كلها متماسكة فى خط واحد منذ البدء إلى الختام .

التفسير :

١ – الٓمٓ .

سبق الحديث عن هذه الأحرف فى سورتى البقرة وآل عمران وغيرهما .

والخلاصة أنها حروف للتنبيه والتحدِّى والإعجاز ، كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة .

٢ – أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ .

حين خلق الله آدم عليه السلام استخلفه فى الأرض ، وأعطاه العقل والإرادة والاختيار ، فإن اختار الطاعات فهو من المفلحين ، وإن اختار المعصية فهو من الخاسرين ، وهنا يذكر الله تعالى أنه جعل البلاء ضريبة فى هذه الدنيا ، يمتحن به الناس ، ويُطهر به المؤمنين ، ويختبر به الصادقين ، فتنة لهم وامتحانًا، كما يفتن الذهب الإبريز ، إذْ يوضع فى النار ليخرج منه الخبث .

ومعنى الآية :

أَظَن الناس أن يتركوا بدون اختبار وامتحان ، لمجرد قولهم آمنا ، بدون أن يخوضوا تجربة عملية ، فيها البلاء أو الإيذاء أو التكذيب أو التعرض لألوان من القهر أو الإغراء ، أو أى لون من ألوان الامتحان ؟

وقد تعرض المسلمون فى مكة لصنوف الأذى ، وألوان الاضطهاد ، وتعجلوا الفرج والنصر ، فنزلت هذه الآيات .

جاء فى التسهيل لابن جزى وغيره من المفسرين :

نزلت فى قوم من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين ، كسلمة بن هشام ، وعياش بن ربيعة ، والوليد ابن الوليد ، وعمار بن ياسر ، وأبيه ياسر ، وأمّه سمية ، وغيرهم . ا . هـ .

تعرض هؤلاء للفتنة والعذاب فنزلت هذه الآيات تشد أزرهم ، وتبارك جهادهم ، وتذكرهم بأن ذلك قانون الله ونظامه ، يمتحن المؤمنين سابقًا ولاحقًا .

قال العلماء : والآيات وإن نزلت فى قوم معينين ، إلا أنها باقية فى أمة محمد أبد الدهر .

وقيل : نزلت فى مهجع مولى عمر بن الخطاب ، أول من قُتل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمى بسهم فقتله ، فجزع عليه أبواه وامرأته ، فقال النبى ﷺ : «سيد الشهداء مهجع ، وأوّل من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة»[٥٦] .

٣ – وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ .

لقد اختبرنا الأمم قبلكم ، وكذلك الرسل والأنبياء ، واختبرنا المؤمنين والصالحين فى كل أمة وجيل، وبهذا الاختبار وذلك البلاء يظهر المؤمن الصادق الثابت فى البلاء ، ويظهر الكاذب المرائى ، تلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، فالحياة الدنيا حافلة بأنواع البلاء والامتحان ، ومنه امتحان بالشر والتعذيب والسجن والقهر والإحباط ، وامتحان بالإغراء والمال والجاه والسلطان .

قال تعالى : **وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** . (الأنبياء : ٣٥) .

وقال تعالى : **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ** . (البقرة : ٢١٤) .

وقال تعالى : **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ** ... (التوبة : ١٦) .

وفى الحديث الصحيح : «أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد له فى البلاء»[٥٧] .

قال ابن كثير :

وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ .

أى : الذين صدقوا فى دعوى الإيمان ، ممن هو كاذب فى قوله ودعواه ، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ، وبهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل قوله : **إِلَّا لِنَعْلَمَ** ... إلا لنرى ، وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود . ا . هـ .

إن الله تعالى يعلم أزلا كل شىء ، والله بكل شىء عليم ، لكنه لم يحاسب العباد بمقتضى علمه القديم ، بل اختبرهم وامتحنهم بألوان التكاليف ، وصنوف الاختبار ، ليكون الجزاء فى الآخرة على مقتضى سلوك العبد بالشكر أو بالكفر ، ويكون الجزاء نتيجة للتجربة العملية للإنسان .

أخرج ابن أبى حاتم أن : **الٓمٓ * أَحَسِبَ** ... نزلت فى أناس كانوا بمكة أقرُّوا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب الرسول عليه السلام بالمدينة ، ألا يقبل منهم حتى يهاجروا ، فخرجوا إلى المدينة فردَّهم المشركون.

٤ - أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ .

أظن الكافرون والفاسقون أن يفوتونا ، ويهربوا من حسابنا ، فلا نقدر على مجازاتهم ، بمساوئ أعمالهم ؟ لقد ظنوا كذبًا ، وحكموا فاسدًا .

سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ . بئس الحكم الذى يحكمونه ، وبئس الظن الذى يظنونه .

ونلاحظ أن الحسبان الأول كان من المؤمنين ، وهذا الحسبان من الكافرين .

قال ابن عباس :

يريد سبحانه بالذين يعملون السيئات : الوليد بن المغيرة ، وأبا جهل ، والأسود ، والعاص بن هشام، وشيبة وعتبة ابنى ربيعه ، والوليد بن عتبة ، وعقبة بن أبى معيط ، وحنظلة بن وائل ، وأنظارهم من صناديد قريش . ا . هـ .

ونقول : إن الآية تعمّ جميع من يعمل السيئات ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالآية وعيد للكافرين ، وللعصاة من المؤمنين الذين يجاهرون بالمعصية ، والسلب والنهب والغدر ، والإثم

والعدوان ، ويظنون أنهم سيفوتون من عذاب الله ، أو يرون أمور الآخرة باهتة غائمة ، وينتصرون للدنيا ، أو يبيعون الباقية ويشترون الفانية ، ولا يشبعون من الحرام ولا من انتهاك الحرمات .

«فلا يحسب مفسد أنه مفلت ولا سابق ، فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف ، فخيبة المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لابد أن تجيء»[٥٨] .

٥ - مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

من كان يطمع فى ثواب الله يوم القيامة فليبادر إلى فعل ما ينفعه ، وعمل ما يوصله إلى مرضاته ، وتجنب ما يسخطه .

فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

إن رجاء الله وثوابه حق واقع لا محالة ، وسيوفِّى الله كل عامل عمله كاملا موفورًا ، لأن الله سميع الدعاء ، عليم بكل شىء ، محاسب على الفتيل والقطمير ، والقليل والكثير .

قال تعالى : فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًاْ . (الكهف : ١١٠) .

وقال سبحانه : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

٦ - وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

من جاهد نفسه أو جاهد عدوّه ، وبذل الجهد فى سبيل الجهاد ، فإن ثوابه وجزاءه عائد على نفسه ، فليستمر فى الجهاد ولا ييأس ، وليثق فى ثواب الله وفضله ، وليثق فى أن ثواب عمله عائد عليه ، فمن بذل نفسه فى سبيل الله ، فسينال الشهادة والجنة والدرجات العلا ، ومن جاهد نفسه وصرفها عن المعاصى ، وحملها على الطاعات ؛ فنفع ذلك عائد عليه ، لأن الله غنى عن عباده ، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم .

إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

فهو سبحانه غنى عن جميع خلقه ، له الملك وله الأمر يفعل ما يشاء .

ونحو الآية قوله تعالى : مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ... (فصلت : ٤٦) .

وقوله تعالى : إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ... (الإسراء : ٧) .

وقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ . (فاطر : ١٥) .

٧ - ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وصبروا على تكاليف الجهاد ، وأدّوا الفرائض واجتنبوا المحرمات ، هؤلاء لهم جزاء عظيم ، من تكفير السيئات ، ومغفرة الذنوب ، ومكافأتهم على الحسنات بما هو أحسن وأفضل ، حيث تضاعف الحسنة إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وهؤلاء إن فاتهم الجزاء فى الأرض فلن يفوتهم عند الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . (النساء : ٤٠) .

★ ★ ★

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ (٩) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ (١١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾

المفردات :

وصينا : أمرنا .

حسنا : برّهما وعدم عقوقهما .

جاهداك : بذلا الجهد فى حملك على الشرك .

مرجعكم : عودتكم بعد الموت .

أنبئكم : أخبركم .

الصالحين : المؤمنين ، أو ندخلهم الجنة .

أوذى فى الله : عُذب من الكافرين بسبب إسلامه .

فتنة الناس : أذاهم له .

كعذاب الله : أى : فى الخوف منه ، فيطيعهم فينافق .

إنا كنا معكم : كنا مشايعين ومناصرين لكم فى الدِّين .

اتبعوا سبيلنا : أى : ديننا وما نحن عليه .

خطاياكم : أوزاركم وسيئاتكم .

أثقالهم : خطاياهم وذنوبهم الفادحة .

يفترون : يختلقون فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل .

التفسير :

٨ - وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى : أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه ، والبّر بهما ، وعدم العقوق لهما ، والتلطف فى القول معهما ، والتواضع لهما ، وإذا هفا هفوة ، أو أخطأ فى حقهما ، فينبغى أن يعتذر لهما ويطلب الصفح منهما .

وطاعة الوالدين مشروطة بأن تكون مقترنة بطاعة الله ، إنما السمع والطاعة فى المعروف ، فإذا بذل الأب أو الأم جهده فى حمل الابن على الشرك والكفر بالله ؛ فلا طاعة لهما ، ومع ذلك يجب عليه أن يبرّ بهما ، ويتلطف فى معاملتهما ، مع المحافظة على دينه وإيمانه ، واليقين بأن الجزاء الأوفى سيكون فى الآخرة ، فتهون الدنيا بما فيها من صعاب ، وهناك جزاء عادل من الله تعالى فى الآخرة .

من هدى السُّنة

روى الترمذى أن الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وأمّه حمنة بنت أبى سفيان ، لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان بارًّا بأمه ، قالت له : ما هذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه ، أو أموت فتعيرّ بذلك أبد الدهر ، يقال : يا قاتل أمّه ، ثم إنها مكثت يومًا وليلة ، لم

تأكل ولم تشرب ولم تستظل ، فأصبحت وقد جهدت ، ثم مكثت يومًا آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال : يا أمَّاه ، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ، ما تركت دينى ، فكلى إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلى . فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية ، آمرًا بالبر بالوالدين ، والإحسان إليهما، وعدم طاعتهما فى الشرك به[٥٩] .

وجاء فى الإصابة ٤/ ١٦٠ رقم ٣١٨٧ فى ترجمة سعد بن أبى وقاص أن اسم أمه : حمنة بنت سفيان ابن أمية ، بنت عم أبى سفيان بن حرب .

وقيل : نزلت الآية فى عيَّاش بن أبى ربيعة ، وقد فعلت أمّه مثل هذا الفعل ، ويجوز أن الحادثة تكررت، عند سعد بن أبى وقاص مع أمه ، وعند عيَّاش بن أبى ربيعة مع أمّه ، فنزلت الآية فى شأن كل منهما ، والعلماء يقولون : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى لجميع الأمة .

٩ - وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ .

الذين آمنوا بالله تعالى ربا وقاموا بالأعمال الصالحة ، من صلاة وصيام وزكاة وحج ، وتلاوة القرآن وفعل الصالحات وترك المنكرات ، هؤلاء ينزلون منازل الصالحين ، الذين يدخلهم الله فسيح الجنة ، ويسكنهم الدرجات العالية ، وقد بارك القرآن الصلاح ، وجعل العبد الصالح قدر الله فى الأرض ، فالخضر نموذج للعبد الصالح الذى آتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه علمًا من لدنه ، وأفاض عليه من بركته ، وعونه وتوفيقه .

وسليمان عليه السلام يقول : رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ . (النمل : ١٩) .

وقال تعالى فى شأن إبراهيم عليه السلام : وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ . (النحل : ١٢٢) .

والملائكة تستغفر للمؤمنين وتدعو للصالحين ، كما ورد فى الآية الثامنة من سورة غافر[٦٠] .

والصلاح هو منتهى درجات المؤمنين ، وغاية ما امتدح الله به الأنبياء والمرسلين .

١٠ - وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

ترسم الآية نموذجًا لفئة من الناس تعلن الإيمان ، وتظن أن الإيمان كلمة تقال باللسان ، لايتبعها تضحية أو صبر أو فداء ، فإذا لقى فى سبيل الإيمان عذابًا أو نكاية أو سجنًا ارتد عن دينه ، زاعما أن عذاب

الناس فى الدنيا مثل عذاب الله فى الآخرة ، وشتان ما بينهما ، فعذاب الناس امتحان من نجح فيه كان جزاؤه الجنة ، وعذاب الله فى الآخرة عقوبة أبدية خالدة ، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة ، تطيب النفس لها ولا تعدها عذابًا .

قال الزجاج : ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذى فى الله .

أخرج أحمد ، والترمذى ، وابن ماجة ، عن أنس قال : قال ﷺ : «لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، ولقد أُخِفْت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت علىّ ثالثة ، ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد ، إلا ما وارى إبط بلال»[١١] .

أسباب النزول

قيل : نزلت فى المنافقين .

وقال مجاهد : نزلت فى أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم؛ فإذا أصابهم بلاء من الله ومصيبة فى أنفسهم افتتنوا.

وقال الضحاك : نزلت فى أناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك .

وقيل : نزلت فى عياش بن أبى ربيعة أسلم وهاجر ، ثم أوذى وضرب فارتد ، وقدم إلى المدينة أبو جهل والحارث ، وكانا أخوين لأمّه ، فأخذاه وعذباه فارتد ، ثم عاش بعد ذلك بدهرٍ وحسن إسلامه .

والآية دعوة إلى الثبات على الإيمان وتحمل الأذى فى سبيل الله ، وفيها ذم للنفاق ، وذم للارتداد عن الإسلام .

وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

تعبر الآية عن انتهازية المنافقين ونفعيتهم، فهم يفرّون من البأساء ويتواجدون عند الغنيمة والنصر، هم عند التعرض للعذاب والآلام يفرّون ولايثبتون ، فإذا جاء نصر من الله للمؤمنين أعلنوا عن أنفسهم ، وقالوا : إنا كنا معكم فى الحرب ، نشد أزركم ونناصركم ، ونستحق أن ننال من الغنائم ، والله تعالى مطلع وشاهد على ما تكنه ضمائرهم من الإيمان والنفاق ، فهو سبحانه لا تخفى عليه خافية ، وهم عالم السر وما هو أخفى من السر .

١١ - وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ .

إن الله تعالى مطلع وشاهد وعالم بالذين آمنوا وصدّقوا ، وبالذين نافقوا وتلوّنوا، وسيجازى المؤمنين بحسن الجزاء ، وسيعاقب المنافقين .

وفى معنى ما سبق يقول الله تعالى : ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... (النساء : ١٤١) .

وقال سبحانه وتعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ . (محمد : ٣١) .

١٢ - وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ .

قال الكفار فى مكة لمن آمن من أهلهم وقرابتهم : اتبعوا ديننا واثبتوا عليه ، وانصرفوا عن كلام محمد ودعوته ، فإنه لا بعث ولا حشر ولا حساب ، وإذا فرض أن هناك بعثًا وحسابًا ، فذنوبكم فى رقبتنا نتحملها عنكم ، ظنا من الكافرين أن العائلة تحمى أفرادها ، كما يخطئ قاتل فتتحمل العائلة الدية معه ، فكذلك فى الآخرة يتحملون خطايا أقاربهم ، إذا تركوا الإسلام وانضموا إلى الكافرين .

وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ...

فذلك يوم يتحمّل فيه كل فرد مسئولية عمله وحده ، قال تعالى : كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . (الطور : ٢١).

وقال عز شأنه : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... (الأنعام : ١٦٤). أى : لا تحمل نفس مذنبة وزر نفس أخرى .

وقال تعالى : وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ... (فاطر : ١٨) .

إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ .

تأكيد لما سبق وتكذيب لهؤلاء الكافرين الذين يغررون بالناس ، ويدّعون حمل أثقالهم عنهم .

١٣ - وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ .

سيحمل دعاة الكفر ذنوبهم التى تثقل ظهورهم ، وسيحملون نصيبا آخر من الأثقال ، مماثلا لأوزار من أضلّوهم عن الهدى ، وزينوا لهم الكفر ، وسيساءلون عن سلوكهم وكذبهم وزعامتهم للشرك وإضلال من خلفهم.

كما قال تعالى : لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ... (النحل : ٢٥) .

وكما جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه ابن ماجة فى السنن ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من

أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا»[٦٢] .

وفى الصحيح أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : «ما قُتلت نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أوّل من سنّ القتل»[٦٣] .

وأخرج مسلم وغيره ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من وزره شيء»[٦٤] .

★ ★ ★

قصة نوح عليه السلام

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

تمهيد :

ذكر الله تعالى فى صدر سورة العنكبوت الاختبار والابتلاء لعباده ، ثم ذكر قصص عدد من الأنبياء ، منهم نوح وإبراهيم ولوط ، وهود وشعيب وصالح ، وذلك لبيان عاقبة المكذبين ، ولتسلية النبى ﷺ عما يلاقيه من كفار قومه .

التفسير :

١٤ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ .

أى : والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ، ونبذ عبادة الأصنام ، ونوح عليه السلام أطول الأنبياء عمرًا ، وتعددت الآراء فى عمر نوح عليه السلام ، وأورد القرطبى فى تفسيره آراء كثيرة فى عمر نوح ، ومن أشهر الآراء : أن نوحًا عليه السلام بُعث بالرسالة وعمره أربعون سنة ، ثم مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، فيكون عمره كلّه ألف سنة وخمسين سنة.

ويرى صاحب الظلال : أن طول العمر سببه قلة عدد البشر ، فعوضهم الله بطول أعمارهم ليستمر استعمارهم الأرض وإعمارها . ا هـ .

وقد لوّن نوح فى دعوة قومه إلى توحيد الله ، ودعاهم سرًا وجهرًا ، وقدم لهم طائفة من الأدلة على التوحيد ، مثل ما ورد فى قوله تعالى : فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا * مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا * وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا* ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا . (نوح : ١٠ – ٢٠).

ولما طالت مدة نوح مع قومه ، واستمر تكذيبهم لرسالته ، دعا على قومه .

فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ .

أرسل الله المطر من السماء ، وفجر سبحانه عيون الأرض ، فالتقى ماء السماء وماء الأرض ، بتقدير الله تعالى ، وأمر الله نوحا أن يصنع سفينة ، فكانت وسيلة النجاة له ولقومه .

قال تعالى : حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَىٰـهَا وَمُرْسَىٰـهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . (هود : ٤٠ ، ٤١).

وقد ذكرت قصة نوح فى القرآن الكريم فى ثلاثة وأربعين موضعا ، وجاءت قصته مع قومه بصورة فيها شيء من التفصيل فى سور الأعراف وهود والمؤمنون ونوح ، وينتهى نسب نوح إلى شيث بن آدم عليه السلام.

١٥ – فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ .

نجى الله نوحا والمؤمنين معه ، وكانوا قرابة الثمانين نسمة ، بعضهم من الذكور ، وبعضهم من الإناث ، وسارت السفينة فى البحر بإذن الله ، وأغرق الله الكافرين ونجّى المؤمنين ، ثم رست السفينة على جبل الجودىّ ، وتركها الله عليه مدة طويلة ، لتكون عظة وعبرة للناس ، حتى لا يعصوا رسل الله ، ولا يشركوا بالله شيئا .

من كلام المفسرين

ذكر المفسرون أن زوجة نوح وابنه كنعان هلكا مع الكافرين ، ونجى الله نوحًا والمؤمنين ،كما نجى أولاده الثلاثة وهم : سام ، وهو أبو العرب وفارس والروم وهم الجنس السامى . وحام ، وهو أبو القبط والسودان والبربر ، ويافث ، وهو أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج[٦٥] .

من هدى السُّنة

أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم – وصححه – عن ابن عباس قال : بعث الله تعالى نوحا عليه السلام وهو ابن أربعين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، يدعوهم إلى الله تعالى ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، حتى كثر الناس وفشوا .

★ ★ ★

قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾

المفردات :

اتقوه : اتقوا أن تشركوا به شيئا .

أوثانا : أصنامًا مصنوعة .

إفكا : كذبًا .

فابتغوا : فاطلبوا .

المبين : الواضح البيِّن فى نفسه ، المبيِّن لغيره ، الموضح له .

أولم يروا : المراد من الرؤية هنا العلم ، أى : أو لم يعلموا علما يشبه المشاهدة بالبصر .

يبدئ الخلق : يوجده ابتداء على غير مثال سابق .

يعيده : يحييه بعد موته وتحلل أجزائه ، بل وتلاشيها .

إن ذلك : الخلق الأول ، والثانى : هو الإعادة .

على الله يسير : سهل لا صعوبة فيه .

تقلبون : تردُّون أو ترجعون ، فيحاسبكم على أعمالكم ، الحسنة منها والسيئة .

بمعجزين : بفائتين ولا هاربين من عذاب الله .

ولى : معين وناصر يمنعكم من العذاب .

يئسوا : انقطع رجاؤهم وقنطوا .

رحمتى : جنتى .

تمهيد :

ذكر الله قصة نوح فيما سبق ، وذكر هنا قصة إبراهيم مع قومه كنموذج لتحمل البلاء .

قال تعالى : ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ...﴾ (الأحقاف : ٣٥) .

التفسير :

١٦ - ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

واذكر أيها الرسول لقومك قصة إبراهيم حين قال لقومه : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، وراقبوه وخافوا عقابه ، فإنه هو الإله الواحد الأحد الذى لا شريك له ، ذلك التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان ، خير لكم فى دنياكم وآخرتكم ، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . ذلك فاعبدوا الله وحده ، واتركوا عبادة ما سواه ، أو إن كنتم من أهل العلم بوجه من الوجوه ، تبين لكم أن الخير كله فى عبادة الله وحده لا شريك له .

١٧ - إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

كان قوم إبراهيم يصنعون تماثيل بأيديهم ، ثم يعبدونها من دون الله ، فقال لهم إبراهيم : إنكم انصرفتم عن عبادة الله ، وهو الإله الحق ، واتجهتم بعبادتكم إلى الأوثان والأصنام ، وأنتم صنعتموها بأيديكم كذبًا وزورا ، لأن عبادتها وتأليهها كذب وزور وافتراء .

إن هذه الأصنام والأوثان التى تعبدونها لا تنفع ولا تضر ، ولا تملك لكم رزقًا ولا نفعًا ولا لنفسها ، فاعبدوا الله وحده ، والتمسوا الرزق بعبادته وشكره ، وإليه مرجعكم ومصيركم يوم القيامة ، فيجازيكم بأعمالكم : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

١٨ - وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ .

هذه الآية وما بعدها يحتمل أن تكون من كلام إبراهيم لقومه ، ويحتمل أن تكون توجيهًا من الله لنبيه محمد ﷺ ، ليقول هذا القول لأمته ، فهو كلام مقحم بين أول قصة إبراهيم وآخرها، وسواء أكان هذا أم ذاك فإن معناه ما يأتى : وإن تكذبونى وتجحدوا رسالتى فلا ضرر علىّ من ذلك ، إنما الضرر عليكم أنتم ، فقد كذب قوم نوح نوحًا ، وكذب أقوام الرسل من بعده ، فأهلك الله المكذبين ، والرسول ليس ملزمًا بهداية قومه، فإن الهدى هدى الله ، وليس على الرسول إلا البلاغ الواضح ، وتقديم الدليل والحجة والبرهان فى أسلوب مقنع ، يحرّك النفوس إلى الإيمان ، ويدعوها إلى النظر والمشاهدة والتأمل ، والتفكير فى هذا الكون الكبير.

١٩ - أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ .

أولم يشاهدوا دلائل القدرة الإلهية ، حيث خلق الله الكون على غير مثال سابق ، فرفع السماء وبسط الأرض ، وسخر الرياح والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والمطر والنبات ، وأبدع نظام الحياة ، ثم خلق الإنسان والحيوان والطير ، والملائكة والجن وسائر المخلوقات ، وهذه المخلوقات يدركها الموت والفناء، ثم يعيدها الله بالبعث والحشر والحساب والجزاء ، وذلك كله هين يسير على الله ، لأن الله على كل شىء قدير ، بل ليس عليه هيّن وأهون ، وإنما ضرب ذلك مثلاً لتقريب الأمر إلى نفوسنا ، قال تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (الروم : ٢٧) .

وقال عز وجل : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس ٨٢، ٨٣) .

٢٠ - قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

قل يا محمد لقومك ، أو قل يا إبراهيم لقومك : سيروا في الأرض متأملين في السماء وأبراجها ، وشموسها وأقمارها ، والأرض وسهولها وجبالها ، ووديانها وبحورها ، والهواء والفضاء ، وآثار السابقين . وهلاك المكذبين ، وهذا السير يشمل السير بالأبدان ، والتأمل في المخلوقات ، والقرون البائدة ، وتطور الخليقة ، وأصناف النباتات والجبال ، وغير ذلك من المشاهد ، ويشمل السير بالفكر والنظر ، والتأمل في هذا الكون الذي أوجده الله بعد عدم ، وهو دليل على أن له موجدًا نظمه وأبدعه وخلقه على غير مثال سابق، ومن خلق هذا الخلق ، يميتهم ويفنيهم ، ثم يعيدهم للحساب والجزاء .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ... (الأنبياء : ١٠٤) . والبدء والإعادة هين يسير على الله ، فهو على كل شيء قدير .

قال القرطبي :

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ... أي : قل لهم يا محمد : سيروا في الأرض . فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ... على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية ، وديارهم وآثارهم ، كيف أهلكهم ، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله . ا هـ .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (فصلت : ٥٣) .

٢١ - يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ .

لقد خلق الله الإنسان بقدرته ، ومنحه العقل والإرادة والاختيار ، وأرسل الله الرسل وأنزل الكتب لتوجيه الإنسان وإرشاده ، ومساعدته على الإيمان والتأمل والاعتبار ، والله تعالى يعذِّب من يشاء من الكافرين بعدله، ويرحم من يشاء من المؤمنين بفضله ، وإذا أمهلكم في الدنيا ، فلا تظنوا أنكم أفلتم من المساءلة ، فسترجعون إليه في الآخرة ، فيحاسبكم ويجازي كل إنسان بما عمل .

وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ . ترجعون وتردُّون .

٢٢ - وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

أي : ما أنتم أيها الناس على كثرتكم ، واختلاف أحوالكم ، بفائتين من حساب الله وجزائه ، بالتواري في الأرض الفسيحة ، أو التخفي في مناكبها ، ولا بالتحصن بالسماء التي هي أمنع من الأرض ، إن استطعتم

الوصول إليها ، فالله تعالى لا يعجزه أحد من أهل سماواته ولا أرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، فما لكم من مهرب منه ولا ملجأ .

وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

إذا أراد عذابكم وجزاءكم فليس لكم أيها الناس من ولى يلى أموركم ، ويحرسكم من أن يصيبكم بلاء أرضى أو سماوى ، ولا نصير يدفع عذاب الله عنكم .

٢٣ – وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

والذين جحدوا آيات الله ، ودلائل وحدانيته ، وما أنزله على رسله من الدلائل والبراهين والعظات والعبر، وكفروا بالميعاد ولقاء الله ؛ هؤلاء لا أمل لهم فى رحمة الله بسبب كفرهم ، ولهم عذاب مؤلم شديد موجع .

قال تعالى : إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ . (يوسف : ٨٧) .

★ ★ ★

جواب قوم إبراهيم

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات:

أوثانا: أصناما تعبدونها من دون الله.

مودة بينكم: سببا فى تواصلكم واجتماعكم على عبادتها.

مـــــأواكـــــم: منزلكم الذى تأوون إليه خالدين فيه أبدا.

آمـــن لـــه لوط: أى: آمن بإبراهيم وأسلم له قياده.

مهـــاجـــــر: الهجرة: مفارقة بلد إلى آخر، فإن كانت قرية إلى الله فهى الهجرة الشرعية.

وهـــبنــــا: مننا وأعطينا.

إسحــــاق: ابنه الأكبر، ويعقوب حفيده وابن إسحاق.

أجـــر الدنيــا: الرزق الواسع الهنىء، والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن.

التفسير:

٢٤ - فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

قدّم إبراهيم إلى قومه عددًا من الأدلة على وجود الله، وحثّهم على السير فى الأرض والتأمل فيها، والاعتبار بمن سبقهم من الأمم، فبماذا أجابوه ؟

ما كان جوابهم مقارعة للحجة بالحجة، ولا مقابلة للبرهان بالبرهان، بل قالوا: اقتلوه بأداة قتل، أو حرّقوه بالنار حتى تستريحوا منه، وفعلاً استقرَّ رأيهم على تحريقه بالنار، فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًا، ولم يستطيعوا الاقتراب من النار، فاهتدوا إلى المنجنيق ليقذفوه فى النار من بعيد، لكن الله تعالى جعل النار بردًا وسلاما عليه، فلم تحرق سوى الحبل الذى أوثق به، وجعل الله ذلك آية على قدرته، ودليلا على صدق إبراهيم، ومعجزة له، حتى يؤمن برسالته من شارف الإيمان قلبه، وقد ذكرت هذه المعانى فى سور عديدة من القرآن الكريم.

قال تعالى: قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ . (الأنبياء: ٦٨ - ٧٠).

وقال سبحانه وتعالى: قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ .
(الصافات: ٩٧، ٩٨)

٢٥ - وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ .

قال إبراهيم لقومه: إنكم عبدتم الأصنام والأوثان، لا عن عقيدة واقتناع بعبادتها، لكن مجاملة من بعضكم لبعض، وتعصبا ومودة وتآلفا لنصرة الأصنام، وهذه المودة الزّائفة تنقلب يوم القيامة إلى عداوة، حيث يكفر بعضكم ببعض، ويتبرأ بعضكم من بعض، ويلعن بعضكم بعضا، ومأواكم ومسكنكم جميعا النار، هى مآلكم ومصيركم، وليس لكم من دون الله من ناصرين يخلصونكم من عذابها.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى:

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ . (البقرة: ١٦٦)

ويقول سبحانه وتعالى:

الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ. (الزخرف: ٦٧)

٢٦ – فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

لقد خرج إبراهيم من النار سليما معافى، وكانت هذه معجزة باهرة تستدعى إيمان الكثيرين بإبراهيم عليه السلام، بيد أنه لم يؤمن بإبراهيم إلا لوط عليه السلام، ابن أخى إبراهيم، وسارة زوجته، وكان إبراهيم فى سن الخامسة والسبعين، فعزم على الهجرة بعد أن وجد القوم فى العراق محجمين عن الإيمان، مصممين على الكفر، وانتقل إبراهيم من قرية كُوثى «بضم الكاف»، وهى قرية من سواد الكوفة بأرض العراق، إلى حرَّان ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه، لوط بن هاران بن تارح، وامرأته سارة.

ثم أُرسل لوط فى حياة إبراهيم عليه السلام، إلى أهل سدوم وإقليمها، قرب البحر الميت، أو بحيرة لوط كما سميت بعد ذلك.

وجمهور المفسرين على أن إبراهيم هو الذى قال: إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . أى: آمن لوط بإبراهيم، وبأنّه رسول من عند الله تعالى كما آمنت به زوجته سارة، ولما رأى إبراهيم قلة المؤمنين به أعلن هجرته من العراق إلى الشام، وقال: إنى مهاجر لتنفيذ أمر ربى، ولنشر دعوته فى أماكن أخرى تجد آذانًا صاغية ومؤمنين بها، إنه هو. الْعَزِيزُ. الغالب الذى نجَّانى من النار، الْحَكِيمُ. الذى اختار لى الهجرة، وهو الحكيم فى كل أفعاله.

وقال صاحب الظلال:

معنى الآية: فآمن لوط بإبراهيم ورسالته، وقال لوط: إنى مهاجر إلى ربى ابتغاء مرضاته فهى هجرة فى سبيله، وهو سبحانه الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . أى: الغالب القادر الحكيم فى أوامره (٦٦).

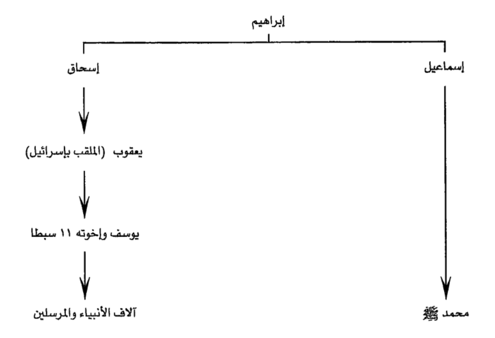
٢٧– وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

رزق الله إبراهيم بعد هجرته إلى الشام من زوجته سارة – وهى عجوز عقيم – بولده إسحاق، وكانت هبة عظيمة، حيث رزق به بعد أن أيس من الولد، وقالت زوجته حين بشرتها الملائكة بذلك: أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ .

(هود: ٧٢ ، ٧٣)

وبعد أن رزق الله إبراهيم ابنه إسحاق، رزق الله إسحاق ولده يعقوب الملقب بإسرائيل، وقد نشأ فى حجر إبراهيم فنسب إليه، وهو حفيده، ومن نسل إبراهيم كان جميع الأنبياء، فقد رزق بإسماعيل من زوجة شابة، هى هاجر، ولم يكن من نسل إسماعيل نبىّ سوى محمد ﷺ.

أما إسحاق فقد أنجب يعقوب ورزق يعقوب بالأسباط، أى: الأحفاد، أحفاد إبراهيم، وكانوا اثنى عشر سبطا، من بينهم يوسف الذى رأى فى منامه أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا يسجدون له، وتأويل ذلك أن أباه وأمّه وإخوته، سيسجدون له سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة، ومن نسل الأسباط كان آلاف الأنبياء من بنى إسرائيل مثل: داود صاحب الزبور، وموسى صاحب التوراة، وعيسى صاحب الإنجيل، وهذا رسم توضيحى :



وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ...

جعلنا فى ذرية إبراهيم النبوة والرسالة، والكتاب، أى: جنس الكتب السماوية، فمن نسل إسماعيل رسول واحد هو محمد ﷺ، ومن نسل إسحاق يعقوب، ومن نسله الأسباط (الأحفاد) وهم أحفاد إبراهيم، ومن نسلهم آلاف الأنبياء والمرسلين.

ورزق إبراهيم أجره فى الدنيا، بالثناء الحسن والذكر الجميل، قال تعالى: وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ. (النجم: ٣٧).

حيث وفق الله إبراهيم إلى الوفاء فى جميع ما كلّف به، من محاربة الشرك وإعلاء التوحيد، والطاعة له وحده، والاستجابة لما أمر به من ذبح ولده، والصلاة على إبراهيم إلى آخر الدهر.

وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

أى: جمع الله له استحقاق الأجر والفوز، وكثرة العطاء فى الدنيا، والفوز فى الآخرة بالدرجات العلى والحسنى وزيادة، لأنه من الصالحين الأتقياء، ودرجة الصلاح درجة سامية هى وسام للأنبياء الصالحين.

كما يحشر إبراهيم يوم القيامة فى زمرة الكاملين فى الصلاح، الذين لهم الدرجات العلى، وقصارى أمره، أنه سبحانه جمع له بين سعادة الدارين، وآتاه الحسنى فى الحياتين.

★ ★ ★

قصة لوط عليه السلام

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات:

الفاحشة: الفعلة القبيحة التى تنفر منها النفوس الكريمة.

السبيل: الطريق «وكلتاهما تذكر وتؤنث»، وكانوا يتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ الأموال.

تأتون: تقترفون.

المنكر: الأمر القبيح الذى ينكره الدين والخلق، كاللواط وأنواع الفحش.

المفسدين: العاصين بإتيان الرجال، أو بابتداع الفاحشة، فاستجاب الله دعاءه.

تمهيد:

بعد قصة إبراهيم عليه السلام، تأتى قصة لوط، إذ كان لوط معاصرًا له، وهو ابن أخيه على الراجح، أو ابن أخته، وقد افتنَّ قوم لوط فى فعلة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، ولأن الملائكة الذين أنزلوا بقرية سدوم العذاب، جاءوا ضيوفا لإبراهيم عليه السلام، فقد أخبروه أنهم فى طريقهم إلى قرية سدوم لإهلاك أهلها المفسدين.

التفسير:

٢٨ - ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

أى: واذكر لوطا حين قال لقومه أهل سدوم، وكان لوط قد أقام بهذه القرية، بعد أن هاجر إلى ربّه مع إبراهيم، على ضفاف البحر الميت أو بحيرة لوط كما سميت فيما بعد، وصار لوط من أهل سدوم بالصهر والمعيشة (٦٧)، قال لهم:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ...﴾

أى: ترتكبون المنكر، وتفعلون أمرًا فاحشا ابتدعتموه، ولم يسبقكم إليه أحد من البشر.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

فهو أمر مخالف للفطرة، مناف للطبيعة البشرية، حيث خلق الله الذكر والأنثى، وجعل فى كل منهما ميلا للآخر لقضاء وطره وإمتاع نفسه، وإمتاع الطرف الآخر، والاستمتاع بلذة مشتركة بين الرجال والنساء، يتم على آثارها الحمل والولادة وإثراء الحياة.

أما جماع الرجل للرجل، فهو شذوذ وانتكاس للفطرة، وخروج على سنة الحياة، حيث يستغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ويترتب على ذلك أمراض وعلل، وانقطاع للنسل، وآفات جنسية وصحية.

٢٩ - ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

أى: إنكم تجامعون الرجال جماع شهوة، فبدلا من أن يجامع الرجل زوجته فى قُبلها، كما هو شأن المتعة بين الذكر والأنثى، فإنه يجامع رجلا مثله فى دبره، فهى فاحشة وشذوذ، وانتكاس بالفطرة، وخروج على ما رسمه الله، وفساد فى التركيب النفسى والتركيب العضوى سواء بسواء.

﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ...﴾

تقفون فى الطرقات تقتلون المارة، وتأخذون أموالهم، أو تفعلون بهم الفاحشة كرها، وهى خطوة أبعد فى الفاحشة من الأولى.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ...﴾

يفعلون اللواط فى مكان اجتماعهم العام، لا يخجل بعضهم من بعض، حيث يفعلون الأفعال المشينة، ومنها حلّ الإزار، والسباب والفحش فى المزاح، والسلوك الماجن المستهتر بكل القيم.

ونلحظ أن لوطا عرض عليهم أفعالهم، مترقيا معهم من سيئ إلى أسوأ، ووضع فسادهم أمام أعينهم، فقالوا للوط:

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

كان الأولى بهم أن يهتدوا ويخجلوا، ويكفُّوا عن اللواط والعدوان على الآخرين، وممارسة الشذوذ أمام أعين الآخرين.

لكنهم لم يرعووا، ورفضوا النصح، فهددهم لوط بعذاب الله وانتقامه، فقالوا مستهزئين به، مستهينين بأمر العذاب، مكذبين له فى هذا الوعيد:

ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . أى: فى وعيدك.

قال صاحب الظلال:

والقصة هنا مختصرة، وظاهر أن لوطًا أمرهم ونهاهم بالحسنى، وأنهم أصرُّوا على ما هم فيه، فخوفهم عذاب الله. أ هـ.

وقد استهانوا بالعذاب، وكذبوا رسولهم، وتحدَّوه أن يأتيهم بهذا العذاب إن كان صادقًا.

٣٠- قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ .

حار لوط مع قومه، فقد نصحهم وبين لهم قبح فعالهم، وتكرر نصحه لهم، وفى آيات مرشدة قال لهم:

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ . (الشعراء: ١٦٥، ١٦٦)

وقال عز شأنه:

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ . (الأعراف: ٨٠ - ٨٤)

ويذكر الآلوسى فى تفسيره المعانى الآتية:

تعددت نصائح لوط لقومه، ففى مرحلة من مراحل إرشاد لوط لقومه وابتداء نصحه لهم، قالوا له:

ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . (العنكبوت: ٢٩)

ولما تكرر وعظه لهم، وتوبيخه وتحذيره، واستمر لوط يحذّر وينذر، قرروا إخراجه من سدوم، وطرده هو ومن اتبعه من المؤمنين.

وبذلك نجمع بين ما ورد هنا فى سورة العنكبوت، بأنهم طلبوا نزول العذاب بهم، وما ورد فى سورة الأعراف من قرار إخراج لوط وأتباعه من القرية.

قال تعالى: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ... (النمل: ٥٦).

وقال سبحانه: وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ... (الأعراف: ٨٢).

ونلحظ أن لوطا ضاق بقومه وفسادهم، وعدوانهم وتفاقم شرهم، فمدّ يده إلى ربه داعيًا متضرعا:

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ .

لأنهم فسدوا وأفسدوا، والله لا يحب المفسدين.

★ ★ ★

حضور الملائكة

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) ﴾

المفردات:

بالبشرى: بالبشارة بالولد.

هذه القرية: هى سدوم.

الغابرين: الباقين فى العذاب.

سىء بهم: اعترته المساءة والغم، خوفا عليهم من قومه.

ضاق بهم ذرعا: عجز عن تدبير شئونهم، يقال: طال ذرعه وذراعه على الشىء، إذا كان قادرًا عليه، وضده: ضاق ذرعه، لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصيرها.

رجزا: عذابا من السماء يزعجهم، يقال: ارتجز فلان وارتجس، أى: اضطرب.

آية بينة: هى آثار القرية الخربة التى تدلّ على قصتها العجيبة.

لقوم يعقلون: يستعملون عقولهم فى الاعتبار والاستبصار.

تمهيد:

الملائكة رسل الله، وصلت إلى إبراهيم الخليل، تحمل البشرى له بميلاد إسحاق ويعقوب الذى يولد لإسحاق، ثم قالوا له: إنَّا مهلكو أهل قرية سدوم؛ لتمادى أهلها فى الشر، وأشفق إبراهيم على لوط، فطمأنته الملائكة بنجاة لوط ومن آمن به، وإهلاك القرية بالزلازل البركانية، وإرسال الصواعق والأمطار المهلكة عقوبة عادلة لهم.

التفسير:

٣١- وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ .

أرسل الله الملائكة إلى إبراهيم الخليل بالبشارة السارة، وهى أن تحمل امرأته سارة فى غلام يسمّى إسحاق، وببشارة أخرى هى أن إسحاق سيبلغ مبلغ الرجال ويتزوج وينجب ولدًا يسمّى يعقوب.

قال تعالى: وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (هود: ٧١ - ٧٣).

ثم أخبرت الملائكة إبراهيم بأن الله تعالى أرسلهم أيضا لإهلاك قوم لوط جزاء فسوقهم وعدوانهم، ونكاح الذكور وترك الإناث.

٣٢- قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

تفيد الآية رقة قلب إبراهيم وإشفاقه أن يصيب العذاب لوطا ومن آمن به، فقال إبراهيم للملائكة: إن قرية سدوم فيها لوط ومن آمن به، وهم أهل إيمان وصلاح، ولم يشتركوا فى الفساد والظلم، قالت الملائكة: نحن أكثر علما بلوط، وأكثر حرصا على نجاته، ونجاة من آمن به.

لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

أقسموا وأكدوا نجاة لوط وأهله المؤمنين، لكن امرأته الكافرة ستترك مع القرية لتنال العذاب معهم، فقد كانت تعاون أهل القرية وتساعدهم، وتتمنى لهم النجاح فى ارتكاب الفاحشة مع أضياف لوط.

٣٣- وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

وصلت الملائكة إلى قرية لوط فى صورة شبان حسان الوجوه، وقد اغتم لوط واعترته المساءة، خوفا على ضيوفه من قومه الذى يرتكبون الفاحشة قسرًا مع الضيوف، وتمنى لوط لو كانت معه قوة أو عصبة من الرجال، تحميه وتحمى أضيافه، وتأسَّف لوط لضيق يده وعدم قدرته على الدفاع عن أضيافه أمام قوم فاسقين، قد أغرموا بإتيان الذكور فى أدبارهم، وقد أفادت آيات أخرى جدال لوط مع قومه، وتحريضهم على الزواج بالنساء، فجماع النساء أطهر وأفضل حيث يكون فى مكان الحرث، وتتم المتعة مشتركة بين الذكر والأنثى، بل عرض عليهم زواج ابنتيه، فقال:

هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ . (هود: ٧٨ - ٨٣)

لقد فصل القرآن ذلك فى سور سابقة، وكرر هذه القصة للعظة والاعتبار، ولما شاهدت الملائكة مخايل الضجر على لوط، وعاينوا تألمه لعجزه عن حماية أضيافه، ودفع الظلم عنهم طمأنوه:

وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

أخبره الضيوف أنهم ملائكة، فلا خوف عليهم من قومه، وأنهم يحملون العذاب لهذه القرية الظالمة، التى فسد أهلها وغلبت عليهم الشهوات، فسيخسفون بهم الأرض، ويمطرون عليهم حجارة من السماء، وينزلون العذاب بالكافرين، وستتم نجاة لوط وأهله المؤمنين، بيد أن امرأته ستهلك مع الهالكين، لأنها كانت تساعد أهل القرية، وتفشى أسرار لوط، وتتمنى لو نجح الكافرون فى عمل الفاحشة مع أضياف لوط، وهذا أمر عجيب من هذه المرأة، وقد أهلكها الله مع الهالكين، ولم ينفعها قربها من لوط رسول الله، لأن عدالة الله قد شملت الإحسان إلى كل محسن، ومعاقبة كل مسىء.

قال تعالى: هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ . (الرحمن: ٦٠)

وقال سبحانه: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧، ٨)

والخلاصة: أن الملائكة طمأنت لوطا وأخبرته بنجاته مع المؤمنين، وأن زوجته الكافرة ستهلك مع الهالكين.

٣٤ - إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

زلزل الله بهم الأرض زلزلة شديدة، خسفت بقرية سدوم الأرض، وابتلعتهم فى باطنها، وصار مكان قريتهم بحيرة ملحة (البحر الميت).

قال ابن كثير:

إن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذابا إلى يوم الميعاد. أ هـ.

والخلاصة: قالت الملائكة سننزل على أهل قرية سدوم عذابا عظيما من السماء، تضطرب له نفوسهم بسبب فسقهم.

٣٥- وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

ترك الله هذه القرية خرابا يبابًا فيها آثار الهلاك والدمار، عظة بينة، وآية واضحة لمن استخدم عقله وفكره وبصيرته.

قال تعالى: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الصافات: ١٣٧، ١٣٨).

وفى السيرة النبوية: أن النبى ﷺ لما سار إلى غزوة تبوك مر بقرى ثمود؛ فانحنى على راحلته واستحثها، وقال: «لا تمرّوا على قرى القوم الذى ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون، خشية أن يصيبكم ما أصابهم» [٦٨].

ومثل ذلك يقال فى قرى قوم لوط التى أثبتت الاكتشافات الحديثة ترجيح وجودها فى مكان بحيرة لوط بجوار البحر الميت، وهى عبرة وعظة، ودليل على عظم هذه الفاحشة، فهى كبيرة بالإجماع، وأشد حرمة من الزنا [٦٩].

★ ★ ★

قصص شعيب وهود وصالح وموسى

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات:

والى مدين: وأرسلنا إلى مدين، وأصلها: أبو القبيلة.

ارجوا اليوم الآخر: افعلوا ما ترجون به ثواب اليوم الآخر.

لا تعثوا: لا تفسدوا

الرجفة: الزلزلة الشديدة، وقيل: صيحة جبريل.

جاثمين: باركين على الركب ميتين.

وعادا وثمود: وأهلكنا

من مساكنهم: كانت قبيلة عاد تسكن الأحقاف، قرب اليمن، وثمود تسكن الحِجر، قرب وادى القرى، (بين الحجاز والشام).

أعمالهم: من الكفر والمعاصى.

السبيل: سبيل الحق الذى بينه الرسل لهم.

مستبصرين: عقلاء ذوى بصائر، ولكنها لم تنفعهم.

سابقين: فائتين عذابنا غير مُدْرَكين، بل أدركهم أمر الله.

حاصبا: سحابا أو ريحا تحصبهم بالحجارة.

الصيحة: تموج شديد في الهواء، يحدث هزة عنيفة مهلكة.

خسفنا به الأرض: غيبناه في جوفها.

التفسير:

٣٦ - ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

أرسل الله تعالى عبده شعيبا، رسولا ناصحا إلى قبيلة مدين، إخوته في النسب، فنصحهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وبالعمل الصالح الذي يؤهلهم للنجاة في اليوم الآخر، مع خشية الله والخوف من حسابه، والبعد عن الفساد، وتطفيف الكيل والميزان، وقطع الطريق والعدوان على الآخرين، وقد مضت قصتهم مبسوطة في سور: الأعراف، وهود، والشعراء.

ونلاحظ أن الله تعالى قصَّ علينا فيما سبق قصص نوح وإبراهيم ولوط، ثم أردف ذلك بقصص شعيب وهود وصالح وموسى بإيجاز، لفائدة العظة والإعتبار بأحوال هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم.

كما نلاحظ أن القرآن فيما سبق تكلم عن قوم الرسول: قوم نوح، وقوم لوط؛ لأنهم لم يكن لهم اسم خاص بهم، أما هنا فتكلم عن القبيلة، أو القوم الذين أرسل إليهم الرسول مثل: مدين، وعاد، وثمود.

لأن هؤلاء كان لهم نسب معروف، اشتهروا به عند الناس، فجرى الكلام على أصله، وهو الحديث عن القبيلة أو القوم.

وقد اشتهر أمر قارون وفرعون وهامان بالطغيان، فتحدث القرآن عن أعيانهم.

٣٧ - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

أي: فقابلوه بالتكذيب والعناد والإصرار على الكفر والعصيان؛ فعاقبهم الله بالهلاك، حيث صاح بهم جبريل صيحة عظيمة زلزلت نفوسهم، أو زلزلت أركان ديارهم، وقد أرسل الله عليهم عذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم أدَّى إلى إماتتهم، فأصبحوا بسبب ذلك باركين على ركبهم ميتين.

قصص هود وصالح

٣٨ - ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

أي: وأهلكنا عادا قوم هود عليه السلام، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف قرب حضرموت، وقد حدثت حفريات حديثة قرب منطقة صلالة، في سلطنة عمان، وشاهد الناس قرى مغمورة غمرتها الرياح، وكشفت

الحفريات عن مبان بائدة، يرجح أنها لقبيلة عاد، حيث وُجدت مبان ضخمة لها أعمدة صلبة، ونشرت الصحف والمجلات نبأ هذا الكشف، وأشارت إلى قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ. (الفجر: ٦ - ٨)

وقد تحدث القرآن فى كثير من السور عن قبيلة عاد، وتفوقهم واعتزازهم بقوتهم، وغرورهم واستكبارهم، وظنهم أن أحدًا - أىَّ أحد - لن يقدر عليهم.

قال تعالى:

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ. (فصلت: ١٥، ١٦)

كما تحدثت سورة الحاقة عن قصة ثمود وعاد، فقالت:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ.
(الحاقة: ٤ - ٨)

ثمود قوم صالح

أهلك الله ثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحِجْر قريبا من وادى القُرى بين الحجاز والشام، ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم، وكانت العرب تعرف مساكنهم جيدًا، وتمرّ عليهم كثيرا.

ورأى النبى ﷺ مساكن صالح، حين مرّ بها فى غزوة تبوك، فأسرع واستحثّ راحلته، وانحنى على ظهرها، إشفاقا ووجلا واعتبارًا بهلاكهم، وقال لأصحابه: «لا تمرُّوا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون، خشية أن يصيبكم ما أصابهم» (٧٠).

وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ...

أى: أنتم يا أهل مكة تمرّون على ديارهم، وتشاهدون كيف أهلكهم الله، فاعتبروا واتعظوا، خشية أن يصيبكم ما أصابهم.

وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .

لقد كانوا في نعمة وغنى وقوة جسدية ومعنوية، مع عقل وبصيرة وفهم، لكن الشيطان أغراهم بالفجور والكفر والعدوان، وزين لهم الانحراف عن الطريق القويم، وسبيل الهداية والإيمان، قال تعالى:

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . (فصلت: ١٧، ١٨)

٣٩ - وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ .

أى: واذكر أيها الرسول الكريم قارون الذى أوتى العلم والمال، فطغى وبغى وأفسد، وفرعون الذى ملك مصر، وأرسل الله إليه موسى ومعه الآيات البينات، فكذب بها واستكبر، وذبّح أبناء بنى إسرائيل واستحيى نساءهم، وتكبَّر فى الأرض، وفرَّق بين الفرق، يستذل فريقا ضعيفا، ويقرِّب منه فريقا آخر، وهامان وزير فرعون وبطانة السوء، هؤلاء الثلاثة جاءهم موسى بالمعجزات الواضحات، ودعاهم إلى الإيمان بالله تعالى، واتباع هدى السماء، فاستكبروا فى الأرض، وخالفوا هداية السماء.

وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ .

لم يفلتوا من عذاب الله بأى حال، فهم في قبضة الملك الجبار القاهر، فقد عاقبهم بالعذاب والهلاك.

٤٠ - فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

عقاب السماء

أرسل الله ألوان العذاب على المكذبين، وكانت عقوبتهم أربعة أنواع:

١ - الريح العاصفة تحمل الحصباء (الحجارة الصغيرة) فتلقى عليهم، وتقتلعهم من الأرض، ثم تصرعهم فيصبحون جثثا هامدة كقوم عاد.

٢ - الصيحة الشديدة، التى زلزلت نفوسهم وبيوتهم، وأخمدت أصواتهم مثل ثمود وأهل مدين.

٣ - الخسف بالإنسان وكنوزه وأمواله مثل قارون، الذى اختال وتكبر وطغى؛ فخسف الله به وبداره الأرض.

٤ - الغرق، كما أغرق الله فرعون فى ماء النيل، وجعل الله نهايته عبرة وعظة لهلاك ملك قوى، لكنه ظلم وبغى فاستحق الغرق والهلاك.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

إن الله تعالى عادل لا يظلم مثقال ذرة: وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً . (الكهف: ٤٩)

فهو سبحانه وتعالى لم يظلمهم حين عاقبهم بالهلاك على أى وجه من الوجوه السابقة، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعدوان، وترك طرق الهداية واتباع سبل الغواية.

قال تعالى: وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ . (الفجر: ٩ - ١٤)

وقال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ . (فصلت: ٤٦)

★ ★ ★

تشبيه حال عبدة الأصنام بحال العنكبوت

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

المفردات:

مثل: المثل: الصفة التى تشبه المثل فى الغرابة.

أولياء: أصناما يرجون نفعها.

العنكبوت: حشرة تنسج نسيجا رقيقا واهيا.

اتخذت بيتا: لنفسها تأوى إليه مما نسجته من شبكة واهنة ضعيفة.

أوهن: أضعف البيوت عن دفع أى أذى.

من دونه: غيره.

وهو العزيز الحكيم: الغالب القوى فى ملكه، الحكيم فى صنعه.

تلك الأمثال: هذا المثل ونظائره.

نضربها للناس: نجعلها مثلا تقريبا لأفهامهم.

وما يعقلها: يفهمها.

إلا العالمون: المتدبرون

التفسير:

٤١ - مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

المتجه إلى الله تعالى فى العبادة يتجه إلى إله قوى قادر، عليم حكيم بيده الخلق والأمر والنفع والضّر، والمتجه بعبادته إلى الصنم أو الوثن أو الجن، أو الملائكة أو غيرها من المعبودات، يتجه إلى أمر واهن ضعيف لا ينفع ولا يضر، فكما أن بيت العنكبوت غاية فى الضعف، لا يحمى من حر الصيف أو برد الشتاء، فكذلك عابد الوثن أو الصنم يتجه إلى قوة متهالكة لا تملك له نفعًا ولا ضرًا.

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية كالآتى: المؤمن الذى يعبد الله كمثل رجل بنى بيتا من آجرّ وحجر، أو نحته فى صخر، والمشرك الذى يعبد الوثن كمثل عنكبوت اتخذت بيتا، وكما أن أضعف البيوت - إذا استقرأناها بيتا بيتا- هو بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان - إذا استقرأناها دينا دينا - هو عبادة الأوثان.

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

وإن أضعف البيوت بيت العنكبوت، لأنه يخرب بأدنى شىء ولا يبقى منه أثر، وكذلك أمر دينهم وعبادتهم للأصنام، فإنه قد بلغ الغاية التى لا غاية بعدها فى الضعف والوهن.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . علما صحيحًا أن أصنامهم وعبادتهم لا تنفعهم شيئا ما فعلوا ذلك، إلاّ أنهم فى الواقع فى غاية الجهل، لا يعلمون شيئا من عواقب الأمور، فتراهم يظنون ذلك النفع.

٤٢ - إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

من يتجه إلى الاعتزاز بالشيطان أو الصنم أو الوثن، أو المال أو الجاه أو السلطان، يتجه إلى غير ما طائل، لأن هذه الأمور مظاهر فانية، والله تعالى يعلم حقيقتها وضعفها وعجزها، وهو سبحانه وحده القوى الغالب، الحكيم فى تشريعه وعلمه، وما سواه من الأصنام وغيرها كالمعدوم البحت، وهو سبحانه وتعالى قادر على مجازاة المشركين ومعاقبتهم، لكنه يؤجل ذلك لحكمة يعلمها.

٤٣ - وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ .

هذا المثل وأشباهه فى القرآن الكريم، يضربه الله تعالى للناس تقريبا للمعانى، وتيسيرا عليهم في فهم الأمور، حيث يبرز المعانى المستورة ويوضحها، فتخرج فى قالب محسوس مشاهد أمام العيان.

وكان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، فلهذا قال سبحانه وتعالى: وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ .

أى: لا يعقل صحتها وحسنها، ولا يفهم فائدتها إلا العلماء الأثبات، المتأملون فى القضايا والمسائل.

روى جابر أن النبى ﷺ تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله تعالى، فعمل بطاعته واجتنب سخطه».

من تفسير القرطبى:

قال عطاء الخرسانى: نسجت العنكبوت مرتين: على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرة على النبى ﷺ، ولذلك نُهى عن قتلها.

ويروى عن على رضى الله عنه أنه قال: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه فى البيوت يورث الفقر [٧١]. أ هـ.

ونحن ندعو الناس جميعا إلى نظافة بيوتهم، وتطهيرها من العنكبوت وغيره من الهوام، فإن الله تعالى نظيف يحب النظافة، جميل يحب الجمال، طيب يحب الطيبين.

وقد بنى الدين على النظافة، ومن أجل ذلك شرع الإسلام الوضوء والاغتسال، وطهارة البدن والثوب والمكان، وفى الحديث الشريف: «الطهور شطر الإيمان» [٧٢].

وقال تعالى: وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . (المدثر: ٤).

وقال عز شأنه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ... (المائدة: ٦).

★ ★ ★

تلاوة القرآن وإقامة الصلاة

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

المفردات:

بالحق: بالعدل والقسط، أو بحكمته وقدرته المنزهة عن العبث.

لآية: علامة ودلالة.

اتل: اقرأ القرآن تقربا إلى الله بقراءته، واستكشافًا لمعانيه.

وأقم الصلاة: أدِّها في وقتها بخشوعها وكمال أركانها، وحضور القلب والتقرب إلى الله تعالى.

تنهى عن الفحشاء والمنكر: تكون سببا في البعد عن المعاصي، والقبيح السيئ الذي ينكره العقل والشرع، لأن المصلي يناجي ربّه، ويتقرب إليه مخلصا تائبا راغبا راهبا؛ فيخلع الله عليه أنواره وهدايته وتوفيقه.

التفسير:

٤٤ – خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ .

خلق الله السماوات والأرض خلقا مقترنا بالحق، لم يخلقهما عبثًا بل خلقهما لحكمة إلهية سامية، هي أن يخلق الإنسان، وأن يجعله خليفة في الأرض، وأن يمنحه العقل والإرادة والاختيار، وأن يرسل إليه الرسل، وينزل إليه الكتب، فمن أطاع فله الجنة، ومن عصى وأعرض وطغى وبغى فله النار.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ .

في خلق السماء مرفوعة مزينة بالنجوم، والشمس والقمر والبروج والأفلاك والأملاك، وخلق الأرض وفيها الجبال والبحار والأنهار، والنبات والفضاء والهواء، لدلائل واضحة للمؤمنين بالله، الذي يتأملون في خلق الله، ويستدلون بالصنعة على الصانع، قال تعالى:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .

(آل عمران: ١٩٠، ١٩١)

وقال تعالى: لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ . (طه: ١٥)

وقال سبحانه وتعالى: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى . (النجم: ٣١)

٤٥ – اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

اقرأ يا محمد القرآن الكريم، ففيه التشريع والهداية، والحلال والحلام، والآداب ومكارم الأخلاق، فاقرأ القرآن، وبلِّغ أمتك قراءة القرآن، والتهجد به والعمل بأحكامه، فقارئ القرآن يأجره الله عن كل حرف عشر حسنات، وتشهد الملائكة تلاوته.

وَأَقِمِ الصَّلاةَ . . .

حافظ على إقامة الصلاة كاملة الأركان، مستوفاة الخشوع والخضوع، وحضور القلب، ومراقبة الله بأن المصلى مناج ربّه فليستحضر عظمته.

إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ . . .

إن مداومة الصلاة مع الإخلاص والخشوع، والخشية من الله وتدبر القراءة، وتأمل عظمة الخالق ومناجاته، والانشغال بذكره وتعظيمه، وتسبيحه وحمده، من شأن ذلك أن يتبعه نور وهداية ومعونة، وتوفيق من الله للعبد، فتراه عازفًا عن الفحشاء والمنكر، مبتعدًا عن الكبائر والموبقات.

قال أبو العالية:

إن الصلاة فيها ثلاث خصال: الإخلاص، والخشية، وذكر الله.

فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله – القرآن – يأمره وينهاه، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست صلاة.

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ . . .

أى: تذكرك عظمة الله، وذكر الله بلسانك وقلبك فى الصلاة أكبر وأعظم، أو إذا ذكرت الله ذكرك الله، فذكره لك أكبر وأعظم.

وفى الحديث القدسى: «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه» [٧٣].

فالمصلى والمؤمن الذى يذكر الله فى حياته وصلاته، ونهاره وليله، ويقظته ونومه، وبيعه وشرائه، هذا الذكر أكبر من كل شيء فى الدنيا.

قال تعالى: وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً . (الأحزاب: ٣٥)

وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا .
(الأحزاب: ٤١ – ٤٤)

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

الله تعالى مطلع وشاهد لأعمالكم وسيجازيكم عليها. وفى الحديث الشريف: «والذى نفس محمد بيده لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبنّ على ما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا».

مختارات من تفسير ابن كثير

روى ابن أبى حاتم، عن عمران بن حصين قال: سئل النبى ﷺ عن قول الله: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ . . .، فقال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بعدًا» (٧٤).

وروى الحافظ أبو بكر البزار، قال: قال رجل للنبىّ ﷺ: إن فلانا يصلّى بالليل فإذا أصبح سرق، قال: «إنه سينهاه ما تقول» (٧٥).

وتشتمل الصلاة أيضا على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى:

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ . . . أى: أعظم من الأول.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

أى: يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم.

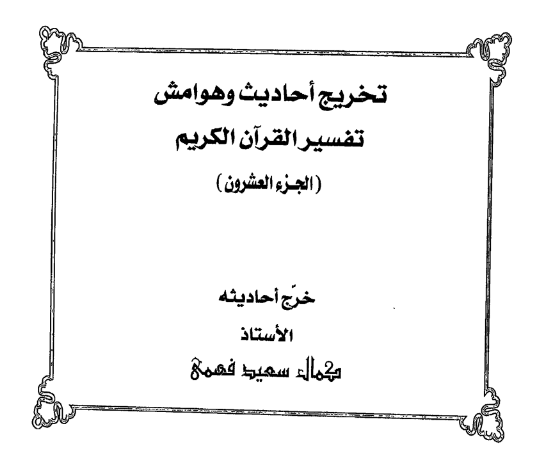
وعن ابن عباس فى قوله تعالى: وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ . . . يقول: ولذكر الله لعباده أكبر – إذا ذكروه – من ذكرهم إياه (٧٦).

وعن عبد الله بن ربيعة قال: قال لى ابن عباس: هل تدرى ما قوله تعالى: وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ . . . ؟ قلت: نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد فى الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك. قال: لقد قلت قولا عجيبا، وما هو كذلك، ولكنه إنّما يقول: ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه، إذا ذكرتموه، أكبر من ذكركم إياه.

وقد رُوى هذا من غير وجه، عن ابن عباس، واختاره ابن جرير (٧٧).

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير الجزء العشرين، والحمد لله، له الحمد فى الأولى والآخرة، اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت ضياء السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، يا ربّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء العشرون)

خرّج أحاديثه
الأستاذ
جمال سعيد فهمي

(١) الهالكين .

(٢) اللهم لك الحمد :

«اللهم لك الحمد ، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك حق ، والجنة حق ، والنار حق، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت» .

رواه البخارى فى التهجد ١١٢٠ ، ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها ح ١٢٨٨ ، والترمذى فى الدعوات ح ٣٣٤٠ ، والنسائى فى قيام الليل ح ١٦٠١ ، وأبو داود فى الصلاة ح ٦٥٥ ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة ح ١٣٤٥ ، وأحمد ح ٢٥٧٥، ومالك فى النداء للصلاة ح ٤٥١ ، والدارمى فى الصلاة ح ١٤٤٨ .

(٣) اللهم إنى أسألك بأنى أشهد :

رواه الترمذى فى الدعوات ح ٣٣٩٧ ، وابن ماجة فى الدعاء ح ٣٨٤٧ من حديث بريدة ، وقال الترمذى : حديث حسن غريب .

(٤) يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث :

بهذا اللفظ ذكره الهيثمى فى المجمع ١٠/١٨٣ وعزاه للطبرانى فى الصغير والأوسط ، من طريق سلمة بن حرب بن زياد، عن أبى مدرك ، عن أنس ، وسلمة بن حرب : مجهول كشيخه أبى مدرك ، وقد وثقه ابن حبان وذكر له هذا الحديث فى ترجمته ، وفى الميزان : أبو مدرك قال الدارقطنى : متروك ، فلا أدرى هو أبو مدرك هذا أو غيره، وبقية رجاله ثقات، وانظر: ابن حبان فى الثقات ٦ / ٣٩٨ .

ورواه الترمذى فى الدعوات ح ٣٣٥٨ ، من حديث أبى هريرة قال : «.. وإذا اجتهد فى الدعاء قال : يا حى يا قيوم» . اهـ وقال : حديث غريب ، وذكره فى نفس الباب برقم ٣٤٤٦ ، من حديث أنس بن مالك قال : كان إذا كربه أمر قال : «يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث» اهـ .

(٥) يا ذا الجلال والإكرام :

رواه الترمذى بنحوه فى الدعوات ح ٣٤٩٣ وقال : حديث حسن غريب .

(٦) من زعم أن محمدًا :

رواه مسلم فى الإيمان ح ٢٥٩ ، والترمذى فى التفسير ح ٢٩٩٤ ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٧) التفسير الوسيط : تأليف لجنة من علماء الأزهر ، ص ١٧٠٥ .

(٨) من أتى عرافًا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة :

مسلم فى السلام ٤١٣٧ ، وأحمد ح ١٦٠٤١ ، ٢٢١٣٨ ، عن بعض أزواج النبى ﷺ .

(٩) ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط :

رواه مسلم فى فضائل الصحابة ح ٤٦١٤، من حديث أبى ذر .

(١٠) أنت الأول فليس قبلك شيء :

مسلم فى الذكر والدعاء ٤٨٨٨ ، وأبو داود فى الأدب ح ٤٣٩٢ ، والترمذى فى الدعوات ح ٣٣٢٢ ، ٣٤٠٣ ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجة فى الدعاء ح ٣٨٢١ ، ٣٨٦٣ وأحمد ح ٨٦٠٣ ، ١٠٥٠٣ ، كلهم عن أبى هريرة .

(١١) ثلاث إذا خرجن :

رواه مسلم فى الإيمان ح ٢٢٧ ، والترمذى فى التفسير ح ٢٩٩٨ ، وأحمد ح ٩٣٦٧ ، من حديث أبى هريرة .

(١٢) إن أول الآيات خروجًا :

رواه مسلم فى الفتن ح ٥٢٣٤ ، وأبو داود فى الملاحم ح ٣٧٥٦ ، وأحمد ح ٦٥٨٦ ، من حديث عبد الله بن عمرو .

(١٣) لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات :

رواه مسلم فى الفتن ح ٥١٦٢ ، ٥١٦٣ ، وأبو داود فى الملاحم ح ٣٧٥٧ ، والترمذى فى الفتن ح ٢١٠٩ ، وابن ماجة فى الفتن ح ٤٠٣١ ، ٤٠٤٥ ، وأحمد ج ١٥٥٥٥ ،١٥٥٥٧ ، من حديث حذيفة بن أسيد الغفارى .

(١٤) بادروا بالأعمال ستًا :

رواه مسلم فى الفتن ٥٢٤٠ ، ٥٢٤١ ، وأحمد ح ٧٩٥٢ ، ٨٠٩٢ ، ٨٤٩٤ ، ٨٩١٠ ، ١٠٢٢٩ ، من حديث أبى هريرة .
ورواه ابن ماجة فى الفتن ح ٤٠٤٦ ، من حديث أنس بن مالك ، وفى إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(١٥) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، لجنة القرآن والسنّة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، بوزارة الأوقاف المصرية ص ٥٧٤ ، وهذا النص به أخطاء مطبعية فصوبت الخطأ ، واختصرته .

(١٦) إن الله كتب الحسنات :

البخارى فى الرقاق ح ٦٠١٠ ، ومسلم فى الإيمان ح ١٨٧ ، وأحمد ح ٢٦٨٤ ، ٣٢٢٨ ، من حديث ابن عباس .

(١٧) انظر صحيح مسلم ، كتاب الحج ، ج ٢ ص ٩٨٦ .

(١٨) يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك :

رواه ابن ماجة فى الأدب ح ٣٧٩١ ، من حديث عبد الله بن عمر . وليس فيه زيادة : «رضينا بالله ربا ...» الحديث .

(١٩) أى : المؤمن يعبد الله فيستفيد من العبادة نظافة القلب، وثقة النفس، وثبات اليقين، وهدوء البال، وصحة الجسم والروح . ثم ينال ثواب العبادة فى جنة عرضها السماوات والأرض يوم القيامة ، وبذلك ينال أجره مضاعفًا : مرة فى الدنيا ، ومرة فى الآخرة .

(٢٠) إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣٤٦٤ ، ومسلم فى الزهد ح ٢٩٦٤ ، ٣٠٠٥ ، وأحمد ح ١٦ ، كلهم من حديث أبى هريرة .

(٢١) إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم يكلمون وإنه :

رواه البخارى فى المناقب ح ٣٤٦٩ ، ٣٦٨٩ من حديث أبى هريرة . ورواه مسلم ح ٢٣٩٨ ، وأحمد ٢٣٧٦٤ ، والترمذى ٣٦٩٣ ، من حديث عائشة .

تنبيه : حديث عائشة رضى الله عنها ليس فيه «يكلمون» إنما ذكرت فيه «محدثون» .

(٢٢) إن رجلاً زار أخًا له فى قرية أخرى ، فأرصد الله له على :

رواه مسلم ٢٥٦٧ ، وأحمد ٧٨٥٩ ، ١٠٢٢٢ ، من حديث أبى هريرة . «مدرجته» : الطريق ، سميت به لأن الناس يدرجون فيها، أى : يمشون .

(٢٣) إن لله ملائكة طوافين عليكم :

رواه البخارى ٦٤٠٨ من حديث أبى هريرة ، ورواه الترمذى ٣٦٠٠ ، وأحمد ٧٣٧٦ ، قال الأعمش : من حديث أبى هريرة أو أبى سعيد - شك الأعمش - .

(٢٤) هو :

أستغفر الله لذنبى كلّه قتلت إنسانا بغير حلّه
مثل غزال ناعم فى دله انتصف الليل ولم أصلّه

(٢٥) مثل المؤمن كأم موسى :

ذكره الغزالى فى «الإحياء» ، كتاب الحج ، الباب الثانى : فى ترتيب الأفعال الظاهرة . بلفظ : «مثل الذى يغزو ويأخذ أجرا مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها» وقال العراقى : أخرجه ابن عدى من حديث معاذ ، وقال : مستقيم الإسناد، منكر المتن .

وكذلك أخرجه أبو داود فى المراسيل ، عن جبير بن نفير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل الذين يغزون من أمتى ويأخذون الجعل - يعنى : يتقوون على عدوهم - مثل أم موسى ، ترضع ولدها وتأخذ أجرها» . نقلاً عن السيوطى فى «الدر المنثور» المجلد السادس - تفسير سورة القصص ، وصححه . وذكره السيوطى كذلك فى «الجامع الصغير» ٨١٤٣ ، ونسبه لأبى داود فى مراسيله ، والبيهقى فى السنن عن جبير بن نفير مرسلا .

(٢٦) من ولى شيئًا من أمر المسلمين :

تقدم تخريجه .

(٢٧) لا نكاح إلا بولى :

أبو داود ٢٠٨٥ ، وأحمد ١٩٠٢٤ ، ١٩٢١١ ، ١٩٢٤٧ ، ٢٢٦٠ ، وابن ماجة ١٨٨١، والترمذى ١١٠١ ، والدارمى ٢١٨٢ ، ٢١٨٣ ، من حديث عبد الله بن عباس . ورواه أحمد ٢٥٧٠٣ ، وابن ماجة ١٨٨٠ ، من حديث عائشة . وفى الباب عن ابن عباس وأبى هريرة وعمران .

(٢٨) قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل :

رواه البخارى فى التفسير ٢٦٨٤ ، عن عبد الله بن عباس .

(٢٩) فى ظلال القرآن ٢٠ / ٦٣ .

(٣٠) تفسير القرطبى ٦ / ٥١٤٤ .

(٣١) أيسر التفاسير ، أبو بكر الجزائرى ، مكتبة العلوم والحِكم بالمدينة المنورة ٤/ ٧٠ .

(٣٢) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ٣/ ١٤ .

(٣٣) الكبرياء ردائى والعزة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما :

أبو داود فى اللباس ٤٠٩٠ ، وأحمد ٧٣٣٥ ، ٨٦٧٧ ، ٩٠٩٥ ، ٩٢٢٤ ، ٩٤١٠ ، وابن ماجة فى الزهد ٤١٧٤ ، من حديث أبى هريرة . ورواه ابن ماجة أيضًا ٤١٧٥ ، من حديث عبد الله بن عباس .

(٣٤) من سن سنة حسنة كان له أجرها :

رواه مسلم فى العلم ١٠١٧ ، وفى الزكاة ٢٥٥٤ ، والدارمى فى المقدمة ٥١٢ ، ٥١٤ ، والترمذى فى العلم ٢٦٧٥ ، وابن ماجة فى المقدمة ٢٠٣ ، وأحمد ١٨٦٧٥ ، ١٨٧٠١ ، ١٨٧١٨ ، ١٨٧٢٠ من حديث جرير بن عبد الله البجلى . ورواه أحمد ١٠١٧٨ ، ١٠٣٧٠ من حديث أبى هريرة . ورواه أحمد أيضًا ٢٢٧٧٨ من حديث حذيفة . ورواه ابن ماجة فى المقدمة ٢٠٧ من حديث وهب بن عبد الله .

(٣٥) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ٣/ ١٦ .

(٣٦) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ٣/ ١٧ .

(٣٧) تفسير ابن كثير .

(٣٨) ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين :

رواه البخارى فى الجهاد والسير ٣٠١١ ، ومسلم فى الإيمان ١٥٤ ، والنسائى فى النكاح ٣٣٤٤ ، والدارمى فى النكاح ٢٢٤٤، والترمذى ١١١٦ فى النكاح ، وأحمد ١٩١٠٥ ، ١٩١٣٧ من حديث عبد الله بن قيس «أبى موسى الأشعرى» .

(٣٩) من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين :

رواه أحمد ٢١٧٣١ من حديث صدى بن عجلان «أبى أمامة الباهلى» وزاد فيه : «ومن أسلم من المشركين»، وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» كتاب الإيمان ، باب : فيمن أسلم من أهل الكتاب وغيرهم . وقال : رواه أحمد ، والطبرانى فى الكبير، وفيه القاسم أبو عبد الرحمن وقد ضعفه أحمد وغيره . قلت : فى إسناده ابن لهيعة ، وهو ضعيف أيضًا .

(٤٠) أخرجه البخارى ، باب : قصة أبى طالب ٥/ ٦٥ – ٦٦ ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب : أول الإيمان قولة لا إله إلا الله ١/ ٥٤ .

(٤١) يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها :

رواه مسلم فى الإيمان ٢٥ ، والترمذى ٣١٨٨ ، وأحمد ٩٣٢٧ ، ٩٣٩٤ من حديث أبى هريرة . وانظر ما قبله .

(٤٢) وأجاز المفسرون أن تكون «لو» [illegible] وجوابها محذوف ، والتقدير : لو أنهم كانوا فى الدنيا مهتدين إلى طريق الحق لما أصابهم هذا العذاب المهين

(٤٣) اللهم خر لى واختر لى :

رواه الترمذى فى الدعوات ٣٥١٦ من حديث أبى بكر الصديق وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زنفل ، وهو ضعيف عند أهل الحديث ، ويقال له : زنفل بن عبد الله العرفى ، وكان يسكن عرفات ، وتفرد بهذا الحديث ولا يتابع عليه.

قال النووى فى «الأذكار» : باب دعاء الاستخارة ، وروينا فى كتاب الترمذى بإسناد ضعيف ، ضعفه الترمذى وغيره – فأشار إلى ضعفه .

وقال العجلونى فى «كشف الخفا» ٥٥٨ : رواه الترمذى ، والبيهقى فى الشعب ، عن عائشة ، بسند فيه زنفل بن عبد الله ضعيف ، قال النجم : روى الترمذى وأبو يعلى والبيهقى وضعفه عن أبى بكر الصديق .

(٤٤) يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات :

رواه ابن السنى (٦٠٣) من حديث أنس . وذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» ٨٨٢ وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس ، وقال السيوطى : ضعيف .

قال المناوى فى «فتح القدير شرح الجامع الصغير» : فيه إبراهيم بن البراء ، قال الذهبى فى الضعفاء : اتهموه بالوضع عن أبيه وهو ضعيف . وقال النووى فى الأذكار : إسناده غريب فيه من لم أعرفهم . وقال ابن حجر فى الفتح بعد عزوه لابن السنى : هذا الحديث لو ثبت كان هو المعتمد ، لكن إسناده واه جدًا .

(٤٥) اللهم إنى أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك :

البخارى فى الجمعة ١١٦٦ ، وفى الدعوات ٦٣٨٢ ، وفى التوحيد ٧٣٩٠ ، وأبو داود فى الصلاة ١٥٣٨ ، والترمذى فى الصلاة ٤٨٠ ، والنسائى فى النكاح ٣٢٥٣ ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة ١٣٨٣ ، وأحمد ١٤٢٧٩ ، كلهم من حديث جابر، ومعنى : «فاقدره لى» ، أى : اجعله مقدورًا لى ، أو قدِّره . وقيل : معناه يسره لى .

(٤٦) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

(٤٧) التفسير الوسيط : تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، وانظر تفسير ابن كثير ، ومختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ، حيث علق الصابونى فى الهامش باستحسان كلام ابن كثير فى ردّ هذا الرأى الأخير .

(٤٨) قيل : هم جماعة من المؤمنين ، تمنوا أن تكون لهم دنيا كدنيا قارون ، جريا على سنة البشر فى حب التوسع فيها ، وقيل : هم جماعة من الكفار أو المنافقين الذين لا همَّ لهم إلا دنياهم ، والظاهر مع الرأى الأول .

(٤٩) بينا رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل :

رواه البخارى ٣٤٨٥ ، ٥٧٩٠ ، وأحمد ٥٣١٨ ، والنسائى فى الزينة ٥٣٢٦ ، من حديث عبد الله بن عمر . ورواه البخارى فى اللباس ٥٧٨٩ ، ومسلم فى اللباس ٢٠٨٨ ، والدارمى فى المقدمة ٤٣٧ ، وأحمد ٧٥٧٤ ، ٨٨٢٢ ، ٩٠٨٢ ، ٩٥٦٧ ، ٢٧٣٦١ ، ٢٧٣٩٤ ، ١٠٠١٠ ، ٧٧ ، ١٠٠ ، ١٠٤٨٨ ، من حديث أبى هريرة .

ورواه الترمذى فى صفة القيامة ٢٤٩١ ، وأحمد ٧٠٣٤ ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . ورواه أحمد ١٠٩٦٠، ١٠٩٦٣ من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٥٠) إن الله جميل يحب الجمال :

مسلم فى الإيمان ٩١ ، والترمذى فى البر والصلة ١٩٩٩ . من حديث عبد الله بن مسعود .

(٥١) إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم :

رواه أحمد ٣٦٦٣ ، وذكره الهيثمى فى «المجمع» وقال : إسناد بعضهم مستور ، وأكثرهم ثقات . من حديث عبد الله بن مسعود .

(٥٢) إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد :

مسلم فى الجنة ٢٨٦٥ ، وأبو داود فى الأدب ٤٨٩٥ ، وابن ماجة فى الزهد ٤١٧٩ ، من حديث عياض بن حمار . ورواه ابن ماجة فى الزهد أيضًا ١٢١٤ ، من حديث أنس بن مالك .

قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناده حسن ، للاختلاف فى اسم سنان بن سعد أو سعد بن سنان .

(٥٣) لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر :

رواه أبو داود فى اللباس ٤٠٩٢ ، من حديث أبى هريرة .

وانظر حديث : «إن الله جميل يحب الجمال» فهو جزء من هذا الحديث .

(٥٤) أشهد أنك لا تبغى علوا فى الأرض :

قال العجلونى فى «كشف الخفا» : وروى العسكرى بسند ضعيف عن عدى بن حاتم ، فذكره .

(٥٥) أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

البخارى فى المناقب ٣٨٤١، وفى الأدب ٦١٤٧ ، ومسلم فى الشعر ٢٢٥٦ ، وابن ماجة فى الأدب ٣٧٥٧ ، وأحمد ٨٨٦٦ ، ٩٧٢٤ من حديث أبى هريرة .

(٥٦) انظر تفسير مقاتل بن سليمان .

(٥٧) أشد الناس بلاء الأنبياء :

بوب به البخارى فى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى فى الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجة فى الفتن ح ٤٠٢٣ ، وأحمد ح ١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨ ، ١٦١٠ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٨٣ ، من حديث سعد بن أبى وقاص ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٥٨) فى ظلال القرآن ٢٠/١٠٧ ، ط ١ .

(٥٩) قصة سعد بن أبى وقاص :

رواها مسلم فى فضائل الصحابة ١٧٤٨، والترمذى فى تفسير القرآن ٣١٨٩ ، من حديث سعد .

(٦٠) قال تعالى : ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ...﴾. (انظر سورة: غافر : ٧ – ٩) .

(٦١) لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ولقد أخفت فى الله :

رواه ابن ماجة فى المقدمة ١٥١ ، والترمذى فى صفة القيامة ٢٤٧٢ ، وأحمد ١١٨٠٢ ، ١٣٦٤١ من حديث أنس بن مالك ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٦٢) من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه :

رواه ابن ماجة فى المقدمة ٢٠٥ من حديث أنس إلا أنه بلفظ : «أيما داع دعا إلى ضلالة فاتُّبع ؛ فإن له مثل أوزار من اتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئا ، وأيما داع دعا إلى هدى فاتُّبع فإن له مثل أجور من اتبعه ولا ينقص من أجورهم شيئا» .

أما اللفظة التى ذكرها المصنف فرواها مسلم فى العلم ٢٦٧٤ ، وابن ماجة فى المقدمة ٢٠٦ ، والدارمى فى المقدمة ٥١٣ ، وأبو داود فى السنة ٤٦٠٩ ، وأحمد ٨٩١٥ ، والترمذى فى العلم ٢٦٧٤ من حديث أبى هريرة .

(٦٣) لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من :

البخارى فى الأنبياء ٣٣٣٦ ، وفى الديات ٦٨٦٧ ، وفى الاعتصام ٧٣٢١ ومسلم فى القسامة ١٦٧٧ ، والترمذى فى العلم ٢٦٧٣ ، والنسائى فى تحريم الدم ٣٩٨٥ ، وابن ماجة فى الديات ٢٦١٦ ، وأحمد ٣٦٢٣ ، ٤٠٨١ ، ٤١١٢ .

(٦٤) من سن سنة سيئة :

تقدم تخريجه .

(٦٥) انظر تفسير القرطبى ٦/٥١٩٦ دار الغد العربى ، القاهرة .

(٦٦) انظر تفسير الآلوسى ، حيث قال : وقيل : الضمير فى قوله تعالى : ﴿وقال إنى مهاجر إلى ربِّى ...﴾ للوط عليه السلام ، وليس بشىء لما يلزم عليه من التفكيك .

(٦٧) فى ظلال القرآن ، سيد قطب ٢٠ / ١٢٣.

(٦٨) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم :

رواه البخارى فى الصلاة ح ٤١٥ ، وفى أحاديث الأنبياء ح ٣١٢ ، ٣١٣ ، وفى المغازى ح ٤٠٧٦ ، ٤٠٨٦ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٣٣٣ ، ومسلم فى الزهد ح ٥٢٩٢ ، ٥٢٩٣ ، وأحمد ٤٣٣٣ ، ٤٩٧٤ ، ٥٠٩٠ ، من حديث عبد الله بن عمر بلفظ : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ...» الحديث .

(٦٩) التفسير الوسيط : تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، ص ١٨٥٤، الحزب الأربعون.

(٧٠) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم :

تقدم فى الحديث قبله .

(٧١) طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه يورث الفقر :

ذكره المناوى فى «شرح الجامع الصغير» ٥٧٣٩ ، وقال : قضية تصرف المصنف أن ابن عدى خرجه وأقره ، والأمر بخلافه ، فإنه أورده فى ترجمة مسلمة بن على الخشنى ، وقال : عامة حديثه غير محفوظ ، وفى الميزان : هو شامى واه تركوه ، وقال أبو حاتم : لا يشتغل به ، وقال النسائى : متروك ، وقال البخارى : منكر الحديث .

(٧٢) الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان :

رواه مسلم فى الطهارة ٢٢٣، وأحمد ٢٢٣٩٥ ، والدارمى فى الطهارة ٦٥٣ . من حديث أبى مالك الأشعرى .

(٧٣) من ذكرنى فى نفسه :

البخارى فى التوحيد ٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ومسلم فى الذكر والدعاء ٢٦٧٥ ، والترمذى فى الزهد ٢٣٨٨ ، وفى الدعوات ٣٦٠٣ ، وابن ماجة فى الأدب ٣٨٢٢، وأحمد ١٠٣٢٦ ، ١٠٤٠٣ ، ١٠٥٢٦ ، ٢٧٢٨٣ ، ٢٧٣٩٥ ٨٨٣٣ ، ٩٠٨٧، ٩٤٥٧ من حديث أبى هريرة .

ورواه أحمد ١٢٧٨٠ ، ١٣٥٢٧ من حديث أنس بن مالك .

(٧٤) من لم تنهه صلاته :

ذكره الغزالى فى «الإحياء» وقال العراقى فى تخريجه : أخرجه على بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلا بإسناد صحيح ، ورواه الطبرانى ، وأسنده ابن مردويه فى تفسيره من حديث ابن عباس بإسناد لين .

وذكره العجلونى فى «كشف الخفا» وقال : رواه أحمد فى الزهد ، عن ابن مسعود موقوفًا ، ورواه ابن جرير عنه مرفوعًا.

وذكره الهيثمى فى «المجمع» ، وقال : رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه ليث بن أبى سليم ، وهو ثقة ولكنه مدلس .

(٧٥) إنه سينهاه ما تقول :

رواه أحمد ٩٤٨٦ ، وذكره الهيثمى فى «المجمع» من حديث أبى هريرة ، وقال : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن الأعمش قال : أرى أبا صالح عن أبى هريرة . وذكره من حديث جابر ، وقال : رواه البزار ، ورجاله ثقات .

(٧٦) وهو قول مجاهد ، وبه قال غير واحد من السلف .

(٧٧) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ٣/٣٨ - ٣٩ .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تخريج أحاديث

وهوامش الجزء (العشرين)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله (الجزء العشرون)

ويليه الجزء (الحادى والعشرون) بإذن الله تعالى


Bibliotheca Alexandrina
0461306